جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية

مصادر الإمام عبد القاهر في بلاغته

٣٠١٠٢٠٠٠٠١٧٧٧

بحث مقدم

لنيل درجة الماجستير في علوم البلاغة

من الطالبة

هند جميل صالح نايته

إشراف الأستاذ الدكتور

علي محمد حسن العماري

٠٠٢٩٥٦
١٧٧٧

١٤٠٧ هـ - ٨

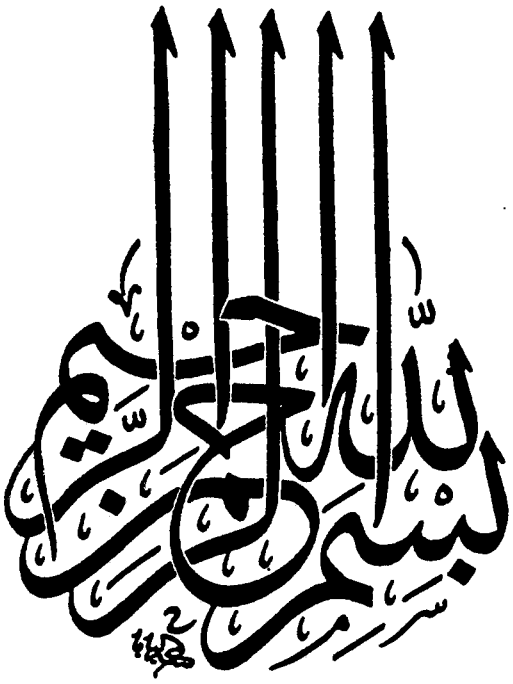
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعـــالى :

﴿قُـلْ لَو كَانَ البَحْرُ مداداً لكلمَاتِ رَبِّي لَنَفَدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كلمَاتُ رَبِّي وَلَو جِئْنا بِمثْلِهِ مَدَداً﴾

صدق الله العظيم

سورة الكهف. الآية ١٠٩

إهـــداء

إلى من رعيا طفولتي ، وما فتئا
يقيلان عثراتي ويسددان خطواتي
إلى من أدين لهما - بعد الله - بكياني
إلى أمي وأبي أهدي ثمرة جهدي
مع دعائي لهما بطول العمر..

شكر وتقدير

أتقدم بوافر الشكر وكامل العرفان ، لمن كان بهذا البحث حفيا ، فآلى على نفسه أن يكون بحثا ذا قيمة عليا .. أستاذي الفاضل الدكتور علي محمد حسن العماري ، الذي لم يدخر وسعا في نصحي وارشادي ، وبكل ما استطام من سبيل ، وهو أمر مرد عليه حتى أصبحت خليقته .

كما أتوجه بالشكر الجزيل الى زوجي العزيز الدكتور فيصل عرب ، الذي قدم من وقته وجهده وتشجيعه ما ساعدني على الاستمرار في اكمال هذا البحث .

ولا بد أن أعلن تقديري وشكري لسعادة عميد كلية اللغة العربية الدكتور عليان الحازمي ، ولسعادة عميد الدراسات العليا الدكتور حسن باجودة ، على ما قاما به من تذليل ما واجهني من صعاب .. وتلك حلى العلماء .

كما أنه لا يسعني إلا أن أشكر والديّ الكريمين ، وأشقائي وزميلاتي ، وكل من كانت له يد كريمة عاونت في اخراج هذا البحث .. وأخيرا .. (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله) (صدق الله العظيم).

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المقدمة

عباره عن :

موضوع البحث - أهدافه - خطته - منهجه
مصادر البحث .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

عبارة عن موضوع البحث

أهدافه - خطته - ومنهجه - مصادر البحث

الحمد لله حمد الشاكرين ، الذى أنزل القرآن الكريم عربيا مبينا ، والذى جعل البيان من أجلى صفاته ، وأظهرها ، وجعله حجة رسولنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم الدين .

أما بعد :

فموضوع البحث :

(مصادر الإمام عبد القاهر في بلاغته)

لقد اخترت هذا الموضوع بمساعدة أستاذى المشرف الدكتور على العمارى وذلك أني رأيت أن التحقيق في مثل هذا الموضوع يثبت مدى أصالة علم البيان العربي ، ويرد عنه كثيرا من الشكوك التي اعترت بعض أبنائه أمتنا ، وبهذا البحث أيضا نرد دعوى من رأى أن البيان العربي ، إنما هو وليد الثقافة اليونانية ، وتلك سهام مسمومة أنشبت أظفارها في بعض من تأثر بالدراسات الغربية .

ولقد استطعت في هذا البحث أن أبين جانبا من سر بلاغة الكلام البليغ وأن أبين أفضل ما وصل إليه البحث في (إعجاز القرآن الكريم) ، وهو نظرية النظم التي حسمت الخلاف حول (قضية اللفظ والمعنى) وإلى أيهما ترجع مزية الكلام . وهذه القضية يرجع تاريخها إلى أمد بعيد قبل عبد القاهر بكثير ، منذ بدأ تفسير القرآن الكريم ، حيث بدأ التفكير حول سرّ إعجازه الذى بهر البشر عامة ، والعرب خاصة ، فوقفوا أمامه حيارى .. مبهوتين ، ما لهم لا يقولون مثل قوله .

وإننا اليوم أمام شخصية مؤمنة ومتفردة في عبقريتها ، لم تمر عليها

صغيرة ولا كبيرة في دقائق المؤلفات والمصنفات ، الا أخذت حظها من العناية والدرس ، مما أدى الى توصل هذا العالم الجليل الى مالم يصل اليه غيره في علوم البلاغة ، من تحديد لتعريفاتها ، ومن اضافات جديدة لم تحظ من قبل بهذه العناية وان اعتمد على من سبقه من العلماء الأوائل . الا أنه زاد كثيرا . وناقش ما كتب بعقل مفكر متدبر ، حتى خلص أخيرا الى استنباط نظرية النظم التي لم يستطع أحد أن يسدد نحوها أى مطعن .

كما استطاع أن يجعل لأمتنا العربية علم بلاغة تباهي به ، وذلك ضمن وضعه لعلمي البيان والمعاني ، فاستحق بجدارة لقب " مؤسس علم البلاغة العربية " .

لذا رأيت باختيارى لهذا الموضوع ، أنمسيكون لي الشرف باذن الله - في أن أكون احدى اللواتي خدمن لغتهن بصدق واخلاص.

ولقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يكون في بابين يسبقهما تمهيد وتقفوهما خاتمة .

أما التمهيد فيتناول : حياة الشيخ عبد القاهر ، فشيوخه الذين تلقى العلم عليهم ، ثم تلاميذه الذين تتلمذوا عليه ، ثم كتبه .

وأما الرسالة فتبدأ :

ب . . **الباب الأول : القضايا التي تعرض لها الشيخ عبد القاهر** ويتكون من ثلاثة فصول . .

الفصل الأول : قضية النظم :

وهذا الموضوع قد شغل كتب البلاغة ، وشغل الباحثين في معرفة مرجع الكلام البليغ ، مما أدى الى ظهور (نظرية النظم) على يدى (الشيخ عبد القاهر) ، حيث أضاف الى ما ذكره سابقوه من العلماء ما جعل نظرية النظم تنسب اليه .

ثم ذكرت في هذا الفصل المناظرة المشهورة بين (متّى ابن يونس) و (أبي سعيد السيرافي) .

ولقد قسمت هذا الفصل الى ثلاثة مباحث وملحق .

المبحث الأول : معنى النظم وتاريخه .
المبحث الثاني : نظرية النظم وجهود السابقين .
المبحث الثالث : المناظرة بين (متّى بن يونس) و (أبي سعيد السيرافي) ،ثم ذيلت الفصل بملحق هو (الخلاف بين العلماء على قضية اللفظ والمعنى) .

الفصل الثاني : قضية المجاز وما يتفرع عنها في أسرار البلاغة

وفي هذا الفصل أثبتّ أصالة هذا العلم ، بأن استعرضت جذوره وتقصيت منابعه ، فوجدته قد عرف قبل سيبويه . ثم أخذت في تتبع جهود كل العلماء الذين لهم دور في نشوء هذا العلم وترقى أصوله . حتى وصلت الى دور (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) فاقتصرت على ذكر الجديد ، الذى استقل باضافته الى علم المجاز .

ولقد قسمت هذا الفصل الى مبحثين :
المبحث الاول : المجاز وجهود السابقين .
المبحث الثاني : دور (الشيخ عبد القاهر) في قضية المجاز.

ويليه الفصل الثالث : (قضية اعجاز القرآن ، كما في الرسالة الشافية) :

فقد أفرد (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) كتيبا خاصا للحديث عن اعجاز القرآن ، وهو (الرسالة الشافية) . ولقد تحدثت في هذا الفصل عن الأقوال التي قيلت في اعجاز القرآن ، والتي سبق بها الشيخ عبد القاهر ، ما أتيح لي الاطلاع عليه .

ثم بينت الآراء التي استفاد منها (الشيخ عبد القاهر) ، والتي أخذها كما هي ، والتي أضاف اليها جديدا .

ثم تحدثت عن الصرفة ، وعن القائلين بها ، وعن الذين يرفضون هذا المذهب، وبينت حجة كل منهم في اثبات رأيه .

وفي الختام .. عرضت لأقوال (الشيخ عبد القاهر) في رد دعوى القائلين بالصرفة ، فكان في رده فرقانا ، وقد جعلت هذا في (ملحق) خاص .

الباب الثاني : مصادر بلاغة الامام عبد القاهر .. ويتكون من أربعة فصول :

الفصل الأول : العلماء الذين أخذ منهم عبد القاهر ، ولم يذكر أسماءهم في كتبه .

لقد قرأ الشيخ عبد القاهر الجرجاني معظم مؤلفات سابقيه ، ومع ذلك فإنه لم يصرح .

ولقد تتبعت هذه الكتب ، وعينت المواضع التي أخذ منها ، وقارنتها بآرائه :

هل وافق من أخذ عنهم الفكرة ، أم رد ها ليشرح وجهة نظره .

الفصل الثاني : العلماء الذين أخذ منهم الشيخ عبد القاهر ، وذكر أسماءهم في كتبه .

صرح الشيخ عبد القاهر الجرجاني بأنه استفاد من بعض سابقيه ، وأنه قرأ مؤلفاتهم وأخذ عنها ، وهذا في حد ذاته لا يقلل من شأن علمه وعبقريته .

ولقد قمت باستقصاء الأفكار التي طرحها في كتبه ، وتتبعت نظراءها في كتب السابقين ، فوجدت من الأفكار ما تردد في أكثر من كتاب ، ومنها ما تفرد به مؤلف واحد ، وهكذا ناقشتها على أساس أنها قضايا ، وبسطت القول فيها .

الفصل الثالث :

(بلاغة الشيخ عبد القاهر ، ومدى صلتها بالبلاغة اليونانية)

لقد طعن بعض العلماء الذين تأثروا بالثقافة الغربية ، في أصالة البلاغة العربية . وهذا قادهم الى التشكيك في بلاغة (الشيخ عبد القاهر) واضع أصول علم البيان ، وعلم المعاني العربي ، مما دعاهم الى أن يقولوا أنه جمع ما ترجم من الكتب اليونانية والفارسية ، بل منهم من قال أنه لم يستطع فهم كل ما قرئ ، ولقد ناقشت هذه الأقوال باسهاب وبينت مدى أصالة بلاغتنا العربية ومدى أصالة بلاغة (الشيخ عبد القاهر) .

الفصل الرابع: (جهود عبد القاهر في علوم البلاغة)

ويتضمن هذا الفصل المباحث التالية :

المبحث الاول : الفصل والوصل .

المبحث الثاني : التقديم والتأخير .

المبحث الثالث : الحذف ، والقصر بـ"إنما" .

المبحث الرابع : الكناية .

المبحث الخامس: الاستعارة .

المبحث السادس: التشبيه والتمثيل .

المبحث السابع : السرقات الأدبية .

الخاتمة :

و تتضمن عرضا موجزا لكل ما سبق ، و النتائج الجديدة التي توصلت اليها .

كما تحتوى الرسالة في نهايتها على فهرس للمراجع ، و فهرس للموضوعات والفهارس العامة التالية :

١ - الآيات القرآنية ٢ - الأحاديث النبوية .

٣ - الأشعار والأرجاز ٤ - الأعلام .

٥ - الأمم والقبائل والطوائف . ٦ - المدن والأماكن .

منهج البحث ومصادره

لقد انتهجت في دراستي هذه منهجا يهدف إلى تحقيق غرضين :

الاول :

إثبات أصالة بلاغة(الشيخ عبد القاهر) ، وأن مرجعها أمهات الكتب العربية . وأن عبقريته التي كشفت عنها كتبه وبخاصة(الأسرار والدلائل) . إنما هي وليدة لأفكار عربية بحتة .

وأن هناك عناصر لكل الموضوعات التي طرقها(الشيخ عبد القاهر) .

وهذا اقتضى تبويب كل الأفكار البارزة في كتبه الثلاث ، ثم أخذت في بحث نظيراتها في كل المصادر والمؤلفات في القرون الخمسة الأولى ، حيث أن العلوم لم تصنف ، ولم يأخذ كل علم مسارا مستقلا إلا بعد القرنين الأولين .

فهذا جعلني أقرأ ما بين سطور كتب المفسرين والنحاة والأدباء ، علّي أجد ما يشبه كلام(الشيخ عبد القاهر) ، فوجدت من الأفكار ما أخذه(الشيخ عبد القاهر)وبنى عليه وزاد ، ومنه ما أخذه وغيّر أسلوبه ، ومنه ما أخذه برمته ، ونقله بعبارته .

ولنتبين أصالة بلاغة(الشيخ عبد القاهر) ، عمدت إلى عرض الآراء البلاغية التي سبقت(عبد القاهر) ، ثم بينت آراءه ، ومصدر كل رأى ، وفي نهاية كل موضوع أبيّن ما انفرد به شخصيا إن وجد .

الثاني :

بيان جهود (الشيخ عبد القاهر)البلاغية ، والتي استحق بها أن يسمى واضع علم المعاني ، كما هو واضع علم البيان .

ولقد حرصت جاهدة أن أبيّن كيف أخضع معظم الموضوعات التي طرقها لنظرية النظم . فطبق نظريته الشهيرة ، والتي عرفت باسمه واستحق

بجدارة أن يسمى صاحبها - لما أضافه إليها وما وسّعه فيها حتى أصبحت نظرية قائمة بذاتها ، كما اجتهدت كذلك في تحديد الموضوعات التى انفرد في وضع كثير من عناصرها ، والتي كان له فضل تبويبها وترتيبها ، حتى أصبحت هي الأخرى علما مستقلا بذاته .

ومع هذا فقد قرأت أغلب ما كتبه المحدثون في بعض الموضوعات وناقشتها .

ولقد كان منهج رسالتي يسير على النحو التالي :

وضعت لكل موضوع عنوانا على حسب الخطة ، ولقد درست آراء العلماء الأوائل ، ورتبتها حسب وفاة كل منهم .

وفيما يخص المصادر والمراجع ، كنت أذكر في الحاشية ، المصدر والمرجع ، واسم مؤلفه عند ما استعمله لأول مرة ، وبعد ذلك اكتفى بذكر اسم الكتاب والجزء ورقم الصفحة ، أما بقية المعلومات عن المصدر أو المرجع ، فقد ذكرتها في الفهرس الخاص بالمراجع .

أخيرا . .

هذه خطتي في البحث ، ونتاج مجهود متواضع ، قد أخذ مني وقتا ليس بالقصير ، وكلّفني من الجهد واعمال الفكر والصبر قدرا ليس بقليل .

فإن لم أكن قد وفيت الموضوع حقه ، فشفيعي في ذلك أن الوصول إلى الكمال أمر محال ، وألتمس العذر لنفسي ، فهذه أول خطواتي على الطريق ، وإني لراغبة في كل تقدير بناء ، وتوجيه من أصحاب الشأن وذوى الباع الطويل ، والخبرة في هذا المجال .

والله أسأل . . أن يثيب كل من بذل مجهودا في رفع شأن لغتنا العربية ، وشيّد أركان بيانها ، وأبان جوانب فصاحتها ، والله ولي التوفيق للصواب ،،،.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلم .

التمهيد

حياة الشيخ عبد القاهر الجرجاني

أ- ترجمة حياته - أخلاقه العلمية.

ب- أساتذته.

جـ - تلاميذه.

د - كتبه.

بسم الله الرحمن الرحيـــــم

التمهيـــــد

١ - حياة الشيخ عبد القاهر الجرجانـــي :

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، ولد بجرجان (١) احدى المدن المشهورة بين (طبرستان) ،(خراسان) .

و قد عرف عنه سعة العلم وغزارته ، و اشتهر بعلم النحو ، حتى كـــان يسمى (عبد القاهر الجرجاني) النحوى ، وله مصنفات كثيرة في النحـــو ، ولكن جهوده في علم البلاغة فاقت جهوده في علم النحو ، لما أحدث فيهـــا من آراء ووطد من نظريات .

ولا توجد في كتب التراجم عن حياة (الشيخ عبد القاهر) ترجمة وافيـــة ولم يذكر شيء عن حياته الخاصة ، غير ما نتبين من خلال دراسة بعـــض كتبه عـــن ملامح شخصيته العظيمة ، وأعتقد أنها الخيط الذى به نستطيـــع

---

(١) جرجان : (بالضم وآخره نون قيل، إن أول من أحدث بناءها يزيد بـــن المهلب بن أبي صفرة ، وقد خرج منها خلق من الأدباء والعلماء ، والفقهاء والمحدثين ، ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السّهمى .
قال الإصطخري : أما جُرجان فإنها أكبر مدينة بنواحيها، وهـــي أقل ندى ومطرا من طبرستان ، وأهلها أحسن وقارا وأكثر مـــروءة ويسارا من كبرائهم ، (ورد هذا التعريف لجرجان في معجـــم البلدان للإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموى جـ ٢ / ١١٩ دار بيروت) .

كما ترجم لها السّهمى في مؤلفه (تاريخ جرجان) فقال عن فتحها :
(لقد فتحت جرجان عهد العلم والعلماء ،في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد فتح نهاوند، لما قتل النعمان بن مقرن ولي خلافتـــه أخوه سويد بن مقرن فجاء إلى الرى وفتحها ثم عسكر إلى قومس وفتحهـــا ثم فتح جرجان)
تاريخ جرجان : للسهمى ص ٤٤ ط ٣ بيروت ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م .

التعرف على نماذج من حياته ، و من ثم معرفة مدى علمه الغزير الذى جعل العلماء و الأدباء بعده يلقبونه إمام البلاغيين ، لما بسطه في كتابيه دلائل الاعجاز و أسرار البلاغة .

لهذا يمكن القول إنني أمام شخصية فذة ، حظيت بشهرة علمية نادرة و إن لم تحظ إلا باليسير من التأريخ والترجمة .

وسأعرض لحياة (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) لأنه عالم فاضل من علماء جرجان ، بلغت شهرته الآفاق ، و أضاءت مؤلفاته المكتبات ، لأنه انبه من صنّف في علم البيان و البديع ، و قد أفاد من المؤلفات التي سبقته ، و أضاف إليها ما كون ثروة بلاغية نفخر بها و نباهى .

مع ما عرف عن هذا الشيخ الجليل أنه لم يسافر إلى بلد و لم يتنقل طلباً للعلم . ولم تذكر كتب التراجم أنه اتصل بعلماء عصره .

و الجدير بالذكر أنني عثرت في بعض كتب التراجم أن جرجان كانت في تلك الفترة تغص بكبار الفقهاء و المحدثين ، و حشد كبير من العلماء الأفاضل في مختلف العلوم و ربما لذلك لم يحتج إلى الخروج إلى بلد آخر لطلب العلم ، و لأنه غير مشهور ، فلم تذكر تلك المؤلفات عن صلته العلمية أو انتمائه إلى علماء معينين .

و لقد عرفت ذلك عن جرجان مما ذكره السّهمى ، حيث يقول :

((أما بعد فإني لما رأيت كثيرا من البلدان تعصب أهلها و أظهروا مفاخرها بدخول الصحابة رضي الله عنهم أجمعين بلادهم ، و كون الخلفاء و الأمراء و جماعة من العلماء عندهم ، حتى أرخوا لذلك تواريخ ، وصنفوا فيها تصانيف على ما بلغهم ، و لم أر أحدا من مشايخنا رحمهم الله صنف في ذكر علماء أهل جرجان تصنيفا ، أو أرخ لهم تاريخا على توافر علمائها و تظاهر شيوخها و فضلائها ، فأحببت أن أجمع في ذلك مجموعا على قدر جهدى و طاقتي ، مع قلة بضاعتي)). (١)

---

(١) تاريخ جرجان للسهمى ص ٤٣ ، ٤٤ .

ولقد تصفحت تاريخ جرجان ، فوجدت كثيرا من أفاضل العلماء المشهورين منهم : (محمد بن اسحاق بن راهويه)، و(محمد بن سلام الجمحي) و(محمد بن جرير الطبرى) .

ومن فضلائها كذلك : ((أبو الحسن على بن عبد العزيز بن الحسن ابن على بن اسماعيل الجرجاني ، وكان قاضي جرجان والرى قاضي القضاة ، ومات بها وكان من مفاخر جرجان . صنف تاريخها)) (١)

وقد كان (عبد القاهر) عالما دينا وقف تفكيره ووهب حياته للدفاع عن الإسلام ، وكان خير مدافع ومما يدلنا على عاطفته الدينية مضافا إلى ما ذكره بعض مترجميه ما نلمسه في الدلائل من أقوال تدل على سمو عواطفه الدينية ، مما جعل ذكر الله سبحانه وتعالى دائما واضحا في كتاباته ، حيث يستهل تقريبا كل فقرات مصنفه الدلائل بذكر العلي القدير ، جاعلا الاستعانة بالله في أكثر فصول الكتاب ، من ذلك قوله :

((ونسأل الله الهداية)) (٢) . ((والله الموفق للصواب ...)) (٣) ((واستعين الله)) (٤) ، ((والله الموفق للصواب)) (٥) ((ونسأل الله العصمة)) (٦) ، ((ونسأل الله التوفيق)) (٧) ، ((ونعوذ بالله)) (٨) ، ((ونسأل الله)) (٩) ، ((ومن الله التوفيق)) (١٠) ((والله الموفق)) (١١) ، ((والله المستعان)) (١٢) .

---

(١) المصدر نفسه ص ٣١٨ رقم الترجمة ٥٦٠ .
(٢) دلائل الاعجاز ط ١ تعليق وشرح محمد عبد المنعم خفاجي ١٩٦٩م ص ٢٧ .
(٣) المصدر نفسه ص ٤٥ .
(٤) المصدر نفسه ص ٥٢
(٥) المصدر نفسه ص ٦٧ .
(٦) دلائل الاعجاز ص ٨٦ .
(٧) المصدر نفسه ص ١٨٧ .
(٨) المصدر نفسه ص ١٨٨
(٩) المصدر نفسه ص ٢٣٦ .
(١٠) المصدر نفسه ص ٢٧٦ .
(١١) المصدر نفسه ص ٣١٢ .
(١٢) المصدر نفسه ص ٥٩ .

وهذه العبارة الأخيرة ، تناسب الموضوع الذى ذيلت به ذلك أنه علم أن العلم باعجاز القرآن الكريم ، والتعرف على أسبابه ، لـــه أهمية في الدنيا والآخرة ، لذا طلب الاستعانة منه سبحانه ليوفقه لتأدية الأمانة ، وهـــو اقدام على أمر ليس بالسهل ولا باليسير .

٢ - ثم هو (يسأل الله التوفيق) حين يشرع في بيان أهمية علم النحـــو ، طريق معرفة اعجاز القرآن الكريم وهو لب كتابه الدلائل .

وبعد ذلك تكلم عمـن خاض في هذا المجال ، وهو غير عالم به فأشـــار بترك الأمور لأصحابها ، حتى لا يأتون بتخليط على غير أساس ، وهـــــذا أفضل لأنهم إذا لم يصلحوا لا ينبغي أن يكونوا سببا للفساد ، لذلك أنهـــى هذه الفكرة بطلب الهداية من الله سبحانه وتعالى وسأله كذلك العصمة من الزلل ، الذى انتهى إليه غيره . يقـــول : ((ونسأل الله الهدايـــة ، ونرغب إليه في العصمة)) .(١)

وهكذا نلاحظ على (الشيخ عبد القاهر) الدقة في اختيار خواتـــم الفقرات والفصول اختيارا يناسب المعنى الأساسي للفكرة ، وكما هو ملاحـــظ أن (عبد القاهر) متأثر بالقرآن الكريم في تعبيراته .

فهـا هو ذا بعد أن توصل الى أن الألفاظ تبع للمعاني في النظـــم ، وأن الكلم تترتب في النطق حسب ترتب معانيها في النفس .

٣ - يقول ((والله الموفق للصواب)) .(٢)

ثم إنه حين أخذ في شرح المزيه التي يرجع إليها حسن الكلام ، حيـــث بين أنها ليست في المعنى وليست في الألفاظ كما سيأتي - بل يراها فـــي شيء آخر ، لذلك قال : ((واستعين بالله تعالى عليه ، وأسأله التوفيق)) (٣)

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٩ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٩٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٤ .

وفي نهاية فصل ((الفصل والوصل)) وهو فصل طويل يقول ((ونسأل الله التوفيق للصواب ، والعصمة من الزلل)) [1] فطلب التوفيق ، وتجنب الزلل ، طلبهما معا لأنه كان بصدد الاستشهاد بآى القرآن الكريم ، فكان راغبا في أن يوفق للصواب .

وحين أشار إلى من أوجب المزيه للمعاني يقول : ((ونعوذ بالله من العمى بعد الإبصار)) ذلك أن بعض الباحثين يدعى أن البلاغة في المعاني ، بعد ما عرفوا تماما أن المعاني مطروحة في الطريق ، وحقا هو عمى بعد ابصار ، وذلك أعجب أنواع العمى .

ونلاحظ على كل العبارات السابقة أن فيها معنى التوكل والاستعانة المستمدة من قوله تعالى : (فإن عصوك فقل إني برئ مما تعملون ، وتوكل على العزيز الرحيم) . [2]

وعاطفة (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) الدينية واضحة من خلال كتاباته التي صبغت بها ، كما بينت ، ليس في ذلك شك ، فالكتابة مرآة لنفس كاتبها ، ولقد شهدت له كتب التراجم والطبقات بذلك ، حيث ذكر عنه في طبقات الشافعية أنه : ((كان شافعيا متكلما على طريقة الأشعرى دينا دخل عليه لص وهو في الصلاة ، فأخذ جميع ما في البيت ، وهو ينظر إليه فلم يقطع صلاته)) . [3]

ولقد استهل (الشيخ عبد القاهر) كتابه بوصف زمانه وعلى وجه الدقة أهل ذلك العصر من خلال تجربته معهم ، وبلا شك أنه ظلم ، ولقى ما لم يكن في حسبان عالم من عدم اكتراث . يقول :

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٤٦ .

(٢) سورة الشعراء : الآيتان ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٣) طبقات الشافعية / لجمال الدين الأسنوى ت / عبد اله الحيوى ، دار العلوم - ١٤٠١ - ١٩٨١ / الرياض .

((ثم انا وان كنا في زمان هو على ما هو عليه من احالة الأمور عن جهاتها ، وتحويل الأشياء عن حالاتها ، ونقل النفوس عن طباعها ، وقلب الخلائق المحمودة الى أضدادها ، ودهر ليس للفضل وأهله لديه الا الشر صرفا ، والغيظ بحتا ، والا ما يدهش عقولهم ويسلبهم معقولهم ، حتى صار أعجز الناس رأيا عند الجميع من كانت له همة في أن يستفيد علما ، أو يزداد فهما ، أو يكتسب فضلا ، أو يجعل له ذلك بحال شغلا ، فان الالف من طباع الكريم)) (١) .

وبعد أن بين (الشيخ عبد القاهر) مدى استهانة بعض الناس بالعلم وأهله ، أكد أن هذا موقف مجاف للصواب ، لأن العلم يرفع شأن صاحبه ، حيث يقول :

((وانه ليؤ منك من أن تغالط في دعواك ، وتدافع عن مفزاك ، ويربأ بك عن أن تستبين هدى ثم لا تهتدى اليه ، وتدل بعرفان ثم لا تستطيع أن تدل عليه ، وأن تكون عالما في ظاهر مقلد ، ومستبينا في صورة شاك ، وأن يسألك السائل عن حجة يلقى بها الخصم في آية من كتاب الله تعالى أو غير ذلك ، فلا ينصرف عنك بمقنع ، وأن يكون غاية ما لصاحبك منك أن تحيله على نفسه وتقول : قد نظرت فرأيت فضلا ومزية ، وصادفت لذلك أريحية ، فانظر لتعرف كما عرفت وراجع نفسك واسبر وذق لتجد مثل الذى وجدت)) (٢) .

ولا شك أن من فضل العالم على غيره أنك تجده يجيب كل سائل على سؤله ، ويتصدى لأى دعوى يحاوره فيها الخصم .

---

(١) دلائل الاعجاز ، ص ٧٩ .

(٢) دلائل الاعجاز ، ص ٨٥ .

وقد راع الشيخ عبد القاهر أنه كان في عصر زهد أهله في النحو والشعر وهذه ضلالات تصدى (الشيخ عبد القاهر) لردها واحدة واحدة . ففي رده على من زهد في النحو ، يقول :

((أشبه بأن يكون صدا عن كتاب الله ، وعن معرفة معانيه ذلك لأنهم لا يجدون بدا من أن يعترفوا بالحاجة اليه فيه ، اذ كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الاعراب هو الذى يفتحها ، وأن الأغراض كامنة حتى يكون هو المستخرج لها ، وأنه المعيار الذى لا يبين نقصان كلام ، ورجحانه حتى يعرض عليه ، والمقياس الذى لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه ، ولا ينكر ذلك الأمر إلا من ينكر حسه ، وإلا من غالط في الحقائق نفسه)) .(١)

ولقد بين بهذه الفقرات آفة من زهد في العلم بالنحو ومعرفة قوانينه وأحكامه ، وهي آفه عظيمة ، لما يؤدى إليه الجهل بهذا العلم الجليل من صد عن معرفة أسرار كتاب الله تعالى ، ومعرفة سر إعجازه الذى وقف أمامه العلماء حيارى مبهوتين .

ثم بعد أن ذكر هؤلاء الذين زهدوا في النحو قال :

((ولو أن هؤلاء القوم اذ تركوا هذا الشأن تركوه جملة واذ زعموا أن قدر المفتقر إليه القليل منه ، اقتصروا على ذلك القليل ، فلم يأخذوا أنفسهم بالتقوى فيه والتعرف فيما لم يتعلموا منه ، ولم يخوضوا في التفسير ولم يتعاطوا التأويل لكان البلاء واحدا ، ولكانوا إذا لم يبنوا لم يهدموا ، وإذا لم يصلحوا لم يكونوا سببا للفساد ، ولكنهم لم يفعلوا . . . فجلبوا من الداء ما أعيا الطبيب ، وحير اللبيب ، وانتهى التخليط بما أتوه فيه إلى حد يئس من تلافيه ، فلم يبق للعارف الذى يكره الشغب إلا التعجب والسكوت ، وما الآفة العظمى إلا واحدة ،وهي أن يجيء من الإنسان أن يجرى

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٧٥ .

في لفظه و يمشي له أن يكثر في غير تحصيل ، و أن يحسن البناء على غير أساس و أن يقول الشيء لم يقتله علما) .(١)

و إن شأن من زهد في علم النحو ، أن يطالب بالقليل من علمه ، ويدعو كذلك أن لا شأن و لا فائدة للإلمام به كله . و لقد دعاهم الشيخ عبد القاهر أن يحسنوا العلم به ، و يجب أن يكونوا سببا في الاصلاح والبناء على أساس ، و أن لا يقولوا في شيء لم يقتلوه علما .

و عندما ناهض من أدار ظهره لعلم النحو بحجة واهية أو بدون حجة بين لهم أساس تلك الأهمية ، و مستقاها و منبعها إنما يكون في فك مغاليق المعاني على الألفاظ المبهمة ، و هي محاجه كل من غالط في أهمية ذاك العلم ، لأن منهم من قال : ((إنا لم نأب - صحة هذا العلم ، ولم ننكر مكان الحاجة إليه في معرفة كتاب الله تعالى -، و انما أنكرنا أشياء كثرتموه بها ، و فضول قول تكلفتموها ، و مسائل عويصة تجسمتم الفكر فيها ، ثم لم تحصلوا على شيء أكثر من أن تغربوا على السامعين ، و تعايوا بها الحاضرين)) .(٢)

فكانت حجة هؤلاء بعد المحاورة و المداولة ، أن هنا أمورا في علم النحو زائدة عليه ، خلق منها النحويون مسائل ، أخذوا وقتا و هم يناقشونها فيما بينهم ، و لم يحصلوا منها بطائل ، و لقد عذرهم عبد القاهر في بعضها و في البعض الآخر ، اعتبرهم محرومين ذوى حظ ضعيف . و اما ما تجاوزوه من أغراض واضع اللغة و من وجه الحكمة في الأوضاع ، فقد دعاهم إلى أن ينظروا الذى اعترفوا بصحته ، و بالحاجة إليه ، و لقد تساءل بلهجة مؤنبه ثائرة ، حين قال : ((هل حصلتموه على وجهه ، و هل أحطتم بحقائقه ؟ و هل وفيتم كل باب منه حقه ، و أحكمتموه احكاما يؤمنكم الخطأ فيه ، اذا أنتم خضتم في التفسير . و تعاطيتم التأويل ، ووازنتم بين بعض

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٧٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٥ .

الأقـوال وبعض وأردتم أن تعرفوا الصحيح من السقيم ، وعدتم في ذلـك وبدأتم ، وزدتم ونقصتم ؟ .. هل ظننتم أن وراء ذلك علما)) (١)

ويرى الإمام عبد القاهر أن هؤلاء لا يكون التصدى لهم بالجملة وبالمناقشة العامة والمحاورة الدائرة ، كما فعل هو ، بل يرى ((أن تعرض عليهم الأبـواب كلها واحدا واحدا ، ويسألوا عنها بابا بابا)) .(٢)

فإذا لا مجال لتجاهل أهمية العلم بالنحو وفنونه ، وأبوابه وطرقـه لأن المعرفة التفصيلية ذات أثر عظيم في الدين ، وأن العلم يحسم كثيرا من الفساد فيما يعود للتنزيل ، يقول : ((وانه ليؤمنك من أن تغالـط في دعواك ، وتدافع عن مغزاك ، ويربأ بك عن أن تستبين هدى ثم لا تهتدى إليه وتدل بعرفان ثم لا تستطيع أن تدل عليه ، وأن تكون عالما في ظاهـر مقلد ، ومستبينا في صورة شاك وأن يسألك السائل عن حجة يلقى بهـا الخصم في آية من كتاب الله تعالى أو غير ذلك ، فلا ينصـرف عنك بمقنع منك وأن يكون غاية ما لصاحبك منك أن تحيله على نفسه)) .(٣)

ويرى عبد القاهر تلك المغالطة في أهمية النحو انما ترجـع الـى صعوبة التعرف على المزية في ذات الكلم أو فهـم بعضهم على غير وجهـه الصحيح ، ((ولولا أنه على ذلك لما وجدت الناس بين منكر له من أصلـه ومتخيل له على غير وجهـه ومعتقد أنه باب لا تقوى عليه العبارة ، ولا تملك فيه إلا الإشارة، وأن طريق التعليم إليه مسدود وباب التفهيم دونـه مغلق)) .(٤)

وعلى ما تحمله تلك الشخصية من عمق الإيمان بالله والتي تجلت واضحة فيما سبق بيانه من العبارات التي يرددها في كل فصل ، وفي نهايـة

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٧٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ٧٨ .

(٣) دلائل الاعجاز ص ٨٥ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٠٤ .

١٩٧٧

كل عبارة.وعلى قوة روحه المعنوية ، على الرغم مما لاقاه من صد ، وهوان وتهوين من شأنه ، بل للعلوم التي اضطلع بمهمة حملها على عاتقه ، بما فيها من صعوبات أبت نفسه الكريمة ، وأبت عليه كذلك غيرته الدينية أن يرى علوم الدين يزرى بها ، ويسد الطريق دونها ، فكان رجلا معتزا بدينه وعلمه ، واثقا من نفسه أشد الثقة . ومع هذا فقد كان يثور حين يرى الخطأ يحاول أن يصلحه ، ولنر ذلك في ثنايا كتبه ، وكيف كان موقفه من علم البيان ومن الذين هونوا أمره يقول :

((وهو أحد ما غفل عنه الناس ودخل عليهم اللبس فيه حتى ظنوا أنه ليس لهذا العلم من قوانين عقلية ، وأن مسائلة كلها مشبهة باللغة في كونها اصطلاحا يتوهم عليها النقل والتبديل ، ولقد فحش غلطهم فيه ، وليس هذا موضع القول في ذلك)).[1]

وعلم (البيان) من العلوم الهامة لها قوانين وقواعد ، لذلك وقع على هذا العلم من ظلم الناس له ما وقع . جهلا من عند أنفسهم يقول : في ذلك بعد أن أبان أن له فوائد لا يدركها الإحصاء ، وإنك لن ترى علما هو أرسخ أصلا ، وابسق فرعا ، وأحلى جنى منه . بعد ذلك يقول :

((إلا أنك لن ترى على ذلك نوعا من العلم قد لقى من الضيم ما لقيه ومني من الحيف بما مني به ، ودخل على الناس من الغلط في معناه ما دخل عليهم فيه)).[2]

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣١٩ للشيخ عبد القاهر الجرجاني / تحقيق : السيد محمد رشيد رضا / دار المعرفة / بيروت سنة ١٤٠١هـ ١٩٨١م

(٢) دلائل الاعجاز ص ٥٤ .

عنف عبد القاهر في حديثه عمن يخالفونه :

كما ذكرت كان عبد القاهر عنيفا في رده على من ذم الشعر وروايته ، فدعاه ذلك الى النظر في الغرض الذى له روى الشعر ، يقول -: ((انك قد زغت عن المنهج ، وأنك مسيء في هذه العداوة وهي العصبية منك على الشعر)) (١) .

وهذا الرافض للشعر ومزاياه ، انما يعتبره الشيخ عبد القاهر متبعا للظن والهوى ، والظن لا يغني عن الحق شيئا ، فرد عليه قائلا : ((ولكنك أبيت الا ظنا سبق اليك ، والا بادئ رأى عن لك ، فأقفلت عليه قلبك ، وسددت عما سواه سمعك ، فعى الناصح بك ، وعسر على الصديق الخليط تنبيهك)) (٢) .

وكذلك تصدى للرد علم من هون أمر النحو ، ورأى عدم الخوض فيه أجدى وأنفع ، لأنهم أولوا وفسروا ما ليس لهم به علم ، فأصبحت لدينا أكثر من مصيبة تهوينهم وجهلهم بالأمر الذى يؤدى الى الهدم والفساد ، وهذه العبارة التي ذكرها عبد القاهر تبين صورتهم الحقيقية واضحة ، وترفع الستار عن مرض عضال وداء مستحكم .

وقضية اللفظ أمر شائع قبل (عبد القاهر) كثيرا ، ترى تلك الفئة أن الاعجاز انما يكون بحسن تخير اللفظ للمعنى ،

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٦١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٤ ، ٦٥ .

و(عبد القاهر) يرى أن ذلك محال ، لأنه (ليس لمن حام في حديث المزية والاعجاز حول اللفظ ، ورام أن يجعله السبب في هذه الفضيلة الا التسكع في الحيرة والخروج عن فاسد من القول الى مثله)) (١) .

ولقد استمر الشيخ عبد القاهر على نفس اللهجة في مناقشة دعاة اللفظ قائلا : ((ومن تعلق بهذا وشبهه واعترضه الشك فيك بعد الذى مضى من الحجج ، فهو رجل قد أنس بالتقليد ، فهو يدعو الشبهة الى نفسه من ها هنا وثم ومن كان هذا سبيله ، فليس له دواء سوى السكوت عنه ، وتركه وما يختاره لنفسه من سوء النظر وقلة التدبر)) (٢) .

ثم نجده في صفحات أخر من (الدلائل) يناقش ويحاور ذوى العلم ممن نظر الى معاني النحو والمعاني البلاغية نظرة سطحية ، فقصر نظرهم عن ادراك مواضع الجمال ، وادراك مكامنه ، وهي كثيرة وفيرة وفرة كلام العرب المسطر في دواوينهم . لهذا خاطب هؤلاء معاتبا قصور تعليلهم . ففي باب التقديم والتأخير لم يضعوا قاعدة للتقديم أو التأخير غير أن يقدم الذى بيانه أهم ((ولتخيلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم ، وهونوا الخطب فيه حتى انك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضربا من التكلف ، ولم تر ظنا أزرى على صاحبه من هذا وشبهة)) (٣) .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٢ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ١٠٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٣٩ .

ثم في باب الفصل و الوصل عنف من قال : ((إن الكلام قد استؤنف وقطع عما قبله لا تطلب أنفسهم منه زيادة على ذلك وقد غفلوا غفلة شديدة)) (١) .

و إذا ناهض فيما سبق دعاة اللفظ ، فإنه أيضا تصدى لدعاة المعنى الذين يقدمون الشعر لمعناه ، و يعتبر ((الداء الدوى و الذى أعيى أمره في هذا الباب غلط من قدم الشعر بمعناه ، و أقل الاحتفال باللفظ ، و جعل لا يعطيه من المزيه ان هو أعطى الا ما فضل عن المعنى)) (٢) .

و هناك من العبارات ما تردد أصداؤه في الصفحات دون أن يتساءل القارئ عن معناها ، و قد تنبه عبد القاهر الى أن هذه العبارات لا تعنى أكثر من كونها صفات . من تلك العبارات قولهم :((في صفة اللفظ ،كقولهم ((بأنه لفظ شريف . و أنه قد زان المعنى ، و أن له ديباجة ، و أن عليه طلاوة و أن المعنى منه مثل الوشى ، و أنه عليه كالحلى الى أشباه ذلك مما يعلم ضرورة أنه لا يعنى بمثله الصوت و الحرف)) (٣) .

هذه المترادفات حكم عليها عبد القاهر بأنها (العادة و استمر عليها العرف و صار الناس يقولون : اللفظ ، و اللفظ لز (٤) ذلك بأنفس أقوام بابا من الفساد وخامرهم منه شيء لست أحسن وصفه)) (٥) .

و أحيانا نجده يستهل حديثه بالتعنيف و الشدة ، و ذلك حين قدم لموضوع الاعجاز ،لأنه لا يكون الا بمعرفته معانى النحو فيما بين الكلم ، يقول :

((و اعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من السامع ، ولا يجد لديه قبولا ، حتى يكون من أهل الذوق و المعرفة ، و حتى يكون ممن تحدثه

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٣٧ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٥٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٦٥ .

(٤) لز : لزه لزا ولززا ، أى شده و ألصقه .
وكز لز اتباع له . أنظر الصحاح ٣/ ٨٩٤ .

(٥) المصدر نفسه ص ٢٦٥ .

نفسه بأن لما يومئ إليه من الحسن و اللطف أصلا ، و حتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام فيجد الأريحية تارة ، و يعرى منها أخرى ، و حتى إذا عجبته عجب و إذا نبهته لموضع المزيه انتبه ». (١)

أى أنه باب يحتاج الى الفهم و الذوق الذى بهما يتمكن من الحكم على الكلام ، و كذلك الحاسة المرهفة ، التي تتلمس بدورها موضع الجمال .

ثم يقول لمن عدم تلك الحالات ((فأما من كانت الحالان و الوجهان عنده أبدا على سواء ، و كان لا يتفقد من أمر النظم إلا الصحة المطلقة : و إلا إعرابا ظاهرا ، فما أقل ما يجدى الكلام معه ، فليكن من هذه صفته عندك بمنزله من عدم الإحساس بوزن الشعر و الذوق الذى يقيمه به ، و الطبع الذى يميز صحيحه من مكسوره ، و مزاحفه من سالمه ، وما خرج من البحر سالم يخرج منه ، في أنك لا تتصدى له ، و لا تتكلف تعريفه لعلمك أنه قد عدم الأداة التي معها تعرف ، و الحاسة التي بها تجد ، فليكن قدحك في زند وار ، و الحك في عود أنت تطمع منه في نار)) (٢)

و أخيرا وجد أن لا فائدة في هؤلاء ، لأن هذا العلم يتطلب عاطفه تتأجج حيوية و فهما .

و هناك طائفة كانت أضر على هذا العلم من سابقتها تلك التي تنفي وجود المزيه على الإطلاق ، و أنه لا سبيل إلى معرفة العلة مطلقا ، «وهؤلاء إن كانوا كالآفة العظمى في هذا الباب ، فإن من الآفة أيضا من زعم أنه لا سبيل إلى معرفة العلة في قليل ما تعرف المزية فيه و كثيره ». (٣)

و في ثورته العارمة تلك ، ينبه على موضوع قد يجهله الكثير ، و أيضا يضع حكما لمسألة ، ربما تناقلها الحديث عن القديم ، دون تساؤل في معناها ، و ذلك عن المفسرين الذين تجاهلوا أمر المجاز ، فأخذوا في تفسير المعاني على ظواهرها. يقول:

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٨٤ .

(٢) (٣) دلائل الاعجاز ص ٢٨٤ .

((فيفسدوا المعنى بذلك ، و يبطلوا الغرض ، و يمنعوا أنفسهم و السامع منهم ، العلم بموضع البلاغة و بمكان الشرف ، و ناهيك بهم إذا هم أخذوا في ذكر الوجوه ، و جعلوا يكثرون في غير طائل ، هناك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه ، و زند ضلالة قد قدحوا به)).[1]

والامام (عبد القاهر) يبدو أسفاً لما عليه بعض الذين أجلوا اللفظ ، ووضعوه منزلة فوق منزلته ، و يبدو عليه خيبة الأمل . لذلك يقول :

((و اعلم أني على طول ما أعدت و أبدأت ، و قلت و شرحت ، في هذا الذى قام في أوهام الناس ، من حديث اللفظ ، لربما ظننت أني لم أصنع شيئا ، و ذاك أنك ترى الناس كأنه قد قضى عليهم أن يكونوا في هذا الذى نحن بصدده على التقليد البحت ، وعلى التوهم و التخيل ، و إطلاق اللفظ من غير معرفة بالمعنى قد صار ذاك الدأب و الديدن ، و استحكم الداء منه الاستحكام الشديد ، و هذا الذى بيناه ، و أوضحناه كأنك ترى أبدا حجابا بينهم وبين أن يعرفوه و كأنك تسمعهم منه شيئا تلفظه أسماعهم ، و تنكره نفوسهم ، و حتى كأنه كلما كان الأمر أبين كانوا عن العلم به أبعد ،وفي توهم خلافه أقعد ، و ذاك لأن الاعتقاد الأولى قد نشب في قلوبهم و تأشب فيها ، و دخل بعروقه في نواحيها ، و صار كالنبات السوء الذى كلما قلعته عاد فنبت)).[2]

و بالرغم من عنف عبد القاهر الذى بدأ واضحا في كثير من فصول الكتاب ، و ما منى به من خيبة أمل في صرف قلوبهم عما تعشش فيها من أوهام أبوا أن يجعلوا منها حقائق تروج بين الدارسين،على الرغم من هذا كله،يعود بلهجة أخرى يحاول فيها إقناعهم بسوء نظرهم إلى الإعجاز ، و إلى طريقته يقول :

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٤١ .

(قد أردنا أن نستأنف تقريرا نزيد به الناس تبصيرا ، أنهم في عمياء من أمرهم ، حتى يسلكوا المسلك الذى سلكناه ، و يفرغوا خواطرهم لتأمل ما استخرجناه ، و أنهم مالم يأخذوا أنفسهم بذلك ، ولم يجردوا عناياتهم له في غرور ،كمن يعد نفسه الرى من السراب اللامع ، و يخادعها بأكاذيب المطامع ، يقال لهم إنكم تتلون قول الله تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ (١) ،و قوله عز و جل : (قل فأتوا بعشر سور مثله) (٢) ، و قوله : (بسورة من مثله) (٣) .

فقولوا الآن : أيجوز أن يكون تعالى قد أمر نبيه صلى الله عليه و سلم بأن يتحدى العرب إلى أن يعارضوا القرآن بمثله من غير أن يكونوا قد عرفوا الوصف الذى إذا أتوابكلام على ذلك الوصف كانوا قد أتوا بمثله ؟ ولا بد من لا ، لأنهم ان قالوا : أبطلوا التحدى من حيث أن التحدى كما لا يخفى مطالبة بأن يأتوا بكلام على وصف ، ولا تصح المطالبة بالإتيان به على وصف من غير أن يكون ذلك الوصف معلوما للمطالب ، و يبطل بذلك دعوى الاعجاز أيضا) .(٤)

و في حديثه عن الاستعارة ،يحاول أن يصحح مفهوم بعضهم ، حيث عزوا الجمال و حسن النظم إلى اللفظ ذاته بالرغم من معرفتهم الأكيدة من أن اللفظ المستعار يكسب المعنى جمالا وحسنا لحسن استعارته .

و الأهم من هذا أنه لا يداخلهم شك في أن الاستعارة لا تحدث في حروف اللفظ صفة ، ولا تغير أجراسها عما تكون عليه ، إذا لم يكن مستعارا ، و أن أثر الاستعارة باد في المعنى و ظاهر فيه ، و ذلك لعلمهم أن اللفظ

---

(١) سورة الإسراء من الآية ٨٨ .

(٢) سورة هود من الآية ١٣ .

(٣) سورة البقرة من الآية ٢٣ .

(٤) دلائل الاعجاز ص ٣٥٦ .

اذا استعير لشيء نقل عن معناه الحقيقي الى المعنى المراد ، كل هذه الأمور معروفة لديهم ، ومعلومة لدى أكثرهم ، ومع هذا فانهم يكبرون ويعظمون شأن اللفظ فقط ، ويرى عبد القاهر مرجع ذلك الى (اهمالهم أنفسهم وتركهم النظر لقد كان يكون في هذا ما يوقظهم من غفلتهم ، ويكشف الغطاء عن أعينهم)) (١) .

ثم يكرر في أسباب انسدارهم في غوايتهم ، وتخيل أهمية اللفظ ، وعلى ما يبدو أن عبد القاهر قد ضاق ذرعا بالأباطيل ، وخاصة بعد وضوح الحقيقة ((واعلم أن الذى هو آفة هؤلاء الذين لهجوا بالأباطيل في أمر اللفظ ، أنهم قوم قد أسلموا أنفسهم الى التخيل ، وألقوا مقاد تهم الى الأوهام حتى عدلت بهم عن الصواب كل معدل ، ودخلت بهم من فحش الغلط في كل مدخل ، وتعسفت بهم فى كل مجهل ، وجعلتهم يرتكبون في نصرة رأيهم الفاسد القول بكل محال ، ويقتحمون في كل جهالة)) (٢) . وعلى الرغم من ذلك الضيق يعيد الحديث بعد صفحات قليلة وبلهجة عنيفة ، وأسلوب قاس حيث يقول :

((قد أردت أن أعيد القول في شيء هو أصل الفساد ومعظم الآفة ، والذى صار حجازا بين القوم وبين التأمل ، وأخذ بهم عن طريق النظر ، وحال بينهم وبين أن يصغوا الى ما يقال لهم ، وأن يفتحوا للذى تبين أعينهم)) (٣) .

ولم يستطع الشيخ عبد القاهر كبح غضبه ، كلما عنّ له باب في شأن اللفظ ، يقول : ((فان أردت الصدق فانك لا ترى في الدنيا شأنا أعجب من شأن الناس مع اللفظ ، ولا فساد رأى مازج النفوس وخامرها واستحكم فيها ، وصار كاحدى طبائعها ، أغرب من فساد رأيهم في اللفظ ، فقد بلغ من ملكته لهم وقوته عليهم ، أن تركهم وكأنهم اذا نوظروا فيه أخذوا عن أنفسهم وغيبوا عن عقولهم ، وحيل بينهم وبين أن يكون لهم فيما يسمعونه نظر ويرى لهم ايراد في الاصفاء وصدر ، فلست ترى الا نفوسا قد جعلت ترك النظر ذأبها ، ووصلت

---

(١) المصدر نفسه ص ٤١٠ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٤١٠ .

بالهوينا أسبابها ، فهي تفتر بالأضاليل ، وتتباعد عن التحصيل ، وتلقى بأيديها الى الشبه ، وتسرع الى القول المموه)) (١) .

وهو في هذه يحاول أن يصحح نظرة بعضهم الى الكتب التي صنفت في تلك الفترة ، حيث عرف أنها تصف الألفاظ المفردة بالفصاحة لأنهم :

((رأوا أبا العباس ثعلبا قد سمى كتابه (الفصيح) مع أنه لم يذكر فيه الا اللغة والألفاظ المفردة وكان محالا اذا قيل : ان الشمع بفتح الميم أفصح من الشمع باسكانه أن يكون ذلك من أجل المعنى ، اذ ليس تفيد الفتحة في الميم شيئا في الذى سمي به سبق الى قلوبهم أن حكم الوصف بالفصاحة أينما كان وفي أى شيء كان أن لا يكون له مرجع الى المعنى البتة ، أو أن يكون وصفا للفظ في نفسه ومن حيث هو لفظ ونطق لسان) (٢) .

أخلاق الشيخ عبد القاهر العلمية :

اشتهر العلماء وفضلاء الناس بصفات تميزهم عن غيرهم ، والاهتمام بالتعرف على أخلاقهم شيء ضرورى ، لأنها تلقي الأضواء على كتابة العالم وأفكاره وبها نستطيع قراءة ما بين سطوره .

وبعد العرض السابق الذى وضحت فيه حرارة العاطفة الدينية ، ومدى عمقها فى نفس عبد القاهر ، وبعد أن عرفنا غيرته الدينية التي هاجم فيها

---

(١) المصدر نفسه ص ٤١٠ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٤١٠ .

كل من خالفه في نظرية النظم ، والتي قرر بها إعجاز القرآن الكريم ،بعد أن حمل نفسه مشقة تبعتها ، وتحمل أعبائها ، بعد هذا يمكن الحكم على أخلاقه العلمية وسموها ، حيث قطع بهذه الطريقة كل شك يمكن أن يحوم حوله أو ينسج حول آرائه ونفسيته التي تربت تربية دينية ، من هذا يمكن القول أن من أبسط سجايا تلك الشخصية أن تنسب الفضل لأهله ، وتلك الشجاعة في تصريحه بأن نظرية النظم لم يخترعها ، ولم يكن هو موجدها من العدم وإنما هو ربطها بمعاني النحو ، فهذه شجاعة نادرة ، تدل على قوة شخصه واعتداده بما أضافه إلى هذه الأفكار حتى أصبحت نظرية ،وقف كل باحث ودارس أمامها معجبا بها . مقدرا لصاحبها جهده في تحقيقها لذا حق له أن تنسب إليه هذه النظرية ، يقول معترفا مصرحا بفضل من سبقه :

« وقد علمت اطباق العلماء على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره ، والتنويه بذكره ، واجماعهم أن لا فضل مع عدمه ، ولا قدر لكلام اذا هو لم يستقم له ، ولو بلغ في غرابة معناه ما بلغ ، وبتّهم الحكم بأنه الذى لا تمام دونه ولا قوام إلا به ، وأنه القطب الذى عليه المدار ، والعمود الذى به الاستقلال ».(١)

وفي صفحات تالية يعترف بفضل غيره قائلا : « وإذ قد عرفت ذلك فاعمد إلى ما تواصفوه بالحسن ، وتشاهدوا له بالفضل ، ثم جعلوه كذلك من أجل النظم خصوصا ، دون غيره مما يستحسن له الشعر أو غير الشعر من معنى لطيف أو حكمة أو أدب أو استعارة أو تجنيس ، أو غير ذلك مما لا يدخل في النظم ، وتأمله ».(٢)

والعدل والإنصاف من أجلّ الطباع التى نحتاجها دائماً ويطلبها العلم والعلماء ، و(عبد القاهر)هو واحد ممن أنصف نفسه وغيره حيث بين

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١١٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٠ .

عطه ، حيث يقول : ((وماكان بهذا المحل من الشرف ، وفي هذه المنزلة من الفضل ، وموضوعا هذا الموضع من المزية ، وبالغا هذا المبلغ من الفضيلة ، كان حرى بأن توقظه الهمم ، وتوكل به النفوس ، وتحرك له الأفكار ، وتستخدم فيه الخواطر ، وكان العاقل جديرا أن لا يرضى من نفسه بأن يجد فيه سبيلا الى مزية علم ، وفضل استبانة ، وتلخيص حجة ، وتحرير دليل ، ثم يعرض عن ذلك صفحا ، ويطوى دونه كشحا ، وأن يربأ بنفسه ، وتدخل عليه الأنفة من أن يكون في سبيل المقلد الذى لا يبت حكما ، ولا يقتل الشيء علما ، ولا يجد ما يبرئ من الشبهة ، ويشفى غليل الشاك وهو يستطيع يرتفع عن هذه المنزلة ، ويباين من هو بهذه الصفة ، فان ذلك دليل ضعف الرأى وقصر الهمة ممن يختاره ويعمل عليه)) (١) .

أساتذة الشيخ عبد القاهر الجرجاني :

للشيخ عبد القاهر الجرجاني شخصية عالم تميزة ، ذلك أنه لم يخرج من بلده لتلقى العلم ، ولم يرو أنه اتصل بسلطان أو أمير ، ولم يختلف الى أحد من الفقهاء والشيوخ المشهورين ، ولم يعرف عن أسرته أنها قدمت له مساعدة في هذا الشأن ، أو جلبت له المعلمين ، بل الذى عرف عنه انكبابه على الدرس وتحصيل العلوم ، وتلقف كل ما وصلت اليه يده بالتحصيل والدرس .

ذكر ذلك (ابن الأنبارى) حين قال :

((هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني النحوى ، كان من أكابر النحويين ، أخذ عن أبي الحسين محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الوارث ، وكن يحكي عنه كثيرا ، لأنه لم يلق شيخا مشهورا في علم العربية ، لأنه لم يخرج عن جرجان في طلب العلم ، وانما طرأ عليه أبو الحسن فقرأ عليه)) (٢) .

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٧ .

(٢) نزهة الألباء في طبقات الأدباء لأبي البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن الأنبارى . ت/د . ابراهيم السامرائي ، مكتبة الأندلس، بغداد ص ٢٤٨ . انظر فوات الوفيات ١/ ٦١٢ انظر انباه الرواة ٢/ ١٨٨ (انظر بغية الوعاة ٢/ ١٠٦) .

والملاحظ أن المؤرخين لحياة (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) اتفقوا جميعا على أنه لم يتصل بكثير من العلماء ، ولكن بعضهم اختلفوا في أستاذه .

بينما ذكر (ياقوت الحموى) « أن عبد القاهر قرأ على القاضي على بن عبد العزيز الجرجاني واعترف من علمه ، وكان اذا ذكره في كتبه تبخبخ قال بخ بخ - به وشمخ بأنفه بالانتماء إليه » .(١)

غير أن(الحموى) نفسه قال في ترجمة(محمد بن الحسين ابن أخت أبي على الفارسي)أن من تلاميذه « عبد القاهر ، وليس له أستاذ سواه » .(٢)

« والقول الأخير أقرب إلى الصحة ، لأن القاضي الجرجاني مات في بعض الروايات في سلخ صفر سنه ست وستين وثلثمائة ، وفي بعضها أنه مات سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة ، ولا يعقل أن يتصل به عبد القاهر حتى أواخر أيامه وقد شك معظم الباحثين في هذه التلمذة) .(٣)

ولقد وافق الدكتور (أحمد مطلوب) رأى الدكتور (أحمد أحمد بدوى) الذى يقول : (وإني أشك فيما رواه (ياقوت) من أنه قرأ على (القاضي الجرجاني) شيئا ، لأن القاضي توفى سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة ، فمتى يكون (عبد القاهر) قد أخذ عنه ؟ و (عبد القاهر) قد توفى سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ، فإذا كان قد أخذ عن (القاضي الجرجاني) فلا بد أن يكون (عبد القاهر) قد ولد قبل وفاته بنحو خمسة عشر عاما على الأقل حتى يستطيع أن يأخذ عن عالم واسع العلم كالقاضي ، ومعنى ذلك أن عبد القاهر ولد حول سنة سبع وسبعين وثلاثمائة فيكون عند وفاته قد أربى على تسعين عاما ، ولم يشر أحد من مؤرخيه إلى

---

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموى ، تحقيق د . س مرغليوث ،ط ٢ جـ ٥ ص٢٤٩ .

(٢) نفس المصدر جـ ٧ ص ٣ .

(٣) عبد القاهر الجرجاني ،بلاغته ونقده . د . أحمد مطلوب ص ١٤ ، وكالة المطبوعات - الكويت .

أنه طعن في السن إلى مثل هذا الحد ، مما يرجح أن أخذ عبد القاهر عن القاضي كان أخذا عن كتبه لاعن شخصه) .(١)

كما أن الدكتورين الجليلين اعتمدا في رأيهما على ما ورد في ترجمة (ياقوت الحموى) - السابق ..

وعلى كل فقد عرف أن شيخه هو :

(محمد بن الحسين ابن أخت أبي على الفارسي) .

ومع هذا (فالشيخ عبد القاهر الجرجاني) قد انكب على كتب العلم ، إذ كانت جرجان تغص بالوافدين من العلماء والفقهاء كما تقدم ذكر ذلك في أول حياته - مما أتاح له هو في بلده فرصة كبيرة للقراءة والإطلاع على الكثير من المؤلفات بعقل واع ، ونقل عن كثير من العلماء الأفاضل . أمثال :

(سيبويه) ،(الجاحظ)، (المبرد) ،(ابن جنى) ،(العسكرى) ، و(القاضي الجرجاني)وغيرهم . وكان يشير مرة إلى من أخذ منهم ويوضح أسماءهم ، وفي أخرى يأخذ منهم دون أن يشير إلى من أخذ منه .

وكان إلى جانب ما عرف عن علمه الغزير وثقافته الواسعة،عرف عنه كذلك ورعة ودينه ، بل عاطفة دينيه متأججة ، وتلك التي وضحت في جوانب مؤلفاته . مما جعله إمام عصره وشيخاً لعلمى البيان والمعاني .

تلاميذ الشيخ عبد القاهر الجرجاني :

ومن تلاميذه :

١ - (يحيى بن على الخطيب التبريزى) ، قال طاش كبرى زاده في

---

(١) سلسلة أعلام العرب - عبد القاهر الجرجاني للدكتور أحمد أحمد بدوى ص ٦ ، ٧ دار مصر للطباعة .

ترجمتـــــه :

« هاجر إلى أبي العلاء المعرى ، وأخذ عنه ، وعن عبيد الله الرقى والحسن بن رجاء بن الدهان وابن برهان والمفضل القصباني وعبد القاهر الجرجاني » .(١)

٢ - (أبو نصر أحمد بن ابراهيم بن محمد الشجـــرى) .

ذكره (القفطي) فقال : « قال ابن غياض الشامي الكفرطابي النحوى ونقلته بخطه في تذكرته في آخر نسخة المقتصد لعبد القاهر الجرجانـــــي بالرى مكتوبا ما حكايته :

« قرأ على الأخ الفقيه أبو نصر أحمد بن محمد الشجرى أيده الله - هذا الكتاب من أوله إلى آخره قراءة ضبط وتحصيل ، وكتبه عبد القاهر بن عبـــد الرحمن بخطه في شهر رمضان المبارك سنة أربع وخمسين وأربعمائـــــة ، حامدا لربه ومصليا على محمد رسوله وآله » .(٢)

٣ - (أحمد بن عبد الله المهاباذى الضرير) .(٣)

٤ - (على بن أبي زيد الفصيحي المتوفى سنة ٥١٦ هـ) « طـــــرأ عليه أبو الحسين ، فقرأ عليه ، وأخذ عنه على بن أبي زيد الفصيحي » .(٤)

كتبـــه وآثاره العلميـــة :

١ - كتاب شرح الفاتحـــة : وهو من كتبه التي لا نعلـــم عنها شيئـــا

---

(١) مفتاح السعادة ومصباح السيادة . تحقيق كامل بكرى وعبد الوهاب أبو النور القاهرة ١ / ٢١٨ .

(٢) انباه الرواة على أنباه النحاة ، ٢٠/ ١٩٠ .

(٣) معجم الأدباء لياقوت الحموى ١ / ٢١٧ تحقيق د . س مرغليوث ط ٢ القاهرة ١٩٢٣ م . أنظر روضات الجنات طبعة حجرية - ايـــران خوشنويس (طاهر) ص ٤٤٣ .

(٤) نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأنبارى ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

سوى ما قالوا عنه انه في مجلد واحد . [١]

٢ - درج الدرر في تفسير الآى و السور .[٢]

٣ - المعتضد ، ذكره القفطي في انباه الرواة [٣] (ولقد طبع) .

٣ - الشرح الصغير .

٥ - الرسالة الشافية :

و هي في إعجاز القرآن الكريم و قد طبعها (الدكتور محمد خلف الله أحمد) و(الدكتور محمد زغلول سلام) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم .

٦ - دلائل الاعجاز : و هو دراسة بلاغية لاثبات إعجاز القرآن ، ووضع نظرية لذلك .

٧ - أسرار البلاغة : يحتوى هذا المؤلف أصول و قوانين الفنون البلاغية .

٨ - المدخل في دلائل الاعجاز .

٩ - الإيجاز .[٤]

١٠ - المغنى .[٥]

١١ - المقتصد .[٦]

١٢ - التكملة .

١٣ - العوامل المائة .

---

(١) فوات الوفيات للكتبي / ت . محمد محى الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٥١ م ص ١/ ٦١٣ .
انظر طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ٥/ ١٠٥ ت / محمود محمد الطناحى و عبد الفتاح محمد الحلو، جـ٣، القاهرة ١٣٨٦ هـ ١٩٦٧م .

(٢) هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين للبغدادى ١/ ٦٠٦ إستانبول ١٩٥١

(٣) هدية العارفين ٢ / ١٨٩ .

(٤) هدية العارفين حـ ١ / ٦٠٦ .

(٥) نزهة الألباء ص ٢٤٩ - فوات الوفيات ١ / ٦١٢ .

(٦) انباه الرواة ٢ / ١٩٠ .

١٤ - الجمل.[١]

١٥ - التخليص.[٢]

١٦ - العمدة.

١٧ - كتاب في العروض.

١٨ - المختار من دواوين المتنبي والبحتري وابي تمام) مطبوع ضمن الطرائف الأدبية .

١٩ - مختار الاختيار.[٣]

٢٠ - التذكرة.[٤]

٢١ - المفتاح.[٥]

وفاتـــــــه :

لقد وافى الأجل شيخ البلاغة وامامها الفذ في سنة احدى وسبعـــــين واربعمائة للهجرة ، وقيل سنة أربع وسبعين وأربعمائة للهجرة.[٦]

---

(١) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة ١ / ٦٠٢ ط ٣ طهران سنة ١٣٨٧ هـ ، ١٩٦٧ م .

(٢) فوات الوفيـات ١ / ٦١٣ .

(٣) هدية العارفين ١ / ٦٠٦ .

(٤) انباه الرواة ٢ / ١٨٩ .

(٥) فوات الوفيات ١ / ٦١٣ .

(٦) فوات الوفيات ١ / ٦١٣ .
انباه الرواة ٢ / ١٨٩ .
طبقات الشافعية ٥ / ١٥٠ للسبكي .

الباب الأول

القضايا التي تعرض لها الشيخ عبد القاهر

ويتكون من ثلاثة فصول

الفصل الأول : قضية النظم . ويشتمل على ثلاثة مباحث وملحق .

المبحث الأول : معنى النظم وتاريخه عند عبد القاهر .

المبحث الثاني : نظرية النظم وجهود السابقين .

المبحث الثالث : المناظرة بين أبي سعيد السيرافي ومتى بن يونس .

الملحق : نموذج للخلاف بين العلماء على قضية اللفظ والمعنى .

الفصل الثاني : قضية المجاز وما يتفرع عنها في أسرار البلاغة .
ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : المجاز وجهود السابقين .

المبحث الثاني : خاصة جهود عبد القاهر في قضية المجاز .

الفصل الثالث : قضية إعجاز القرآن الكريم كما في الرسالة الشافية
وبه ملحق الصرفة .

الفصل الأول

قضية النظم . ويشتمل على ثلاثة مباحث وملحق .

المبحث الأول : معنى النظم وتاريخه عند عبد القاهر .

المبحث الثاني : نظرية النظم وجهود السابقين .

المبحث الثالث : المناظرة بين أبي سعيد ومتى بن يونس .

الملحق : نموذج للخلاف بين العلماء على قضية اللفظ والمعنى .

المبحث الأول

معنى النظم و تاريخه عند عبد القاهر

لقد اعترض كتاب الله العزيز بالطعن جماعة المغرضين بالدين ، و جاهروا الله بالعداوة ، فاجترأوا على منزلة الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بالطعن و التكذيب . فاجتمع علماء المسلمين على كلمة الحق في سبيل الذود عن حياضه ، و منذ فجر الدعوة كان هناك مناهضون بالسيف و آخرون بأقلامهم ، و سوف أوضح .إن شاء الله آراء هؤلاء العلماء ، و كيف كانت روافد غذت نهر بلاغة (الشيخ عبد القاهر) ، حتى كانت له نظرية النظم ، واستحق بجدارة لقب لقب واضعها حيث جعل كتابه (دلائل الاعجاز) موقوفا من مدخله إلى نهايته على شرح أبعاد هذه النظرية التي مهد لها بأهمية علم النحو ، لأنه العلم الذى ارتكزت عليه دعامة الإعجاز تماما ، يقول :

((فإذا ثبت الآن أن لا شك ولا مرية ، في أن ليس النظم شيئا غير توخى معاني النحو و أحكامه فيما بين معاني الكلم ، ثبت من ذلك أن طالب دليل الإعجاز من نظم القرآن ، إذا هو لم يطلبه في معاني النحو وأحكامه ووجوهه و فروقه ، و لم يعلم أنها معدنه ، ومعانه وموضعه ومكانه ، وأنه لا مستنبط له سواها ، و أن لا وجه لطلبه فيما عداها ، غار نفسه بالكاذب من الطمع ، و مسلم لها إلى الخدع ، و أنه إن أبى أن يكون فيها ، كان قد أبى أن يكون القرآن معجزا بنظمه ، و لزمه أن يثبت شيئا آخر يكون معجزا به)) (١)

و هذه العبارة التي توضح أهمية النحو في الإعجاز ، هي غيض من فيض ، امتلأت به صفحات كتاب الدلائل ، و ما ذلك الترديد و الاعادة الا لدحض شبه بعينها ، وليس ترديداً هدفه التوضيح فقط ، بل هي محاولة لربط أهمية علم النحو (و نظرية النظم) بكل علوم البلاغة .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٥٨ / ٤٥٩ .

وسنلاحظ ذلك فيما يأتي من فصول - حيث أن بعض الذين كتبوا في هذا الشأن أخطأوا في فهم حقيقة الإعجاز فجعلوا مردها إلى أمور لم يقبلها (الشيخ عبد القاهر) فردها واحدة واحدة .

(وملخص فكرة النظم) : أن (الشيخ عبد القاهر) يفرق بين النظم في الحروف والنظم في الكلم .

فالنظم في الكلمة المفردة أمر لا يعتد به ، لأن الكلمة من حيث هي كذلك ليست لها قيمة ، إلا إذا وضعت إلى جنب أختها وضعا مناسبا للمعنى ، خاضعا لعلم النحو ، يقول :

((واعلم انك إذا رجعت إلى نفسك ، علمت علما ، لا يعترضه الشك ، أن لا نظم في الكلم ، ولا ترتيب ، حتى يعلق بعضها ببعض ، ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك)) (١) .

ويرى في موضع آخر : أن أهمية الكلمة لا تكون إلا إذا خضعت وجارتها لمعاني النحو وللمعنى المطلوب . يقول :

((أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق بل أن تناسقت دلالتها ، وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل ، وكيف يتصور أن يقصد به الى توالي الألفاظ في النطق ، بعد أن ثبت أنه نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض)) . (٢)

ولا يكون اعجاز وبلاغة في نظم حروف الكلمة ، لأن الكلمة ما هي الا تعبير اصطلاحي عن معنى معين . بدليل أنهم لو تعارفوا على وضع (ربض) مكان (ضرب) ،لما كان في ذلك ما يؤدى إلى فساد يقول :

((وذلك أن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط ، وليس نظمها

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٩٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ٩٣ .

بمقتضى عن معنى ، ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه ، فلو أن واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدى إلى فساد))[1] .

وهكذا يستمر (الشيخ عبد القاهر) في عرض فكرة (النظم) التي لا يمكن حدها بإجابة واحدة ، ولا يمكن حصرها في فكرة واحدة ، لأن الكلام المعجز يكون أعمق من الحصر والتحديد ، وإلا أصبح مما يمكن بالدّربة والدرس والتمحيص يقول في ذلك :

((واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر ، ويغمض المسلك في توخى المعاني التي عرفت ، وأن تتحد أجزاء الكلام ، ويدخل بعضها في بعض ، ويشتد ارتباط ثان منها بأول ، وأن يحتاج في الجملة الى أن تضعها في النفس وضعا واحدا ، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه هاهنا ،في حال ما يضع بيساره هناك . نعم وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين ، وليس لما شأنه أن يجئ على هذا الوصف حد يحصره ، وقانون يحيط به ، فإنه يجيء على وجوه شتى وأنحاء مختلفة))[2] .

والسر في هذا الوصف الذى لا يحد النظرية بحدود ، أنها ترتكز على معاني النحو ، ومعاني النحو ووجوهه كثيرة ، والفروق بينها أكثر ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازديادا بعدها .

ومن وجوه نظرية النظم أنه لا بد من توخي الدقة في إعراب الكلمات المنظومة المبوبة على أحسن ما يكون . لأن الخطأ في تقدير الإعراب يؤدى إلى فساد المعنى الذى أراده المتكلم ، حتى ولو لم يغير مواضع الكلمات من مكانها الذى عرفت فيه ، يقول في ذلك :

((إن ها هنا استدلالا لطيفا تكثر بسببه الفائدة ، وهو أن يتصور

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٩٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٢٧ كذلك انظر ص ١٢٣ المصدر نفسه .

أن يعمدعامد إلى نظم كلام بعينه فيزيله عن الصورة التي أرادها الناظم له ويفسدها عليه من غير أن يحول منه لفظا عن موضعه أو يبدله بغيره . أو يغير شيئا من ظاهر أمره على حال .

مثال ذلك : أنك إذا قدرت في بيت أبي تمام : (١)

لعاب الأفاعي القاتلات لعابه
وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل

إن (لعاب الأفاعي) مبتدأ ، (لعابه) خبر كما يوهمه الظاهر ، أفسدت عليه كلامه ، وأبطلت الصورة التي أرادها فيه ، وذلك أن الغرض أن يشبه مداده بأرى الجنى ، على معنى أنه إذا كتب في العطايا والصلات ، أوصل به إلى النفوس ما يحلو مذاقته عندها ، وأدخل السرور واللذة عليها ، وهذا المعنى إنما يكون إذا كان لعابه مبتدأ ولعاب الأفاعي خبرا ، فأما تقديرك أن يكون (لعاب الافاعي) مبتدأ ، و (لعابه) خبرا ، فيبطل ذلك ، ويمنع منه البتة ويخرج بالكلام إلى ما لا يجوز أن يكون مرادا في مثل غرض أبي تمام)) (٢).

فمن ملاحظة ما أراد (الشيخ عبد القاهر) ، ومن تتبع قوله ، يتضح لنا أن الإعراب لا يكون إلا بمعرفة وجه المعني الصحيح الذى قصده قائله ، ومن ثم يكون الإعراب ، فـ(أبو تمام) أراد أن يشبه مداد قلم الممدوح في حال، يكون مضرا بلعاب الأفاعي السام ، ويكون في مداد قلم الممدوح ، العسل النقي الصفى ، هو في حال الهبات والعطايا، وهذا المعنى المراد يقتضى أن يكون (لعابه) هو (المبتدأ) ، و (لعاب الأفاعي خبرا) عنه وإن تقدم .

وإن الظاهر يوهم أن يكون (لعاب الأفاعي) مبتدأ ، (ولعابه) خبرا عنه وهذا الإعراب يفسد المعنى ، ويجعله يحيد عن جادة الصواب والمراد .

---

(١) هذا البيت من الطويل.

(٢) دلائل الاعجاز صـ٣٤ ، ٣٤٦ .

أى أن الخطأ في تقدير الاعراب يؤدى الى فساد المعنى وان كان تركيب الكلام في ظاهره صحيحا ، وهذا يؤدى الى أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني ، وبأمرها ماضية ، يقول :

((واعلم أنه ان نظر في شأن المعاني والألفاظ الى حال السامع ، فاذا رأى المعاني تقع في نفسه من بعد وقوع الألفاظ في سمعه ظن لذلك أن المعاني تبع للألفاظ في ترتيبها ، فان هذا الذى بيناه ، يريه فساد هذا الظن . وذلك أنه لو كانت المعاني تكون تبعا للألفاظ في ترتيبها لكان محالا أن تتغير المعاني،والألفاظ بحالها لم تزُل عن ترتيبها ، فلما رأينا المعاني قد جاز فيها التغير من غير أن تتغير الألفاظ ، وتزول عن أماكنها ، علمنا أن الألفاظ هي التابعة ، والمعاني هي المتبوعة)) .[1]

والذى أود أن أصل إليه من معنى قول (الشيخ عبد القاهر) أن النظم توخى معاني النحو .

وأن ليس المقصود الإعراب بحد ذاته كأن يعرف أن هذا فاعل ، وذاك مفعول ، وهذا حال . لأنها من البديهيات التي غصت بها الكتب ، ولكن أن يعرف الناظم متى يقول : زيد منطلق ، ومتى يقول زيد ينطلق ، فالفرق بين الجملتين كبير ، ومؤداهما مختلف تماما ، فكل منها يحمل معنى غير الذى يحمله الآخر ، وهذا هو المعنى الذى قصده (الشيخ عبد القاهر) وهو الذى يعسر فهمه على طالبه العادى،والذى لا يتيسر للعلماء أن يتوخوه في كلامهم كله ، وكتاب الله جل وعلا ، إنما أصبح معجزا ، لأنه لا توجد جملة فيه حادت عن التركيب النحوى الصحيح الذى يطابق المعنى ، وعلى دارسيه أن يستنبطوا هذه التراكيب ، ويحللوا معانيها .

هذا ملخص مفهوم (معاني النحو) أو روح النحو . وسوف أبين بعض المواضع التي وضح فيها (الشيخ عبد القاهر) هذا المعنى . وذلك حين يقول :

---

(١) الدلائل ص ٣٤ ٧ .

((واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت ، فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها .

وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه ، فينظر في الخبر الى الوجوه التي تراها في قولك : زيد منطلق . وزيد ينطلق ، وينطلق زيد ، ومنطلق (زيد) ، و (زيد) المنطلق ، والمنطلق (زيد) وزيد هو المنطلق ، وزيد هو منطلق .

وفي الشرط والجزاء الى الوجوه التي تراها في قولك : ان تخرج اخرج ، وان خرجت خرجت ، وان تخرج فأنا خارج ، وأنا خارج أن خرجت وأنا ان خرجت خارج .

وفي الحال الى الوجوه التي تراها في قولك : جاءني (زيد) مسرعا وجاءني يسرع ، وجاءني وهو مسرع ، أو هو يسرع وجاءني قد أسرع ، وجاءني وقد أسرع .

فيعرف لكل من ذلك موضعه ، ويجيء به حيث ينبغي له)).[1]

اى أن يعرف ناظم الكلام لكل الأحوال مواضعها التي تستعمل فيها ، والمناسبات التي تقتضيها ، يقول :

((وهذا هو السبيل ، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ، ويدخل تحت هذا الاسم ، إلا وهو معنى من معاني النحو ، قد أصيب به موضعه، ووضعه في حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة ، فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له ، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده ، أو وصف بمزية وفضل فيه ،

---

(١) الدلائل ص ١١٧ ، ١١٨ .

الا و أنت تجد مرجع تلك الصحة ، و ذلك الفساد ، و تلك المزية ، و ذلك الفضل ، الى معاني النحو و أحكامه ، ووجدته يدخل في أصل من أصوله ، و يتصل بباب من أبوابه)) .(١)

و لقد أفرد (الشيخ عبد القاهر) بابا طويلا في شرح الفروق بين قولنا (زيد) ينطلق ، و (زيد) منطلق ، و لقد آثرت أن استشهد ببعض فقرات لتوضيح فكرته فقط .

يقول : ((فإذا قلت : زيد منطلق ، فقد أثبت الإنطلاق فعلا له . من غير أن تجعله يتجدد ، و يحدث منه شيئا فشيئا بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك زيد طويل ، و عمرو قصير فكما لا يقصد ها هنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ، و يحدث بل توجبهما و تثبتهما فقط ، و تقضي بوجودهما على الإطلاق ، كذلك لا تتعرض في قولك : زيد منطلق لأكثر من إثباته لزيد)) .(٢)

فالإخبار عن زيد بقولنا منطلق ، يدل فقط على ثبوت الفعل دون أن تجعله متجددا و مثله مثل قول القائل عمرو قصير ، فقد أثبت له القصر ، و يظهر المعنى أكثر عند القول :

((زيد ها هو ذا ينطلق) ، فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءا فجزءا و جعلته يزاوله و يزجيه و إن شئت أن تحس الفرق بينهما من حيث يلطف فتأمل هذا البيت :

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا ولكن يمر عليها و هو منطلق (٣)

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١١٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٣ .

(٣) هذا البيت من البسيط و هوللنضر بن جؤية . انظر معجم شواهد العربية ، تأليف د . عبد السلام هارون ، ص ٢٤٨ ، مكتبة الخانجي بالقاهرة .

هذا هو الحسن اللائق بالمعنى ، ولو قلته بالفعل : لكن يمر عليها وهو ينطلق ، لم يحسن)) .(١)

فقول القائل : ((زيد ها هو ذا ينطلق)) يفيد أن الانطلاق يقع بعد فجأة ، ويعني كذلك أنه يزاوله ، ولقد ضرب مثلا لذلك قول الشاعر ((لكن يمر عليها وهو منطلق)) فمع مرور الدرهم بالصره يستمر في الإنطلاق دون توقف ، وهي صفة ثابتة له - أى صفة الانطلاق - وهذا هو الحسن ، ولكنه لو قال يمر عليها وهو ينطلق اى أنه عند مروره بها لا يتابع انطلاق ، وهذه صفة لا تستحسن .

وهكذا تمضي الأمثلة دقيقة الشرح والوصف من كتاب الله ومن الشعر ، كل بما يبهج الصدر ، ويحير العقل ، ويروى غلة الصادى ، ويشفى وَلَه الدارس ، وهي كثيرة عديدة ، في كل معنى من معاني النحو .

وخلاصة هذه النظرية : أنها حصرت النظم في معاني النحو وفروقه فروح النحو سرت في كل كلام ، حتى علم البيان ، والبديع والمعاني لم يستطع علم أن يزيغ عن سلطانها ، وفي كل فصل عقدت ،في نهايته علاقته بالنظم .

وماسيأتي بيانه من مواقف العلماء من إعجاز القرآن ، ومن خلال مقارنتها بموقف (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) نستجلى حقيقة فكرة الناصع المتروى الذى استطاع أن يدرس ويمحص ما قدمه العلماء الأوائل درسا علميا قائما على الحجة والبرهان والشرح والبسط ،فأضاف إضافات جديرة بالإعزاز حتى تكوّن صرح نظرية النظم كاملا ، واستحق بجدارة أن تنسب إليه ، لذلك ما فتئ يردد أن قلة النظر والتدبر في كتب السابقين ،هو الذى جعل ظهور هذه النظرية يتأخر ، وبما أن صاحب هذه النظرية نسب الفضل

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٩٣ .

لأهله ، فحرى بنا أن ننسب إليه الفضل في استجلاء ما غمض من حقيقة النظم المعجز الذى تردد في كتب السابقين :

يقول مصرحا بذلك :

((ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة ، وفي بيان المغزى من هذه العبارات ، وتفسير المراد بها .

فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب ، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج ، وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه وتوضع لك القاعدة لتبنى عليها ، ووجدت المعول على أن ها هنا نظما وترتيباً ، وتأليفا وتركيبا ، وصياغة وتصويرا ونسجا وتمييزا وأن سبيل هذه المعاني في الكلام الذى هي مجاز فيه سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها)) .[1]

وهذا الإعتراف من (الشيخ عبد القاهر) يدل أنه ليس مبتكرا لنظرية النظم ، وليس هو أول من تكلم فيها ، وليقطع دابر أقوال ترددت أصداؤها في بعض الكتب الحديثة ، بأن (الشيخ عبد القاهر) ليس هو واضع هذه النظرية .

ومما هو متعارف عليه أن لا شيء يوجد من العدم ، وأن كل نظرية لابد أن تبدأ صغيرة ، في صورة فروض تظل عرضة للرياح تتقاذفها الأمواج إلى أن تجد يدا بصيرة خبيرة ، تصل بها بر الأمان والاستقرار .

وتأريخ نظرية النظم قد ابتدأ بظهور المعجزة الكبرى وأخذ المسلمون يجتهدون في استنباط عناصر اعجازه - كما سبق وشرحت - الى أن أتى (الشيخ عبد القاهر) فجعل هذه النظرية مدخلا واسعا شمل أصول البلاغة وفروعها ، حيث طبق عليها مفهوم النظم ، واستشهد له بشواهد

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٨٠ .

وأدلة من الكتـــاب الكريم والشعر ، حتى استحق بذلك فضل نسبتهـا إليه .

تأريـــخ كلمة النظم :

وكلمة النظم هذه لها تاريخ ، فقد عرفت هذه الكلمة (النظم) اصطلاحا علميا في بيئة (الاشاعرة) خاصة ، فاختارها (الشيخ عبد القاهر) دون أى مصطلح آخر ، كاللفظ والمعنى ، لأنه لا يرى اعجازا فيهما ، ولكـــن النظم كما وضحه في مؤلفه العظيم (دلائل الاعجاز) هو الـذى يتحقـق به الاعجاز .

وحتى هذا المؤلف قد حامت حوله الشبهات ، فاتهمه بعضهم بالقصور في شرح اعجاز القرآن .

وفي الواقع لا يدل اسم الكتاب على أنه حديث مباشر عن اعجاز القرآن بل هو دلائل ومؤشرات على اعجاز القرآن الكريم فقط ، ومن هؤلاء الذين اتهموه بالقصور الدكتور (عبد القادر حسين) حيث يقول : ((فعلـــى الرغم من أن الدافع إلى وضع هذه النظرية عند (عبد القاهر) كان دينيـا بحتا ، وغرضه خدمة الديـن والعقيدة إلا أن هذا الهدف لم يتحقـــق فمن يقرأ الدلائل يشعر بمدى سيطرة المباحث النحوية والبلاغية ،علـــى بيان الإعجاز في القرآن نفسه ،مما يدل على أن (عبد القاهر) قد نـــسي الغرض الذى ألف الكتاب من أجله ، أو انحرف عن الطريق المرسوم)) .[1]

ولكن الكتاب لا يدل اسمه على أنه حديث مباشر عن اعجاز القرآن بـــل هو دلائل ومؤشرات على اعجاز القرآن الكريم فقط ، يقول في ذلك الدكتـور (محمد عبد المنعم خفاجي عنـد تقديمه للدلائل :

---

(١) أثر النحاة في البحث البلاغي ص ٣٥٩ .

((و يتحدث (عبد القاهر) في اعجاز القرآن حديثا موجزا ، لأنه مشغول بوضع الأساس الذى يحلل كلام الله الكريم على ضوئه ، ليعرف اعجازه ، و يبين عظمته و منزلته في البلاغة ، وإن كا قد رد على من ذهب مذهب الصرفه ، و أن الإعجاز في القرآن سببه صرف الله للعرب عن معارضته ، و هكذا يفيض (عبد القاهر) في دلائل الاعجاز في شرح النظم ، و أسرار بلاغته ، مما يجعلنا نوقن بأن (دلائل الاعجاز) قد ألفه (عبد القاهر) لبيان هذه النظرية البيانية الخطيره وللتطبيق عليها ، و ذلك أنه جعل معرفة أسرار الإعجاز مرتبطة بمعرفة أسرار النظم و دقائقه ووجوهه ، و قد سمي كتابه (دلائل الاعجاز) و هو لا يريد حجج الاعجاز ، لأنه لم يتكلم عنها ، ولم يعرض لها ، وانما يريد بالدلائل معنى مقدمات ، فكأنه يقول هذه هي مقدمات لفهم قضية الاعجاز و أسراره ، و من ثم جعل الكتاب من أوله الى آخره خاصا بقضية النظم ، و بالتطبيق النقدى عليها لأن معرفة هذه القضية مقدمة لمعرفة أسرار الاعجاز نفسه)) .(١)

و في هذه العبارة رد على من رأى في الدلائل نقصا بأنه لم يشرح اعجاز القرآن الكريم ، و ذلك أن هذا فيما يبدو - لم يكن هدف الشيخ من تأليف الكتاب ،بل كان - كما قال الدكتور خفاجي ((مقدمات لفهم قضية الإعجاز)) .

---

(١) مقدمة دلائل الاعجاز د . محمد عبد المنعم خفاجي ص ١٧ ، ١٨ .

المبحث الثاني

نظرية النظم وجهود السابقين

العرب قوم اشتهروا بالفصاحة والبلاغة ، لذا فقد اهتموا بصناعة الكلام وترتيبه وتنقيحه ، وأخذوا في الدربة على تنفيذه ومعرفة مسالكه ودروبه ، من هذا نرى أن تعريف البلاغة أو الكلام البليغ نفسه محور تدور حوله أغلب الكتب المؤلفة في هذا المجال . وأن هذا الاهتمام بالكلام قد دعاهم إلى تسجيل ملحوظات على شكل قواعد في مختلف الكتب المتقدمة ، وعلى شكل انتقادات لبعض أبيات الشعر استفاد منها النقاد ، كما استفاد منها (الشيخ عبد القاهر) في اختيار ما يناسب صفة الكلام البليغ ، مما هيأ له أن يجني من ثمرها قضية النظم التي اعتمدت على تذوق الكلام واختيار ما يناسب المعنى منه ويجاري النحو .

وكان (الخليل بن أحمد الفراهيدي) من أوائل الرواد الذين كتبوا عن البلاغة ، فقال : ((كل ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة ، فإن استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقا ، ولتلك الحال وفقا ، وآخر كلامك لأوله مشابها ، ومورده لمصدره موازنا فافعل)) .(١)

وهذا التعريف هو الذي تناقلته كتب البلاغة فيما بعد بأساليب مختلفة. فهذا (الجاحظ ت ٢٥٥هـ) يقول :

((والعتابي حين زعم أن كل من أفهمك حاجتك فهو بليغ ، لم يعن أن كل من أفهمنا معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته ، والمصروف عن حقه ، أنه المحكوم له بالبلاغة كيف كان ، بعد أن نكون قد فهمنا عنه معنى كلام النبطي الذي قيل له : لم

---

(١) الرسالة العذراء لابن المدبر ، تحقيق زكي مبارك ، ط ٢ ، ٠ ـ القاهرة : دار الكتب المصرية ، (١٣٥٠هـ / ١٩٣٧م) ، ص ٤٨ .

اشتريت هذه الأتان ، قال أركبها وتلد لي ، وقد علمنا أن معناه كان صحيحا .

فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل ، جعل الفصاحة واللكنة ، والخطأ والصواب ، والاغلاق والابانة ، والملحون والمعرب كله سواء ، وكله بيانا [1]) .

(وأبو هلال العسكرى ت ٣٩٥هـ) ، يقول :

((قال (العتابي) : كل من أفهمك حاجته فهو بليغ : وانما عني أن من أفهمك حاجته بالألفاظ الحسنة ، والعبارة النيرة فهو بليغ .

ولو حملنا هذا الكلام على ظاهره للزم أن يكون الألكن بليغا ، لأنه يفهمنا حاجته ، بل يلزم أن يكون كل الناس بلغاء حتى الأطفال ، لأن كل واحد لا يعدم أن يدل على غرضه بعجمته أو لكنته أو إيمائه أو إشارته ، بل لزم أن يكون السنور بليغا ، لأننا نستدل بضغائه [2] على كثير من إرادته ، وهذا ظاهر الاحالة)) [3] .

ولقد ناقش (الدكتور عبد القادر حسين) تعريف (الخليل) جملة جملة ، فقال :

((وهو تعريف فضفاض ، يدخل فيه ما ليس من البلاغة ، وضيق من جهة أخرى ، فهو يطلب من الكلام البليغ مساواة اللفظ للمعنى ، وكأن الايجاز الذى طبع العرب عليه ليس من البلاغة أيضا) [4] .

---

(١) البيان والتبيين ص ١ / ٩٨ تحقيق فوزى عطوى / الشركة اللبنانية / بيروت .

(٢) ضغا الثعلب والسنور يضغو ضغاء ،أى صاح . وكذلك صوت كل ذليل مقهور / انظر الصحاح ٦ / ٢٤٠٩ مادة (ضغا) .

(٣) الصناعتين لأبي هلال العسكرى ص ٢٠ / ت/د . مفيد قميحة ، ط ١ ١٤٠١هـ .

(٤) أثر النحاة في البحث البلاغي ص ٥٥ / مطبعة نهضة مصر .

ولا أعتقد أن (الخليل) رحمه الله ، قصد بقوله ((كل ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة)) إلى مستوى التبليغ الذى فهمه (الدكتور عبد القادر حسين) إذ كيف يدخل (الخليل) التبليغ بالإشارة أو ما هو بمستواها من الكلام الركيك في البلاغة ، وهو الذى يقول بعد ذلك ((فإن استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقا ولتلك الحال وفقا)) وهو تعريف لمستوى عال من الكلام ، وهو أن تكون الألفاظ مناسبة للمعاني التي سيقت لها والتي وضعت من أجلها ، وليس القصد كما ذكره (الدكتور عبد القادر حسين) ، أن (الخليل) يريد أن تكون الألفاظ على قدر المعاني من الطول والقصر .

كما أن (الخليل) شرح ما عرف عن البلاغة من أن لكل مقام مقالا . عندما قال :

((يطول الكلام ويكثر ليفهم ، ويوجز ويختصر ليحفظ))(١) ، فإذا كان المقام مقام تفهيم ، فلا بد أن يطول الكلام ليكون بمثابة شرح للمعاني ، حتى يتسنى للمتكلم أن يصل إلى المعنى الذى يريد توضيحه .

ولقد درس العلماء أهمية الحروف المتلائمة والمتنافرة في بلاغة الكلام .

والتلاؤم نقيض التنافر ، والتلاؤم تعديل الحروف في التأليف ، والسبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف ، فكلما كانت الحروف متقاربة ، دنا الكلام من الطبقة العليا من الكلام .

وأما السبب في التنافر ((ماذكره (الخليل) من البعد الشديد أو القرب الشديد ، وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي المقيد ، لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه ، وكلاهما صعب على اللسان ، والسهولة من ذلك في الاعتدال

---

(١) العمدة لابن رشيق القيرواني ١٨٦/١ دار الجيل / بيروت .

ولذلك وقع في الكلام الادغام والابدال)) .[1]

ولقد اهتم بالتنافر والتقارب بين الحروف (الجاحظ) حيث يقول : ((وأنشدني (أبو العاصي) ، قال أنشدني (خلف الأحمر) في هذا المعنى :

وبعض قريض القوم أولاد علّة
يكد لسان الناطق المتحفظ [2]

أما قول خلف ((وبعض قريض القوم أولاد علة)) فإنه يقول :

إذا كان الشعر مستكرها ، وكانت ألفاظ البيت من الشعر ، لا يقع بعضها مماثلا لبعض ، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات ، واذا كانت الكلمة ليس موقعها الى جنب أختها مرضيا موافقا ، كان على اللسان عند انشاد ذلك الشعر مؤونة ، وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج) .[3]

ففي تعليقه بيان على رداءة نظم هذا البيت من الشعر ، وعلى تنافر الألفاظ فيه ، وكذلك بعد مخارج بعضها عن بعض يؤدي الى سوء النطق بها ، بل الى استكراه انشاد البيت .

ولقد استعان ابن رشيق برأي الجاحظ في هذا البيت فقال :

((واستحسن أن يكون البيت بأسره كأنه لفظة واحدة لخفته وسهولته ، واللفظة كأنها حرف واحد)) .[4]

كما كان بيت الفرزدق المشهور : [5]

وما مثله في الناس إلاّ مملكا
أبو أمه حي أبوه يقاربه

---

(١) النكت في اعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل ص ٩٦ / ت محمد خلف الله د . زغلول سلام ، دار المعارف ط ٣ .
(٢) هذا البيت من الطويل . انظر معجم شواهد العربية ، ص ٢٠٧ .
(٣) البيان والتبيين ١ / ٤٩ .
(٤) العمدة ١ / ٢٥٧ .
(٥) هذا البيت من الطويل ، وهو يمدح فيه خال هشام بن عبد الملك : وهو ابراهيم بن هشام ، وكان واليا على المدينة مدة هشام .
معنى البيت : أنه لا يشابهه الا ابن أخته ، والوجه الذى كان به البيت معقدا . أن المستثنى منه قدم ، وأن الصفة قدمت على الموصوف ، وفصل بين المبتدأ والخبر كذلك بين الصفة وموصوفها .

أوضح مثال على التعقيد اللفظي ، حيث ترددت الأقوال عنه في معظم المصنفات .(١)

ودافع (الرماني) بدوره عن إعجاز القرآن وعن معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول : ((وجوه إعجاز القرآن من سبع جهات : ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة ، والتحدى للكافة ، والصرفة ، والبلاغة ، والاخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ، ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة .

فأما البلاغة فهي على ثلاث طبقات منها ما هو في أعلى طبقة ، ومنها ما هو في أدنى طبقة ، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة ، فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز وهو بلاغة القرآن ، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس ، وليست البلاغة إفهام المعنى لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عيى ، ولا البلاغة أيضا بتحقيق اللفظ على المعنى ، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ، ونافر متكلف وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ فأعلاها طبقة فى الحسن بلاغة القرآن ، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة ، وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم كإعجاز الشعر المفحم ، فهذا معجز مفحم للخاصة ، كما أن ذلك معجز للكافة .

والبلاغة على عشرة أقسام : الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم والفواصل ، والتجانس ، والتعريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان))(٢)

ولقد عرف (الرماني) كل قسم من هذه الأقسام وأسهب في الشرح والتفصيل ، حتى أصبح مؤلفه كأنه كتاب بلاغة ، ولقد عرف البيان بقوله : ((وحسن البيان في الكلام على مراتب : فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم حتى يحسن في السمع ويسهل على

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٨٥ ، ٨٦ ، (الكامل) ١/ ١٨ ، الخصائص ٢/ ٢٩٣ ، أسرار البلاغة ص ١٥ ، ٦٥ .

(٢) النكت في اعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل ص ٧٥ ، ٧٦ .

اللسان ، وتتقبله النفس تقبل البرد ، وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة)) (١) .

إذ عدّ الكلام الذى نظمه جيد في أعلى مراتب الكلام ودليل جودة نظمه حسنه في السمع وسهولته على اللسان بحيث تتقبله النفس تقبل البرد .

كما اهتم بالإعراب وتحدث عن علو شأنه بحيث لا يتأتى بالسليقة ، والطبع للمولدين كما يمكنهم إقامة الأوزان ((لأن العرب كانت تقيم الأوزان والإعراب بالطباع ، وليس في المولدين من يقيم الإعراب بالطباع ، كما يقيم الأوزان ، والعرب على البلاغة أقدر لما بيّنا من فطنتهم لما لا يفطن له المولّدون من إقامة الإعراب بالطباع ، فإذا عجزوا عن ذلك فالمولدون عنه أعجز)) (٢) .

ولقد استشف (الخطابي ت ٣٣٨هـ) من خلال ما كتبه السابقون أنهم في حيرة من أمر الإعجاز ، وأن كل ما كتب غير واف وليس هو المطلوب ، وان توصل بعضهم إلى معرفة أن الإعجاز هو في بلاغة القرآن . ولكن ما هي الكيفية ، وما هو الأمر الذى تهتم به البلاغة : ((وزعم آخرون أن إعجازه من جهة البلاغة ، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر ، وفي كيفيتها يعرض لهم الإشكال ، ويصعب عليهم منه الانفصال ، ووجدت عامة أهل هذه المقالة قد جروا فى تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد وضرب من غلبة الظن ، دون التحقيق له ، وإحاطة العلم به ، ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة ، التي اختص بها القرآن ، الفائقة في وصفها سائر البلاغات ، وعن المعنى الذى يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة ، قالوا إنه لا يمكننا تصويره ، ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام ، وإنما يعرفه العاملون به عند سماعه ضربا من المعرفة ، لا يمكن تحديده ، وأحالوا على سائر أجناس الكلام الذى يقع منه التفاضل ، فتقع في نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك ويتميز في أفهامهم قبيل الفاضل من المفضول منه .

---

(١) النكت في اعجاز القرآن ص ١٠٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ١١٣ .

قالوا وقد يخفى سببه عند البحث ويظهر أثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوى العلم والمعرفة به . قالوا : وقد توجد لبعض الكلام عذوبة فى السمع وهشاشة فى النفس لا توجد مثلها لغيره منه ، والكلامان فصيحان ، ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة .

قلت : وهذا لا يقنع في مثل هذا العلم ، ولا يشفى من داء الجهل به ، وإنما هو إشكال أحيل به على إبهام)) (١) .

ومن هذه الأقوال ، ما قلناه عما ورد فى مؤلفات إعجاز القرآن من شذرات هنا وهناك تحاول وصفه والوصول إلى حقيقته ، ولكن لم نجد من ذلك ما يشفى الغلة ويروى الظمأ ، ولكن (الخطابي) من العلماء الذين عنوا بكشف أسرار القرآن الكريم ، ولقد وفقه الله سبحانه ، إلى مالم يوفق إليه من سبقه من سر النظم العظيم ، يقول :((وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم ، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة)) (٢) .

وذلك أنه يرى الإعجاز إنما يكون في إختيار الألفاظ المناسبة تماما لأداء المعنى المطلوب ، لأن اللغة العربية إنما هي بحر يزخر بمالا يحصى من المفردات التي لا يمكن لبشر أن يحصيها ، ناهيك عن أن يدرك معانيها ، لذا كان القرآن معجزا لأنه راعى تماما هذه الناحية ، واختار من الألفاظ ما يناسب المعاني .

كما أن المعاني من الصدق والحكمة وشرف الغاية ، ما أقام دولة الاسلام ، وأضاء القلوب بنوره ، وكان الرابط الجامع لهذين ـ المعنى ، والكلمة ـ بواسطة النحو ، الذى وفق بين المعنى المطلوب وبين المفردات المنتقاة . وهذا هو

---

(١) رسالة الخطابي ص ٢٤ ، ٢٥ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٧ .

النحو وحقيقة معناه الربط بين الكلمات على حسب المعاني ، وهذه هي النظرية التي وسعها فيما بعد (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) .

واذا كان (الخطابي) قد شرح هذه العناصر الثلاثة ، فليس بالمستوى الذى وصل إليه الشيخ (عبد القاهر)، من فهم عميق وشرح واف، حيث يقول في مستهل كتاب الدلائل ، ((معلوم أن ليس النظم سوى تعلق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض)) (١) .

ومضمون هذا المعنى هو ما جاء في تعريف (الخطابي) للإعجاز إذ نراه يصف ألفاظ القرآن الكريم بقوله : ((لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه)) (٢) .

ثم وصف النظم فقال : ((ولا ترى نظما أحسن تأليفا ولا أشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه)) (٣) .

ثم بين بعد ذلك المقصود من المعاني حيث يقول : ((واعلم أن القرآن إنما صار معجزا ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني ، من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيه له في صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ، و نهي عن منكر وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساوئها ، واضعا كل شيء منها الى موضعه الذى لا يرى شيء أولى منه ، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه)) (٤) .

كما اهتم الخطابي بشأن اللفظ وعظيم قدره ، ذلك أنه لا يقدر على اختيار الألفاظ المناسبة في المكان المناسب ، إلا من أوتي قدرا كبيرا من

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٣ ، ٤٤ .
(٢) رسالة الخطابي ، ص ٢٧ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٧ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٧ - ٢٨ .

البلاغـة ، وشأوا بعيدا في تخير الألفاظ لتوضع في الموضع المناسب لتؤدى المقصـود ، وتبلغ الهدف والغاية ، في التفهم ، حيث يقول : ((إن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات ، هو وضع كل نوع من الألفـاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به ، الذى إذا أبـدل مكانه غيره جاء منه ، إما تبدل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام ، وامـا ذهاب الرونق ، الذى يكون معه سقوط البلاغـة ، ذلك أن في الكلام ألفاظا متقاربة في المعاني ، يحسب اكثر الناس أنها متساوية ، في إفادة بيـان مراد الخطاب ، كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر .... واستشهد في هـذه بقوله تعالى :

(اعملـوا آل داوود شكـرا)[1] .

واذا أردت أن تتبين حقيقة الفرق بينهما ، اعتبرت كل واحد منهما بضده ، وذلك أن ضد الحمد الذم ، وضد الشكر الكفران ، وقد يكون الحمـد علـى المحبوب والمكروه ، ولا يكون الشكر إلا على المحبـوب))[2] .

والشيخ (عبد القاهر) لا يخالف في هذه القضية ، بل يمكن القول أنـه استفاد من آراء (الخطابي) ، حيث يقول :

((ولا جهة لاستعمال هذه الخصال ، غير أن يؤتى المعنى من الجهـة التي هي أصح لتأديته ، ويختار له اللفظ الذى هو أخص به ، وأكشف عنـه ، وأتم له ، وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزيـة))[3] .

فكل من (الخطابي) و(عبد القاهر الجرجاني) ، لا يرى فضلا للفظة إلا إذا وضعت إلى جوار أختها ، واختيرت بدقة ، بحيث تؤدى المعنى المطلوب

---

(١) سورة سبأ من الآيـة ١٣ .
(٢) اعجاز القرآن للخطابي ص ٢٩ ، ٣٠ .
(٣) وهي حسن الدلالة وتمامها أو تبرجها في صورة أبهى وأزين .
(٤) دلائل الاعجاز ص ٨٧ .

وهذا لا يتأتى لكل انسان تمكن الاحاطة به لبشر ، وبهذا يرد أن على من قال بشرف اللفظ من حيث هو لفظ في حد ذاته ، يقول (عبد القاهر) :

((واذا كان هذا كذلك ، فينبغي أن ينظر الى الكلمة قبل دخولها في التأليف ، وقبل أن تصير الى الصورة التي بها يكون الكلم اخبارا وأمرا ونهيا ، واستخبارا وتعجبا ، وتؤدى في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل الى افادتها الا بضم كلمة الى كلمة ، وبناء لفظة على لفظة)) (١) .

وقد بين في آخر حديثه عن الألفاظ أن الاعجاز لا يقون على تخير الألفاظ المناسبة فقط ، يقول : ((ولم نقتصر فيما اعتمدناه من البلاغة لاعجاز القرآن على مفرد الألفاظ التى منها يتركب الكلام دون ما يتضمنه من ودائعه التي هي معانيه)) (٢) .

كما أخذ في بيان ووصف النظم وتعريفه : ((فالحاجة الى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنها لجام الألفاظ ، وزمام المعاني ، وبه تنتظم أجزاء الكلام ، ويلتئم بعضه ببعض ، فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان)) (٣) .

لقد ناصر كل فريق رأيا كما علمنا ، وهو يؤيد رأيه بحجج ،بعضهم بعد عن الصواب قليلا ، وآخرون حاموا حوله فمهدوا الطريق لمن أتى بعدهم ، كما أنهم بلا شك استفادوا ممن قبلهم ، ومن هؤلاء (ابن جني ت ٣٩٢ هـ) .

لا شك في أيادي البيض على البلاغة ، ولا بد من ذكر اسمه وتذكره ، وعند قراءة ما يثلج صدورنا في موضوع الاعجاز ، وذلك أن آثاره

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٨٧ .
(٢) بيان اعجاز القرآن للخطابي ص ٣٦ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٦ .

واضحة فيمن أتى بعده ، فقد أخذ (ابن جني) يثبت أهمية (المعنى) ، وأهميته للعرب كذلك في صفحات من كتابه ، يقول :

((ويدلك على تمكن المعنى في أنفسهم ، وتقدمه للفظ عندهم ، تقديمهم لحرف المعنى في أول الكلمة ، وذلك لقوة العناية به ، فقدموا دليله ليكون ذلك افادة لتمكنه عندهم ، وعلى ذلك تقدمت حروف المضارعة في أول الفعل ، اذ كن دلائل على الفاعلين من هم ، وما هم وكم عدتهم)) (١) .

وأقرب مثال ضربه (ابن جني) ليدل على أهمية المعنى للعربي : هو العناية التامة بحروف المضارعة عندما تأتي في أول الكلمة ، لأنها تدل على الفاعلين من هم ، وكم عددهم ، وما هم ؟ .

كما تعدى (ابن جني) ذلك الى أهمية المعنى في اعراب الجملة وأثبت أن هناك ارتباطا وثيقا بينهما ، يقول :

((هذا الموضع كثيرا ما يستهوى من يضعف نظره الى أن يقوده الى فساد الصنعة . وذلك كقولهم في تفسير قولنا : (أهلك والليل) ، معناه الحق أهلك قبل الليل ، فربما دعا ذلك من لا دربة الى أن يقول (أهلك والليل) فيجره ، وانما تقديره الحق الحق أهلك وسابق الليل ، وكذلك قولنا زيد قام : ربما ظن بعضهم أن زيدا هنا فاعل في الصنعة (٢) ، كما أنه فاعل في المعنى ، وكذلك تفسير معنى قولنا : سرني قيام هذا وقعود ذاك ، بأنه سرني أن قام هذا وان قعد ذاك ربما اعتقد في هذا وذاك فانهما في

---

(١) الخصائص ١/ ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

(٢) الصنعة : يقصد بها الاعراب .

موضع رفع لأنهما فاعلان في المعنى . ولا تستصغر هذا الموضع ، فإن العرب أيضا قد مرت به و شمت روائحه ، و راعته . و ذلك أن الأصمعي أنشد في جملة أراجيزه شعرا من مشطور السريع طويلا ممدودا مقيدا التزم الشاعر فيه أن جعل قوافيه كلها في موضع جر الا بيتا واحداً من الشعر (١) :

يستمسكون من حذار الألقاء بتلعات كجذوع الصيصاء
ردى ردى وِرْد قطاة صماء كدرية أعجبها برد الماء (٢)

تطرد قوافيها كلها على الجر الا بيتا واحدا و هو قوله :

((كأنها و قد رآها الرواء))

و الذى سوغ ذاك - على ما التزمه في جميع القوافي - ما كنا على سمته من القول . و ذلك أنه لما كان معناه : كأنها في وقت رؤية الرواء تصور معنى الجر من هذا الموضع ، فجاز أن يخلط هذا البيت بسائر الأبيات و كأنه لذلك لم يخالف)) .(٣)

---

(١) نسب هذا الشعر في اللسان الى غيلان الربعي . و معنى البيت ((يعنى بالتلعات هنا سكانات السفن ، و قوله من حذار الإلقاء أراد من خشية أن يقعوا في البحر فيهلكوا ، و قوله كجذوع الصيصاء أى أن قلوع هذه السفينة طويلة حتى كأنها جذوع الصيصاء و هو ضرب من التمر نخله طوال ، و امرأة تلعاء بينة التلع ، / اللسان مادة (تلع) ٨ / ٣٥ .

(٢) يخاطب السفينة فيقول لها : ارجعي حتى تصلي المرفأ كما ترد قطاة صماء وصمها ضيق في أذنيها . الشعر من أرجوزه مطولة لغيلان الربعى أنظر ٢ / ٢٥٠ الخصائص .

(٣) الخصائص ١ / ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

و ما لحظ على إعراب زيد في قولنا : زيد قام من أن زيدا وإن كان فاعلا في المعنى ، إلا أنه يبقى على إعرابه مبتدأ ، و هذا معناه أن هناك فرقا ما بين تقدير الإعراب و تفسير المعنى ، يقول ((فإن أمكنك أن يكون تقدير الإعراب على سمت تفسير المعنى ، فهو مالا غاية وراءه ، وإن كان تقدير الإعراب مخالفا لتفسير المعنى ، تقبلت تفسير المعنى على ما هو عليه ، و صححت طريق تقدير الإعراب حتى لا يشذ شيء منها عليك)).[1]

يريد أن يقول أن هناك فرقا بين الإعراب و بين المعنى في الجملة فإذا قدرت على حسب معنى الجملة ، أو معنى الكلمة في الجملة ، فهذا مالا يقصده ، اما إذا أعرب الكلمة مستقلة عن معناها في الجملة ، فإن المعنى يظل كما هو ، و الذى يتعدل الاعراب .

ثم مثل له بأمثلة : ((إياك أن تسترسل فتفسد ما تؤثر اصلاحه ، ألا تراك تفسر نحو قولهم : ضربت زيدا سوطا ، أن معناه ضربت زيدا ضربة بسوط ، و هو لا شك كذلك ، ولكن طريق إعرابه أنه على حذف المضاف اى ضربته ضربة سوط ، ثم حذفت الضربة على عبرة حذف المضاف ولو ذهبت تتأول ضربته سوطا على أن تقدير إعرابه : ضربة بسوط كما أن معناه كذلك للزمك أن تقدر أنك حذفت الباء ، كما تحذف حرف الجر في قوله : أمرتك الخير ، و استغفر الله ذنبا ، فتحتاج إلى اعتذار من حذف حرف الجر و قد غنيت عن ذلك كله بقولك : إنه على حذف المضاف ، اى ضربة سوط ، و معناه ضربة بسوط ، فهذا لعمرى معناه .

فأما طريق إعرابه و تقديره فحذف المضاف)).[2]

ولقد عرض (الشيخ عبد القاهر) هذا المثال نفسه (ضربته سوطا) و شرحه بمثل ما قال فيه (ابن جنى) تقريبا . حيث يقول :

((و ينظر إلى هذا المكان قولهم (ضربته سوطا) ، لأنهم عبروا عن الضربة التي هي واقعة بالسوط باسمه ، و جعلوا أثر السوط سوطا ، و يعلم

---

(١) الخصائص ١ / ٢٨٣ ، ٢٨٤

(٢) المصدر نفسه ١ / ٢٨٤ .

على ذلك أن تفسيرهم له بقولهم ان المعنى ضربته ضربة بسوط بيان لما كان عليه الكلام في أصله ، وأن ذلك قد نسى ونسخ ، وجعل كأن لم يكن فاعرفه)) .(١)

ولقد شرح (الشيخ عبد القاهر) هذه المعاني وطبقها على عدد كبير من الأمثلة ، حيث يقول :

((وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه .

فينظر في الخبر الى الوجوه التي تراها في قولك : زيد منطلق وزيد ينطلق ، وينطلق زيد ، ومنطلق زيد ، وزيد المنطلق ، والمنطلق زيد ، وزيد هو المنطلق ، وزيد هو منطلق .

وفي الشرط والجزاء الى الوجوه التي تراها في قولك : إن تخرج أخرج وإن خرجت خرجت ، وإن تخرج فأنا خارج ، وأنا خارج إن خرجت وأنا إن خرجت خارج .

وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك جائني زيد مسرعا وجائني يسرع وجائني وهو مسرع أو هو يسرع وجاءني قد أسرع وجاءني وقد أسرع .

فيعرف لكل من ذلك موضعه ، ويجيء به حيث ينبغي له .

وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك في خاص معناه ، نحو أن يجيء بما في نفي الحال ، وبلا إذا أراد نفي الإستقبال ، وبإن فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون وماذا فيما علم أنه كائن .

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣٢٤ .

و ينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع (الواو) من موضع الفاء و موضع الفاء من موضع (ثم) و موضع (أو) من موضع (أم) و موضع (لكن) من موضع (بل) .

و يتصرف في التعريف والتنكير و التقديم و التأخير في الكلام كله ، و في الحذف و التكرار ، و الإضمار و الإظهار ، فيضع كلا من ذلك مكانه و يستعمل على الصحة و على ما ينبغي له .

و هذا هو السبيل ، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا و خطؤه إن كان خطأ إلى النظم ، و يدخل تحت هذا الاسم إلا و هو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضع ووضعه في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه ، و استعمل في غير ما ينبغي له ، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية و فضل فيه الا وأنت تجد مرجع تلك الصحة و ذلك الفساد و تلك المزية ، و ذلك الفضل إلى معاني النحو و أحكامه ، ووجدته يدخل في أصل من أصوله ، و يتصل بباب من أبوابه)) .(١)

أى أن (عبد القاهر) يرى أن النحو ليس هو حركات توضع على أواخر الكلمات ، و إنما الفرق في المعاني الطارئة على العبارات التي يحدثها ذلك الوضع و النظم الدقيق ، و لذلك فليست العمدة في معرفة قواعد النحو وحدها ، ولكن فيما تؤدى إليه هذه القواعد و الأصول ، وكأن تلك الأمثلة انما هي توسع فيما أورد (ابن جنى) من شرح على قوله (زيد قام) .

و لقد أشرقت شمس البلاغة العربية بظهور (الباقلاني) في القرن الثالث الهجرى (ت ٤٠٣ هـ) . و ذلك بما قدمه من آراء تدل على سداد

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١١٧ ، ١١٨ .

في الرأى و رسوخ في العلـــم ، فجمع كل ما سبق من آراء و اهتم بكل لفظة فيه ، وبكل رأى ، و أضاف إليه ووسع حتى أنه يمكنني القول بأنه من أهـم من كتب في الإعجاز القرآني ، و في البلاغة العربية إلى عهـــــده ، وأن مؤلفاتـه من أهم المراجع التي اعتمد عليها (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) في وضع نظريته و تأليف كتبه ، و اذا نسب الفضل لكتب الباقلاني ، فلـــم أكن متناسية ما كتبه العلماء الأوائل أمثال (سيبويه) ، و أستاذه (الخليـــل) ولم أنسى فضل (ابن جنى) و (الخطابي) ، و (الرماني) ، ولكـن شاء الله أن اطلعت على نسخة منقولة عن مخطوطة (للباقلاني) (هداية المسترشدين) .[1]

ذلك أنه أخذ يرد على ما يراه غير صائب في إثبات الإعجاز ، ردا مدعما بالأدلة المنطقيه ، حيث يقول : ((ولم نقل نحن أن البلاغة مقصـــورة على تجنيس المقاطع و تشاكل الفواصل ، بل قلنا : إن هذا من البلاغـــة إذا تلاءمت الألفاظ ذوات الفواصل ، و شرفت المعاني ، و حسنت وسلمـــت من التكرار و الاختلاف و كانت مع ذلك واردة على حسن نظم و تأليف)) .[2]

فلم ير أن الإعجـــاز و البلاغة تكمن في أواخر المقاطع من تشاكل فـــي الفواصل ، و تناسب فيما بينها ، بل هذا يعتبر جزءا من البلاغة ، لأنـــه شرط في البلاغة بالإضافة إلى ذلك تلاؤم الألفاظ ، و شرف المعانـــي و كانت مع ذلك مؤلفة في أحسن نظوم التأليف .

(و الشيخ عبد القاهر) لم يبعد في الدلائل عن هذا المعـــنى ، و إن اختلف الأسلوب ، عندما قال :

((لوعمد عامد إلى ألفاظ فجمعها من غير أن يراعي فيها معنى ، و يؤلف منها كلاما ، لم تر عاقلا يعتد السهولة فيها فضيلة ، لأن الألفاظ لا تراد

---

(١) عن نسخة نقلها الدكتور عبده أحمد هليل ، عن مخطوطة بمكتبـــة الأزهر . في رسالة له مخطوطة في مكتبة كلية اللغة العربيـــة بالجامعة الأزهرية رقم (٢١) عام ٣٤٢ هـ .

لأنفسها . وإنما تراد لتجعل أدلة على المعاني فإذا عدمت الذى لـه تراد أو اختل أمرها فيه لم يعتد بالأوصاف التي تكون في أنفسها عليهـا ، وكانت السهولة وغير السهولة فيها واحداً ، ومن ها هنا رأيت العلمـاء يذمون من يحمله تطلب السجع والتجنيس على أن يضم لهما المعنى ، ويدخل الخلل عليه من أجلها ، وعلى أن يتعسف في الاستعارة بسببها ، ويركب الوعورة ، ويسلك المسالك المجهولة)) .(١)

أى أنه لا يمكن أن يجار على المعنى أو على الاستعارة طلبا للكـلام المسجوع ، لأن الكلام بذلك لا يكتسب فضيلة يعتد بها .

وكذلك من عمد إلى ألفاظ فجمعها من غير نظام يتبعه ، لا يكون لكلامه مزية لسهولة تلك الألفاظ .

ولقد استشهد لذلك بأدلة ، يقول : ((كالذى صنع أبو تمام في قوله : (٢)

سيف الأمام الذى سمت هيبتـه
لما تخرم أهل الأرض مخترمـا

قرت بقران عين الدين وانشـترت
بالأشترين عيون الشرك فاصطلما

وقوله :

ذهبت بمذهبه السماحة والتـوت فيه الظنون أمذهب أم مذهـب (٣)

ويصنعه المتكلفون في الأسجاع ، وذلك أنه لا يتصور أن يجب بهمـا ، ومن حيث هما فضل ، ويقع بهما مع الخلو من المعنى اعتداد . وإذا

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ وفي أسرار البلاغة ص ٤ ، ٥ .
(٢) الشتر : هو انقلاب في جفن العين / انظر اللسان مادة شتر ٤/ ٣٩٣
الاصطلام : الاستئصال واصطلم القوم أبيدوا. اللسان ١٢ / ٣٤٠ ،
الأشترين : مالك النخعى وابنه ابراهيم النخعي والبيتان في معجـم الشواهد العربية للبحترى وهو من البسيط . ص ٣٣٧ .
(٣) البيت من الكامل . انظر معجم شواهد العربية ص ٤٩ .

نظرت الى تجنيس أبي تمام : أمذهب أم مذهب : فاستضعفته ، والى تجنيس القائل :

((حتى نجا من خوفه وما نجا)) .[1]

وقول المحدث :[2]

ناظراه فيما جنى ناظراه أودعاني أمت بما أودعاني

فاستحسنته ، لم تشك بحال أن ذلك لم يكن لأمر يرجع الى اللفظ ، ولكن لأنك رأيت الفائدة ضعفت في الأول ، وقويت في الثاني ، وذلك أنك رأيت أبا تمام لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفا مكررة لا تجد لها فائدة ان وجدت الا متكلفة متبحلة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة ، وقد أعاها ، ويوهمك أنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها ، ولهذه النكتة كان التجنيس وخصوصا المستوفى منه المتفق في الصورة من حلي الشعر ومذكورا في أقسام البديع))[3] .

ولقد أخذ (الباقلاني) يعقب على ما روى عن (مسيلمة الكذاب) وفيه يقول : ((فان قال قائل : فيجب لأجل هذا ، أى لأجل أن فواصل القرآن المتناسبة من أسباب بلاغته - أن تقولوا : ان كلام مسيلمة أية معجزة لتشاكل مقاطعه وفواصله))[4] .

ثم ذكر (الباقلاني) بعض ما روى عن (مسيلمة) ، يفرق بينه وبين القرآن ، يقول :

((ولم نقل نحن أن البلاغة مقصورة على تجانس المقاطع وتشاغل الفواصل بل قلنا ان هذا من البلاغة اذا تلاءمت الألفاظ ذوات الفواصل ، وشرفت

---

(١) منسوب لراجز .

(٢) هو أبو الفتح البستي أو شمسويه . وقيل هو لطاهر البصرى . تخرم : التخرم والانخرام : التشقق . انظر اللسان مادة خرم ١٢/١٧٠ . قران : اسم واد قرب الطائف ، وقران قرية قرب اليمامة وقيل : قران بين مكة والمدينة انظر معجم البلدان ٤/٣١٨ .

(٣) دلائل الاعجاز ص ٤٥٦ - ٤٥٧ . (٤) مخطوطة هداية المسترشدين .

المعاني ، وحسنت وسلمت من التكرار والاختلاف ، فكانت مع ذلك واردة على حسن نظم وتأليف)) .(١)

(فالباقلاني) يرد على من قال بأن البلاغة في الفواصل ، وعلى من تساءل عن شأنها ، حيث نفي أن تكون البلاغة مقصورة على تشاكل أواخر العبارات ، أو في نهاية الآيات ، وذلك ما فعله (عبد القاهر) بعد ئذ في الدلائل ، حيث قدم لهذا الموضوع بحديثه عن الإعجاز القرآني وعن التحدى كيف وقع ، وحدد بم تكون المحاجة ، إلى أن قال : ((ولا يجوز أن يكون هذا الوصف في تركيب الحركات والسكنات حتى كأنهم تحدوا الى أن يأتوا بكلام تكون كلماته على تواليها في زنة كلمات القرآن ، وحتى كأن الذى بان به القرآن من الوصف في سبيل بينونة بحور الشعر بعضها من بعض ، لأنه يخرج إلى ما تعاطاه (مسيلمة) من الحماقة في :

((إنا أعطيناك الجماهر ، فصل لربك وجاهر ، والطاحنات طحنا))

وكذلك الحكم إن زعم زاعم أن الوصف الذى تحدوا إليه هو أن يأتوا بكلام يجعلون له مقاطع وفواصل كالذى تراه في القرآن لأنه أيضا ليس بأكثر من التعويل على مراعاة وزن ، وإنما الفواصل في الآى كالقوافي في الشعر ، وقد علمنا اقتدارهم على القوافي كيف هو ، فلو لم يكن التحدى إلا الى فصول من الكلام يكون لها أواخر أشباه القوافي لم يعوزهم ذلك ، ولم يتعذر عليهم)) .(٢)

ويبدو أن (عبد القاهر الجرجاني) قد أشار بذلك الى ماكتبه (أبو العلاء المعرى) في كتابه (الفصول والغايات) وذلك حين قال : ((وقد خُيل إلى بعضهم - إن كانت الحكاية صحيحة - شيء من هذا حتى وضع على ما زعموا فصول الكلام أواخرها كأواخر الآى مثل يعلمون ويؤمنون وأشباه ذلك . ولا يجوز أن يكون الإعجاز بأن لم يلتق في حروفه

---

(١) مخطوطة هداية المسترشدين .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ .

ما يثقل على اللسان))[1] .

وكما اتفق العالمان الجليلان (الشيخ عبد القاهر) ، و (الباقلاني) على أن السجع أو انهاء أواخر الجمل بفواصل متوازنة ليساير الاعجاز ، اتفقا أيضا عن أن بلاغة القرآن الكريم لا يكمن فقط في ألفاظه وفي بلاغتها ، وانما في ضم هذه الألفاظ بكل الى قرينة له ، لكن (الشيخ عبد القاهر) قد كان محدد الأفكار ، لم يرسل بالفكرة مائجة تحتمل أشياء ومعاني غير واضحة . .

وسوف نرى كيف وصف (الباقلاني) كلمات القرآن الكريم بصفات متعددة حين قال : ((قد قلنا من قبل أنه لا ينبغي أن يقال : أن الاعجاز في نظمه وبلاغته جميعا ، ويجب على هذا الجواب أن تجعل بلاغته في ألفاظه ، أو زائدا على نفس اللفظة التي يستعملها أهل اللغة في سائر أقسام كلامهم . بل تقول انها ضم لفظة الى قرينة لها ومناسبة لمخرجها ، لا تنبوان في النفس والسمع ، فان اللفظة اذا قرنت الى مثلها في الشرف والجزالة ، وكانت مناسبة وقريبة المخرج من مخرجها كان لها بالضم والاجتماع ، ما لا يكون لكل واحدة منها اذا أفردت عن نظير لها ، وقرنت بغير شكلها ، وهذا أيضا معلوم ومحسوس من حال الألفاظ الشريفة اذا ضم بعضها الى بعض))[2] لا ينظر الى اللفظة فقط بل من حيث ضمها الى قرينتها المناسبة لها في الشرف والجزالة ومخارج الحروف ، وليست من حيث هي لفظة مفردة مستقلة بذاتها ، وقد علق بهذا المعنى (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) ، عند ما شرح خصائص

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٥٨ .

(٢) مخطوطة هداية المسترشدين .

ومزايا بعض الآى ، اذ يقول : ((أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك إعجابا روعة ، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقا [1] باللفظ من حيث هو صوت مسموع ، وحروف تتوالى في النطق ؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟

فقد اتضح اذن اتضاحا لا يدع مجالا للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها [2] في ملاءمة معنى اللفظة ، لمعنى التي تليها ، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ)) [3].

كما يقول عن نمط نظم القرآن الكريم ، بأنه عبارة عن ((ضم لفظة الى أخرى اذا ضمت اليها كانت لفق المعنى وطبقه ، غير زائدة عليه ولا ناقصة عنه ، وموصلة الى العلم بالمقصود ، وبالكلام في أحسن معرض وأحلاه في القلوب والأسماع ولو بدلت الكلمة بغيرها ، أبدلها ذلك الموقع في النفوس والأسماع)) [4].

وهنا نجد (الشيخ عبد القاهر) مقتنعا بهذه الفكرة تماما ، فهو يقول :

((وكذلك قولهم : لفظ ليس فيه فضل عن معناه : محال أن يكون المراد به اللفظ لأنه ليس ها هنا اسم أو فعل أو حرف يزيد على معناه

---

(١) علق بالشيء علقا وعلقة : نشب فيه . وفي الحديث : فعلقت الأعراب به أي نشبوا وتعلقوا . انظر اللسان ، مادة (علق) ١٠/ ٢٦١ .

(٢) أي البلاغة وعدمها .

(٣) دلائل الاعجاز ص ٨٩ - ٩٠ .

(٤) المصدر نفسه .

أو ينقص عنه ، كيف وليس بالذرع وضعت الألفاظ على المعاني ، وإن اعتبرنا المعاني المستفادة من الجمل ، فكذلك ، وذلك أنه ليس ها هنا جملة من مبتدأ وخبر أو فعل وفاعل يحصل بها الإثبات أو النفي أتم ، أو أنقص مما يحصل بأخرى ، وانما فضل اللفظ عن المعنى أن تريد الدلالة بمعنى على معنى فتدخل في أثناء ذلك شيئا لا حاجة بالمعنى المدلول عليه اليه وكذلك السبيل في السبك والطابع ، وأشباههما ، لا يحتمل شيء من ذلك أن يكون المراد به اللفظ من حيث هو لفظ)) .(١)

(والشيخ عبد القاهر) يصيب المحز ويطبق المفصل حين يرد على كل من ردد فكرة أن الألفاظ في حد ذاتها تؤدي المعنى ، غير زائدة عليه وغير خارجة عنه ولا ناقصة عن تأدية المعنى وحجته أن ليس هناك اسم أو فعل أو حرف يزيد على معناه أو ينقص في تأدية المطلوب .

وما طبق على اللفظ يطبق على المعاني التي لا تكون ولا تحصل فائدة بها ، إلا إذا كانت جملة ، فسواء كانت الجملة من فعل وفاعل أو مبتدأ أو خبر ، أتت لإثبات أو نفي ، تكون حالها في الجملة أدل على المقصود من أخرى .

ويتحرز (الشيخ عبد القاهر) في رده ، فيحدد ما أطلقه غيره فيقول : إلا إذا أريد بالزيادة وجود ألفاظ زائدة عن المعنى المطلوب فتكون بمثابة الحشو الذي لا طائل تحته .

ولقد لاحظنا من خلال شرح ما قصده (الشيخ عبد القاهر) أن (الباقلاني) ، وإن لم يحدد بالضبط وبدقة اسم (النظم) أو (معاني النحو) ، بل ذكر ما ينتج من تغير للمعنى إذا تغير مكان اللفظ وذلك حين يقول : ((ولو أبدلت الكلمة بغيرها أبدلها ذلك الموقع في النفوس والأسماع)) . وهذا رأى الخطابي أيضا .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٠٩ ، ٤١٠ .

و هذا هو لب قضية النظم ، التي لم يسفر نقابها إلا (الشيخ عبد القاهر) فانبلج فجر البلاغة العربية يدل بنفسه و يضيء ليل البيان العربي .

و لقد عرض (الشيخ عبد القاهر) رأى (الباقلاني) . ولكل من رأى رأيه دون أن يذكر اسمه يقول : ((حين قالوا نطلب المزيه ظنوا أن موضعها اللفظ بناء على أن النظم نظم الألفاظ ، و أنه يلحقها دون المعاني و حين ظنوا أن موضعها ذلك و اعتقدوه ، و قفوا على اللفظ ، و جعلوا لا يرمون بأوهامهم إلى شيء سواه ، إلا أنهم على ذلك لم يستطيعوا أن ينطقوا في تصحيح هذا الذى ظنوه بحرف بل لم يتكلموا بشيء إلا كان نقضا و إبطالا ، لأن يكون اللفظ من حيث هو لفظ موضعا للمزية ، وألا رأيتهم قد اعترفوا من حيث لم يدروا ، بأن ليس للمزية التي طلبوها موضع و مكان تكون فيه إلا معاني النحو و أحكامه و ذلك أنهم قالوا : إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات و إنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة ، فقولهم بالضم لا يصح أن يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة من غير اتصال يكون بين معنيهما لأنه لو جاز أن يكون لمجرد ضم اللفظ إلى اللفظ تأثير في الفصاحة لكان ينبغي إذا قيل (ضحك خرج) أن يحدث من ضم (خرج) إلى (ضحك) فصاحة ، و إذا بطل ذلك لم يبق إلا أن يكون المعنى في ضم الكلمة إلى الكلمة ، توخى معنى من معاني النحو فيما بينهما ، و قولهم : على طريقة مخصوصة يوجب ذلك أيضا ، و ذلك أنه لا يكون للطريقة - إذا أنت أردت مجرد اللفظ - معنى)) .(١)

ثم يؤكد (الباقلاني) وجهة نظره في النظم ، من أنه ضم كلمة إلى أخرى دون أن يبين تلك الحدود ، و ذاك الموقع الذى يجب أن تقع فيه ، سوى أن يكون ذلك بطريقة يظهر أثرها في النفس ، كما أنه يخرج فصاحة الكلمة في حد ذاتها ، و جزالتها من الموضوع حيث يقول : ((ليست جزالة اللفظة و شرفها فقط ، ولكن ضمها إلى أخرى ، و إفرادها على وجه يكون أوقع

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

في النفس لو أوردت على غيره ، وضمت إلى سوى ما قرنت به)) .[1]

ويقول (الشيخ عبد القاهر) : ((وهل تجد أحدا يقول : هذه اللفظة فصيحة ، الا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها ، وفضل مؤانستها أخواتها)) .[2]

كما يقول في موضع آخر عبارات يؤيد فيها (الباقلاني) ، والقائل مثله ، وأن البلاغة ليست في شرف اللفظ وجزالته .

وكذلك يرد على (الباقلانسي) في رأيه الذى يقضي بأن النظم عبارة عن ضم لفظة إلى أخرى ، دون تحديد ما هية هذا الضم ((فمن أقرب ذلك أنك تراهم يقولون إذا هم تكلموا في مزية كلام على كلام أن ذلك يكون بجزالة اللفظ ، وإذا تكلموا في زيادة نظم على نظم ، أن ذلك يكون لوقوعه على طريقة مخصوصة وعلى وجه دون وجه ، ثم لا تجدهم يفسرون الجزالة بشيء ، ويقولون في المراد بالطريقة والوجه ما يخلى منه السامع بطائل)) .[3]

ولقد تجلت في شخص (الشيخ عبد القاهر) روح الأمانة العلمية ، وتواضع العالم ، وخلقه العظيم ، حيث نراه بعد أن أتم مناقشة تلك الآراء ، يقول : ((وهذا سبيل كل ما قالوه ، إذا أنت تأملته ، تراهم في الجميع قد دفعوا إلى جعل المزية في معاني النحو وأحكامه ، من حيث لم يشعروا ، ذلك لأنه أمر ضرورى لا يمكن الخروج منه)) .[4]

ولقد بين كذلك (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) أنه لا يصح أن يكون الإعجاز في القرآن الكريم من جهة مفردات ألفاظه الدائرة فس سائر ضروب الكلام وعلى لسان العربي المعجم والفصيح المفوه، ولأنهم معتادون للنطق بكل

---

(١) مخطوطة هداية المسترشدين .
(٢) دلائل الاعجاز ص ٨٨ .
(٣) المصدر نفسه ص ٤٠٨ .
(٤) المصدر نفسه ص ٣٦٢ .

كلمة منه علـــى وجه الإيراد بها في النظم و النثر ، و قطعا هذا الوجه باطل ، و هذا نص عبارة (الشيخ عبد القاهر) .

((ثم إن هذا الوصف ينبغي أن يكون قد تجدد بالقرآن ، و أمـــرا لم يوجد في غيره ، و لم يعرف قبل نزوله . و إذا كان كذلك فقد وجـب أن يعلم أنه لا يجوز أن يكون في الكلم المفردة ، لأن تقدير كونه فيهـــا يؤدى إلى المحال ، و هو أن تكون الألفاظ المفردة التي هي أوضـــاع اللغة قد حدث في حذاقة حروفها و أصدائها أوصاف لم تكن لتكون تلـــك الأوصاف فيها قبل نزول القرآن ، و تكون قد اختصت في أنفسها بهيئـــات و صفات يسمعها السامعون عليها إذا كانت متلوة في القرآن ، لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن ، و لا يجوز أن تكون في معاني الكلـــم المفردة التي هي لها بوضع اللغة ، لأنه يؤدى إلى أن يكون قد تجـــدد في معنى الحمد و الرب ، و معنى العالمين ، و الملك واليوم و الديـــن و هكذا وصف لم يكن قبل نزول القرآن)) .[1]

و جهة كون القرآن معجزا يقول فيها (الباقلاني) :

((قلنا نحن الجمهور من الناس إن جهة كونه معجزا ، ما هو عليـــه من بديع النظم و عجيب التأليف والرصف المشتمل على المعاني الصحيحـــة المعلومة الخارجة عن جميع أوزان كلامهم و نظومهم ، التي جرت عادتهـــم بالتكلم بها ، و ما هو عليه - مع ذلك - من البلاغة و شرف اللفظ)) .[2]

فإذا رأى (الباقلاني) أن جهة الإعجاز ، إنما تكون في بديع النظـــم ، و ما يحتويه من المعاني الصحيحة التي تفوق كل أوزان الكلام و النظوم الـــتى اعتادهـــا المتكلـــم ، فإن (الشيخ عبد القاهـــر) ، قال بذلـــك

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٥٧ .

(٢) مخطوطة هداية المسترشدين .

((واعلم أنهم لم يبلغوا في إنكار هذا المذهب ، ما بلغوه إلا لأن الخطأ فيه عظيم ، وأنه يفضي بصاحبه إلى أن ينكر الإعجاز و يبطل التحدى من حيث لا يشعر، وذلك أنـــه ان كان العمل على ما يذهبون إليه من أن لا يجـب فضل و مزية ، إلا من جانب المعنى ، وحتى يكون قد قال حكمة أو أدبـــا ، واستخرج معنى غريبا أو شبيها نادرا ، فقد وجب اطراح جميع ما قالـــه الناس في الفصاحة و البلاغة ، وفي شأن النظم و التأليف ، وبطل أن يجب بالنظم فضل و أن تدخله المزية ، وأن تتفاوت فيه المنازل ، وإذا بطـــل ذلك فقد بطل أن يكون في الكلام معجز ، وصار الأمر إلى ما يقوله اليهـود و من قال بمثل مقالهم في هذا الباب . و دخل في مثل تلك الجهـــالات، و نعوذ بالله من العمى بعد الإبصار)).[1]

اى أنه لا يكون فضل و مزية من جانب المعنى من حيث كونه يحتوى علـــى حكمة أو أدب ، و هذا معناه أن لا بد من نبذ كل ما قاله الناس عن جهـــة الكلام البليغ و المعجز ، وأن لا يجعلوا جل اهتمامهم متجها إلى المعنى .

ولقد حدد (الباقلاني) جهة اعجاز القرآن : في أنها فضل بلاغتـه على سائر البلاغات ، و نظمه على وجه ، و طريقة تخالف سائر النظوم والأوزان يقول : ((و قد بينا من قبل ، أنه لا يجوز أن يكون جهة الإعجاز فيـــه مفردات ألفاظه الدائرة في سائر ضروب الكلام ، وعلى لسان العـي المعجـم و الفصيح المفوه لأنهم معتادون للنطق بكل كلمة منه على وجه لا يـــراد لها في النظم و النثر ، فبطل هذا الوجه)).[2]

وبهذا اقنعنا (الباقلاني) بأنه لا يمكن أن يكـــون الإعجـــاز

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٥٧ .

(٢) مخطوطة هداية المسترشدين .

بالألفاظ مفردة ، و بالألفاظ معروفة متداولة بين العي المعجم و الفصيح البليغ ، ذلك آن العرب قد اعتادت النطق بالكلمات العربية الصحيحة و بالنطق الصحيح .

ولقد طرق (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) هذا الموضوع أيضا ولكنه عرض للاقناع بحجة أخرى ، فيكون قد التقى مع (الباقلاني) في الفكرة الأساسية ، وهي نفي الاعجاز عن الألفاظ المفردة من حيث هي ألفاظ : ((فلو كانت الكلمة اذا حسنت من حيث هي لفظ ، وإذا استحقت المزية و الشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها ، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم ، لما اختلفت بها الحال ولكانت اما أن تحسن أبدا أولا تحسن أبدا ، ولم تر قولا يضطرب على قائله حتى لا يدرى كيف يعبر ، وكيف يورد و يصدر كهذا القول ، بل أن أردت الحق فانه من جنس الشيء يجرى به الرجل لسانه ، و يطلقه فاذا فتش نفسه وجدها تعلم بطلانه ، و تنطوى على خلافه ذاك لأنه مما لا يقوم بالحقيقة في اعتقاد ، ولا يكون له صورة في فؤاد)) .(١)

اذ لو كانت المزية في ذات الألفاظ منفردة لكان بعض الكلمات ، اما أن يحسن أبدا واما أن لا يحسن أبدا .

وكذلك لو كانت المزية في ذات اللفظة منفردة ، لم يكن هناك قول أفضل من قول .

كما يقول (الباقلاني) في موضع آخر ((وكل لفظة بليغة قد سبقوا الى التكلم بها ، والتواضع على معناها ، وهم المبتدئون بالنظر بها ، دون الأخذ عنهم ، فكيف يقال : ان بلاغة اللفظ خارقة للعادة ، فيجب على هذا أن يكون النظم البديع الخارج عن أوزان كلام العرب هو الخارق للعادة)) .(٢)

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٩٢ .

(٢) هداية المسترشدين .

أى أن من الدلالة على أن الإعجاز لا يكون في الألفاظ مفردة ،أن العرب قد كانوا قبل البعثة يتكلمون بهذه الألفاظ و يستعملونها في عباراتهم ومختلف معانيهم ، فلو كانت المزية في ذاتها لكان كلام الأوائل معجزا ، ولم يقل أحد بذلك .

و شبيه بهذا ما رد به (الشيخ عبد القاهر) على شبهه (بلاغة اللفظ) و أنه سر الإعجاز ، و ان كان رده بعكس الطريقة التي سلكها (الباقلاني) ، إلا أن المعنى في النهاية واحد ، إذ رأى (الشيخ عبد القاهر) أنه لو كانت البلاغة في اللفظة مفردة لكانت تلك الألفاظ اكتسبت من البلاغة و من المعاني،مالم تتصف به قبل نزول القرآن .

ولقد استفاد (الشيخ عبد القاهر) من هذا المعنى فقال : ((وهل تشك اذا فكرت في قوله : (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعدا للقوم الظالمين) .[1]

فتجلى لك منها الإعجاز ، وبهرك الذى ترى و تسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة ، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف ، إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية ، والثالثة بالرابعة ؟ و هكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها ، وأن الفضل تناتج ما بينها ، وحصل من مجموعها .

وإن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه ، وهي مكانها من الآية .

قل (ابلعى) واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها ، وإلى ما بعدها ، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها ، وكيف بالشك في ذلك ، ومعلوم

---

(١) سورة هود آيه ٤٤ .

أن مبدأ العظمة في أن نودي الأرض ، ثم أمرت ، ثم في أن كان النداء بيا دون أى نحو يا أيتها الأرض ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال ابلعى الماء ، ثم أن اتبع نداء الأرض ، وأمرها بما هو شأنها ، نداء السماء ، وأمرها ، كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل وغيض الماء ، فجعل الفعل على صيغة (فعل) الدالة على أنه لم يفض إلا بأمر آمر ، وقدرة قادر ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى : (وقضى الأمر) ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو استوت على الجودى ، ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ثم مقابلة قيل في الخاتمة بقيل في الفاتحة .

أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع ، وحروف تتوالى في النطق ؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب ؟

فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا ، أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرّدة ، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة ، وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ)) .[1]

ويستمر (الباقلاني) في الرد على كل دعوى بعدد من الحجج والبراهين وقضية اللفظ من الأمور التي شغلته ، فشغل بها صفحات (هداية المسترشدين) حيث يقول : ((وإذا كان ذلك ، علم أيضا أن (النبي صلى الله عليه وسلم)لم يتحد بالبلاغة ، عارية من النظم البليغ البديع ، الذى هو نظم القرآن ، فلو أنهم أتوا بالألفاظ البليغة الفصيحة على غير وزن القرآن ، لم يكونوا معارضين ، كما لا يعارض الشاعر في شعره ،

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٨٩ ، ٩٠ .

بأن يأتي بالألفاظ البليغة من الوزن و صحة الروى و القافية ، فهذا يدل على أنه متحد بالبلاغة على نظم مخصوص هو نظم القرآن ، و ذلك هو الذى تعذر و امتنع عليهم)) .(١)

ثم إن بلاغة (اللفظ) و حدها ليس بالمعول عليه في شأن البلاغة ، يقول (الشيخ عبد القاهر) : ((و هل تجد أحدا يقول : هذه اللفظة فصيحة إلا و هو يعتبر مكانها من النظم ، و حسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها ، و فضل مؤانستها لأخواتها ؟)) (٢) . و هو ما عبر عنه (الباقلاني) بقوله : ((و هذا قدح داخل على من قال : أن البلاغة هي جزالة اللفظ و حسنه فقط ؟ فإذا قيل إنه استعمال لفظ لمعنى مكان لفظ يسد في الكشف عن المعنى سده ، الا أنه لا يحل في الشرف ، في النفوس و الأسماع محل البليغ ، أو أنه : ضم لفظة إلى لفظه أخرى يكون بالضم بلاغة رائعة ، فإنه لا يدخل عليه هذا الكلام)) .(٣)

و هكذا فقد كانت حجج (الباقلاني) قوية ، و براهينه واضحة بأن لا مزية في اللفظ المفرد ، و هو يقول بعد ذلك ، و لا ترجع المزية للمعنى : ((و لا يجوز أن يكون الإعجاز في معانيه الصحيحة التى اشتمل عليها القرآن ، لأن المعاني يشترك في إيرادها و التعبير عنها العجم و الفصح ، و كل ذى عقل سليم)) .(٤)

كما أن المزية لا ترجع للنظم المجرد إذ لا يجوز أن يكون جهة الإعجاز فيه كونه منظوما مؤلفا فقط ، لأن النظم و التأليف جار على الألسنة قبل البعثة ، و ذلك عادة لهم ، فيجب لأجل ذلك أن تكون

---

(١) هداية المسترشدين .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٨٨ .

(٣) هداية المسترشدين .

(٤) المصدر نفسه .

جهة الإعجاز فيه تظهر على وجه يفارق جميع الأوزان و النظوم ، و قدر ما فيه من البلاغة الرائقة المؤثرة في النفوس و الأسماع)) . (١)

ولقد استطاع (الباقلاني) أن يحوم قريبا من نظرية النظم لدى (عبد القاهر) ذلك أنه يرى أن لا مزية في اللفظ المفرد ، ولا في المعاني ، بل في النظم ، ولكنه لم يحدد الطريقة التي فاق بها الأوزان و سما على جميع النظوم ، لذلك قال : (الشيخ عبد القاهر) :

((فمن أقرب ذلك أنك تراهم يقولون إذا هم تكلموا في مزية كلام على كلام أن ذلك يكون بجزالة اللفظ ، و إذا تكلموا في زيادة نظم على نظم ، أن ذلك يكون لوقوعه على طريقة مخصوصة و على وجه دون وجه ثم لا تجدهم يفسرون الجزالة بشيء ، و يقولون في المراد بالطريقة والوجه ما يحلى منه السامع بطائل)) . (٢)

أى أن أحدا من البلغاء الأوائل لم يستطع أن يتوصل إلى حقيقة الإعجاز التي وصل إليها (الشيخ عبد القاهر) .

ولا تفتأ أصداء فكرة (الباقلاني) عن إعجاز القرآن تتردد في كتابه (إعجاز القرآن) ، و الموضوع هو نفسه - إعجاز القرآن - و الشبه التي حامت حوله ، وكيف يكون الإعجاز ، وبما يثبت عجزهم . يقول : ((و من الوجوه التي يقع بها إعجاز القرآن ، و هو الذى بيناه من الإعجاز الواقع في النظم و التأليف ، و الرصف ، فقد ذكرنا من هذا الوجه وجوها منها : أنا قلنا : إنه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم ، و مباين لأساليب خطابهم .

و من ادعى ذلك لم يكن له بد من أن يصحح أنه ليس من قبيل الشعر ولا السجع ، ولا الكلام الموزون غير المقفى ، لأن قوما من كفار قريش ادّعوا أنه شعر ، و من الملحدة من يزعم أن فيه شعرا ،

---

(١) هداية المسترشدين .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٤٠٨ .

و من أهل الملـــة من يقول : إنه كلام مسجع إلا أنه أفصح مما قد اعتادوه من أسجاعهم .

و منهم من يدعي أنه كلام مـــوزون ، فلا يخرج بذلك عن أصنـــاف ما يتعارفونه من الخطاب)). (١)

كما بين عجز العرب و الناس عامة عن مجاراة القرآن الكريم لأن ((الوجوه التي نقول : إن إعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها ، فليس مما يقدر البشـر على التصنـــع له ، و التوصل إليه بحال ، و بين ما قلناه أن كثيرا مـــن المحدثين قد تصنـــع لأبواب الصنعة حتى حشا جميع شعره منها ، و اجتهد أن لا يفوته بيت ، إلا و هو يطؤه من الصنعة ، كما صنع أبو تمام في لاميته(٢) و من الأدباء من عاب عليه هذه الأبيات و نحوها على ما قد تكلف فيها مـــن البديع ، و تعمل من الصنعة ، فقال : قد أذهب ماء هذا الشعـــر و رونقه ، و فائدته اشتغالا بطلب التطبيق وسائر ما جمع فيه)). (٣)

((و انما يبين ذلك ، بأن تتصور هذه الكلمة مضمنة بين أضعاف كلام كثيـــر ، أو خطاب طويل ، فتراها ما بينها تدل على نفسها ، و تعلـــو على ما قرن بها لعلو جنسها ، فاذا ضمت الى أخواتها ، و جاءت فـــي ذواتها أرتك القلائد منظومة ، كما كانت تريك عند تأمل الأفراد منهـــا اليواقيت منثورة ، و الجواهر مبثوثة)). (٤)

أى أن الباقلاني ينفى استطاعة العرب مجاراة القرآن الكريم ،لأن الوجوه التي يكون بها الإعجاز ، لا يقدر أحد من البشر أن يحاكيها أو يصل إليها ، و ضرب مثلا أن من المحدثين من قد تهيأ لأن يحشو جميع شعره من الوجـوه التي يكون بها الكلام بليغا ، أمثال (أبي تمام) فذهب ما قد جمـــع

---

(١) اعجاز القرآن للباقلاني ص ٥٠ .

(٢) والتي يقول فيها :

متي أنت عن ذهليه الحي ذاهل
وصدرك منها مدة الدهر آهـل

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٤) هداية المسترشدين (مخطوطة)

له أبو تمام من شعر ذى رونق وبهاء،إلى كلام متصنع فيه كلفة يمجها السمع .

و يواصل الحديث عن اعجاز القرآن الكريم قائلا : ((إن قال قائل : بينوا لنا ما الذى وقع التحدى إليه ؟ أهو الحروف المنظومة ، أو الكلام القائم بالذات ؟ أوغير ذلك ؟.

قيل : الذى تحداهم به ، أن يأتوا بمثل الحروف التي هي نظم القرآن ، منظومة كنظمها ، متتابعة كتتابعها ، مطّردة كاطرادها ولم يتحدهم إلى أن يأتوا بمثل الكلام القديم الذى لا مثل له .

و إن كان كذلك فالتحدى واقع إلى أن يأتوا بمثل الحروف المنظومة التي هي عبارة عن كلام الله تعالى في نظمها و تأليفها و هي حكاية لكلامه ، ودلالات عليه و أمارات له ، على أن يكونوا مستأنفين لذلك لا حاكين بما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم)).[1] .

(فالباقلاني) يرى أن التحدى واقع في الحروف المنظومة ، وليس المقصود بالحروف المنظومة ترتيب الحروف في الكلمة المفردة ، وإنما يقصد بالحروف المنظومة التي يتكون منها كلام ، لأنه بصدد استبعاد أن يتحدوا بكلام الله القديم .

ولقد كانت هذه الفكرة هي أساس قول (الشيخ عبد القاهر) :

((و مما يجب احكامه بعقب هذا الفصل الفرق بين قولنا حروف منظومة ، و كلم منظومة .

و ذلك أن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط ، وليس نظمها بمقتضى عن معنى [2] ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل ، اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه ، فلو أن واضع اللغة

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢٦٠ .

(٢) أى بلازم لمعنى .

كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدى إلى فساد)) .(١)

أى أن (الشيخ عبد القاهر) لا يرى أن الاعجاز واقع في نظم الحروف ، أى ذات الكلمة ، لأن نظمها لا يحتاج إلى ترتيب في الفكر ، وضرب لذلك مثلا : بأن قائلا لو قال (ربض) وهو يريد ضرب ، لما كان في ذلك فساد ، وإنما المعول عليه نظم الكلمة في الكلام : ((واما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس ، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وليس هو النظم الذى معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق)) .(٢)

ويضع (الباقلاني) حدا ،لما يعرف به (اعجاز القرآن) : فمنه ما يمكن الوقوع عليه والتعمل له ، ويدرك بالتعلم ، فما كان كذلك فلا سبيل الى معرفة إعجاز القرآن به .

((أما مالا سبيل إليه بالتعلم والتعمل من البلاغات ، فذلك هو الذى يدل على إعجازه)) .(٣)

ويمضي (الباقلاني) مبيناً وجه الإعجاز ودليله في القرآن حيث قدم صورا عالية من البيان العربي فيقول : ((ولم أقصد استيفاء ذلك ، وإنما ضربت لك المثل بما ذكرت لتستدل ، وأشرت اليك بما أشرت لتتأمل)) .(٤)

ثم عرف وجه إعجاز القرآن بـ ((أنه بديع النظم عجيب التأليف ، متناه في البلاغة الى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه)) .(٥)

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٩٣ (٢) المصدر نفسه ص ٩٣
(٣) اعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٧٥
(٤) المصدر نفسه ص ٢٤٥ .
(٥) المصدر نفسه ص ٣٥ .

ثم أخذ يناقش بعض الآراء التي تعترض على بعض الآى من مثل قوله تعالى : (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم ، وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم)[1] ((فان قال قائل : فقد نجد في آيات من القرآن الكريم ما يكون نظمه بخلاف ما وصفت ، ولا تتميز الكلمات بوجه البراعة ، وانما تكون البراعة عندك منه في مقدار يزيد على الكلمات المفردة ، وحد يتجاوز حد الألفاظ المستفدة ، وان كان الأكثر على ما وصفته به ؟ قيل له : نحن نعلم أن قوله تعالى (حرمت عليكم ..) ليس من قبيل الذى يمكن اظهار البراعة فيه ، وابانة الفصاحة عليه ، وذلك يجرى عندنا مجرى ما يحتاج الى ذكره من الأسماء والألقاب ، فلا يمكن اظهار البلاغة فيه ، فطلبها في نحو هذا ضرب من الجهالة ، بل الذى يعتبر في نحو ذلك تنزيل الخطاب ، وظهور الحكمة في الترتيب والمعنى ، وذلك حاصل في هذه الآية ان تأملت))[2] .

(فالباقلاني) يجعل الآية الكريمة مما حسن لفظه وخلا من البراعة ومن النظم ، وهو ليس أكثر من مفردات مضمومة واحدة منها الى جنب الأخرى ، وانما الحكمة في الترتيب والمعنى . وهذا ان كان ينطبق على بعض أقوال البلغاء والحكماء ، فلا أجده ينطبق على هذه الآية الكريمة ، وليست مثالا يمكن تطبيقه عليها . لأن نظمه أعجب من معناه ، ومزيد عظمتها تكمن في كلماتها البسيطة ، وخلوها من التشبيهات والاستعارات ، فما أجمل من أنه جعل الفعل الماضي مبينا للمجهول دلالة عظمته سبحانه .

---

(١) سورة النساء ، آية ٢٣ .

(٢) اعجاز القرآن ص ٢٠٧ .

ولقد طرق (الشيخ عبد القاهر) موضوع ما حسن لفظه و معناه دون نظمه ، ولكنه لم يستشهد بالآيات الكريمة في هذا المقام ، لأن القرآن الكريم أسمى و أجل من ذلك بل إن جماله في لفظه و معناه و نظمه و فوق ذلك مما لا يعلمه إلا رب العالمين ، فعجائبه لا تنقطع ، و فوائده لا تنضب موارد ها .

يقول (الشيخ عبد القاهر) : ((و اعلم أن من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته أن لم يحتج واضعه إلى فكر و روية حتى انتظم ، بل ترى سبيله في ضم بعضه الى بعض سبيل من عمد الى لآل خرطها في سلك لا ينبغي أكثر من أن يمنعها التفرق ، و كمن نضد أشياء بعضها على بعض ، لا يريد في نضده ذلك أن تجيء له منه هيئة أو صورة ، بل ليس ألا أن تكون مجموعة في رأى العين .

و ذلك إذا كان معناك معنى لا يحتاج أن تصنع فيه شيئا غير أن تعطف لفظا على مثله ، كقول (الجاحظ) : ((جنبك الله الشبهه وعصمك من الحيرة ، و جعل بينك و بين المعرفة نسبا ، و بين الصدق سببا ، و حبب إليك التثبت ، و زين في عينك الإنصاف و أذاقك حلاوة التقوى ، و أشعر قلبك عز الحق ، و أودع صدرك برد اليقين ، و طرد عنك ذل اليأس ، و عرفك ما في الباطل من الذلة ، و ما في الجهل من القلة)) (١) ، (٢) ((فما كان من هذا و شبهه لم يجب به فضل إذا وجب إلا بمعناه ، أو بمتون ألفاظه دون نظمه و تأليفه ، ذلك لأنه لا فضيلة حتى ترى في الأمر مصنعا ، و حتى تجد إلى التخير سبيلا ، و حتى تكون قد استدركت صوابا)) . (٣)

ولقداتخذ (الباقلاني) من (البحترى) مثالا في توضيحه جوانب البلاغة لديه ((و ذلك لأن الكتاب يفضلونه على أهل دهره ، و يقدمونه على من في عصره ، و منهم من يدعي له الإعجاز غلوا و يزعم أنه يناغي

---

(٢) دلائل الاعجاز ص ١٢٩ .
(١) انظر مقدمة الحيوان .
(٣) المصدر نفسه ص ١٣٠ .

النجم في قوله علوا ، والملحدة تستظهر بشعره ، وتتكثر بقوله وترى كلامه من شبهاتهم ، وعباراتهم مضافة إلى ما عندهم من ترهاتهم فبينا قدر درجته وموضع رتبته ، وحد كلامه)).(١)

ولكن هناك من يعيب طريقة (الباقلاني) هذه ، يقول الدكتور (عبد الرؤوف مخلوف) : ((وغاية (الباقلاني) من هذه التقدمة أن يهون من شأن الشعر ، وأن يهون من أمر البحتري وأن يشكك في مذهب الذين يفضلونه على كثير من معاصريه ، وكأنه حين يسلم له ذلك أو اكثره ، يكون قد أقام دليلا آخر على فنية القرآن وإعجازه ، وفوته سائر كلامهم ، بعد ما أقام دليلا من ضعف شعر امرئ القيس)).(٢)

ويسترسل الدكتور (عبد الرؤوف مخلوف) في عيب (الباقلاني) على التمثيل بشعر (البحتري) ، وعلى طريقته في إثبات اعجاز القرآن الكريم ، ويأخذ عليه هذا الأسلوب قائلا : ((ولكن (الباقلاني) كان ينقد شعر (البحتري) على نحو ما نقد شعر (امرئ القيس) ، وغايته أن يثبت أن جميع شعر العرب نازل في الفنية عن القرآن ، ومن هنا فيما يرى - يثبت له أن القرآن فائق في صنعته لجميع كلامهم ، فيكون معجزا)).(٣)

وكأني بالدكتور (عبد الرؤوف) يريد أن يقول : إن طريقة (الباقلاني)في توضيح فكرة النظم لم تكن موفقة في إثبات اعجاز القرآن ، ذلك لأن الدكتور (عبد الرؤوف) أخذ يناقض آراء (الباقلاني) فكرة فكره ، وهو في صفحات تالية من كتابه يصرح عن رأيه هذا قائلا ((وعندي أن ذهاب (الباقلاني) في النقد هذا المذهب لا يدل على بصر بطرائق العرب في استعمالها ، وإنما يدل على تحامل منه على

---

(١) اعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٤٥ .

(٢) الباقلاني وكتابه اعجاز القرآن / دراسة تحليلية ونقدية تأليف الدكتور عبد الرؤوف مخلوف ص ٤١٤ .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٤١ .

البحترى و محاولة لثلبه و عيبه بالباطل)). [١]

فكيف تكون هذه وجهة نظر (الباقلاني) ، و هو الذى يقول عن (البحترى) : ((حتى أن أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحترى مع جودة نظمه و حسن وصفه في الخروج من النسيب إلى المديح ، وأطبقوا على أنه لا يحسنه ، ولا يتأتى فيه بشيء ، وإنما اتفق له في مواضع معدودة،خروج يرتضى و تنقل يستحسن)). [٢]

ثم إنه عندما تحدث عن الأدباء و الشعراء إذا أجاد أحدهم في معنى قصر في الآخر ، يقول : ((إن عجيب نظمه ، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف اليه من الوجوه ، التي يتصرف فيها من ذكر قصص ، و مواعظ و احتجاج .... - و متى تأملت شعر الشاعر البليغ ، رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها ، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى ، فإذا جاء الى غيره قصر عنه ، ووقف دونه ، وبان الاختلاف على شعره ولذلك ضرب المثل بالذين سميتهم ، لأنه لا خلاف في تقدمهم في صنعه الشعر ، ولا شك في تبريزهم في مذهب النظم ، فاذا كان الاختلال يتأتى في شعرهم ،لاختلاف ما يتصرفون فيه ، ستغنينا عن ذكر من هو دونهم)). [٣]

و في قول (الدكتور عبد الرؤوف مخلوف) حيف على (الباقلاني) و على قصده من تحليل قصيدة لأحد كبار الشعراء ، لأن (الباقلاني) قصد أن الكلام البشرى مهما سما نجد فيه الخلل ، ولا يمكن أن يكون القرآن كذلك ، ولقد ترددت معنى هذه الفكرة في أصداء كتابه المذكور مرات منها ((هيهات أن يكون المطموع فيه كالمأيوس منه ، و أن يكون الليل كالنهار و الباطل كالحق ، و كلام رب العالمين ككلام البشر)). [٤]

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٢٤ .

(٢) اعجاز القرآن ص ٣٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٤٥ .

وكيف يرى الدكتور عبد الرؤوف مخلوف أن طريقة نقد (الباقلاني) هذه لا تدل على بصر بطرائق العرب في استعمالها ، و (الباقلاني) وسّع مفهوم النظم ، وردّه إلى جملة أمور عرض لها في كتابه ، جعلها على رأس الموضوعات البلاغية المختلفة التي تستعملها العرب في شعرها ونثرها ، كما رأى في القرآن وحدة ، ونظاما يجعلان منه عملا أدبيا رائعا متكاملا ، ذلك هو اتساق في جملته وائتلاف السورة منه ائتلافا يبين فيه ترابط أجزائها وأن اعجازه لا يتوقف ولا يبين من الصور الجزيئة التي نراها في استعارة أو تشبيه أو كناية ، فإن ذلك مما يمكن أن نراه في كثير من شعر العرب ونثرها ، وأما الذى يستأثر به القرآن ، ولا نجد نظيره في غيره من الكلام ، فهو التحام أجزائه على تباين الموضوعات التي تعرض لها بحيث تطلع كل سورة علينا ، وهي كل متكامل متناسق فيه من جميع صفات العمل الأدبي الرائع يقول : ((أنا لا نجعل الإعجاز متعلقا بهذه الوجوه الخاصة ، ووقفا عليها ، ومضافا اليها ، وإن صح أن تكون هذه الوجوه مؤثرة في الجملة ، آخذة بحظها من الحسن والبهجة ، متى وقعت في الكلام على غير وجه التكلف المستبشع والتعمل المستشنع)) .[1]

كما يقول في موضع آخر : ((وقد تأملنا نظم القرآن ، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم ، وبديع التأليف والرصف ، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا)) .[2]

ويدل على وضوح رأى (الباقلاني) وأنه على غير ما فهمه مخلوف ما ذكره الدكتور (عبد القادر حسين) ((أن بلاغة القرآن الكريم لا تقع بوجه من الوجوه العشرة التي ذكرها لأقسام البلاغة ، فالتشبيه عنده ليس معجزا ولا التجنيس ولا المطابقة ، وإنما الإعجاز للألفاظ ، والنظم والتأليف)) .[3]
أى أن التشبيه عنده ليس معجزا وحده .

---

(١) اعجاز القرآن ص ١١٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٧ .
(٣) أثر النحاة في البحث البلاغي ص ٣٦٤ .

و في نهاية القرن الرابع أطل امام المعتزله ، قاضي قضاة الدولة البويهية بايران (القاضي عبد الجبار ت ٤١٥ هـ) . له مصنفات عدة ، منها (المغنى في أبواب التوحيد والعدل) تحدث فيه عن اعجاز القرآن الكريم ، و ما يتصل بالقرآن ، و (نبؤة الرسول صلى الله عليه و سلم) .

و له نظرات ثاقبة في تفسير اعجاز القرآن ، و الوجه الذى يقع به ، مستفيدا بآراء من سبقوه ، و مبينا ما غلطوا فيه ، و ما اشتبه عليهم منه ، ولقد استهل فصول بيان اعجاز القرآن بما قاله (الجبائي) [1] ، وهو (أستاذ عبد الجبار) يقول :

((قال شيخنا : انما يكون الكلام فصيحا لجزالة لفظه ، و حسن معناه ، و لا بد من اعتبار الأمرين ، لأنه لو كان جزل اللفظ ، ركيك المعنى ، لم يعد فصيحا ، فاذن يجب أن يكون جامعا لهذين الأمرين و ليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص)) .[2]

فقد حصر فصاحة الكلام في جزالة لفظه و حسن معناه ، وهذان العنصران لا بد من توفرهما معا في الكلام الفصيح حتى يكون كذلك ، واذا اختل شيء منهما بطل وصفه بالفصاحة .

ثم نفي أن يكون (النظم المخصوص) هو المعول عليه في فصاحة الكلام أو هو الأساس في الاعجاز .

غير أن النظم الذى قصده (الجبائي) ليس هو ما نعرفه من توخي معاني النحو بين الكلمات ، و قد بين ذلك في الجملة التالية ، حتى لا يدع

---

(١) الجبائي : هو أبو هاشم عبد السلام بن محمد الجبائي . قدم مدينة السلام سنة أربع عشرة و ثلثمائة ، وكان ذكيا حسن الفهم ثاقب الفطنة صانعا للكلام ، مقتدرا عليه قيما به و توفى سنة احدى و عشرين و ثلثمائة انظر الفهرست لابن النديم ص ٢٤٧ .

(٢) المغنى في أبواب التوحيد والعدل ١٩٧/١٦ ظ ١ . ١٣٨٠ هـ - =

مجالا للشك في قصده : ((لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر والنظم ، مختلف ، إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة ، وقد يكون النظم وتقع المزية في الفصاحة ، فالمعتبر ما ذكرناه ، لأنه الذى يتبين في كل نظم ، وكل طريقة ، وإنما يختص النظم بأن يقع لبعض الفصحاء - يسبق إليه ، ثم يساويه فيه غيره من الفصحاء ، فيساويه في ذلك النظم ، ومن يفضل عليه بفضله في ذلك النظم .

فإن قيل : أليس الفصيح المقدم ، قد يكون مفحما ، لا يمكنه الشعر كما يمكن من هو دونه ، فهلا ظهرت المزيه بطريقة النظم)) .(١)

ومع هذا يمكن القول أن (الجبائي) لم يرد أن يهون من شأن النحو الذى به ترتبط الجمل والكلمات ، وبه تتم المعاني نظرا لأن ذلك اللفظ (نظم) متعارف عليه لدى بيئة الأشاعرة ، ولا اعتقد أن (الجبائي) زهد في النحو ، فليس في كلامه موضع لذلك ، وكذلك لم يأت به بأى شكل يثبته .

وعلى كل حال فإن (الشيخ عبد القاهر) ، قد تناول موضوع النظم وأخذ يناقشه جملة جملة ، فقال :

((إنهم قالوا : إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة : فقولهم (بالضم) لا يصح أن يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة من غير اتصال يكون بين معنييهما ، لأنه لو جاز أن يكون لمجرد ضم اللفظ إلى اللفظ تأثير في الفصاحة لكان ينبغي إذا قيل (ضحك خرج) أن يحدث من ضم (خرج) إلى (ضحك) فصاحة ، وإذا بطل ذلك لم يبق إلا أن يكون المعنى في ضم الكلمة إلى الكلمة توخى معنى من معاني النحو فيما بينهما . وقولهم : على طريقة مخصوصة : يوجب ذلك أيضا. وذلك أنه لا يكون للطريقة - إذا أنت أردت مجرد اللفظ - معنى ، وهذا سبيل كل ما قالوه إذا أنت تأملته

= مطبعة دار الكتب تقويم نصه / امين الخولي .

(١) المغنى في ابواب التوحيد ص ١٩٧

تراهم ، في الجميع قد دفعوا إلى جعل المزيه في معاني النحو و أحكامه من حيث لم يشعروا ، ذلك لأنه أمر ضرورى لا يمكن الخروج منه)) . (١)

(فالشيخ عبد القاهر) يرى في قول القائل بالضم على طريقة مخصوصة كلا مافيه نقص ، فلم يأت تعريفهم للنظم بالمفهوم الصحيح الكامل. إذ لا بد أن يراعى في الضم قواعد النحو ، ولا بد كذلك من مراعاة المعنى بين الألفاظ .

فإن كان قولهم ، لابد من ضم الألفاظ بعضها إلى بعض هو مؤشرات نظرية النظم ، إلا أن أهم عناصرها و هو توخي معاني النحو و أحكامه لم يكن بارزا في تلك الأقوال ، بل لم تكن تلك الصورة واضحة أمامهم .

ولقد اعترض على فكرة (الشيخ عبد القاهر) هذه الدكتور (أحمد عبد السيد الصاوى) حيث يقول :

((و من هذا (فعبد القاهر) يحمل على (عبد الجبار) ، و يرى أنه دفع إلى معرفة النظم ، و معاني النحو دون أن يشعر به ، و هو كلام يدعو إلى التساؤل ، فهل يضع اى مبتكر نظرية دون أن يشعر بها ؟ و أخيرا لنا أن نقول : كان يكفي (عبد القاهر) ان يعترف بفضل عبد الجبار في وضعه نظريته ، و يرجع الفضل في تحليلها و تفسيرها تحليلا دقيقا لنفسه ، بحيث أصبح فعلا صاحبها الذى صورها و طبق عليها ، و استخرج على أساسها (علم المعاني) المعروف بين علوم العربية)) . (٢)

و إني أجد (الدكتور الصاوى) محقا فيما ذكره عن (الشيخ عبد القاهر) ذلك أن (عبد الجبار) قد وضحت له علاقة اللفظ بالمعنى ، و دور النحو في تأدية المعنى المطلوب والذى يقتضيه المقام ، و ذلك يتضح في متابعة

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٢) النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني / دراسة مقارنة ص ٩٧ ، ط ٢ ١٩٨٢م .

أفكـار (عبد الجبـــار) .

و مع هذا فإن(عبد الجبار)لم يسر على منوال أستاذه (أبي هاشـــم الجبائي) فما علق به (الدكتور شوقي ضيف) من ((أن عبد الجبار إنمـا قصد في رد فكرة النظم (الباقلاني) وأضرابه من الأشعرية الذين كانـوا يذهبون مذهبه ، وكأنه هو والجبائي يقفان مع الرماني في محاولتـه بسط بلاغة الألفاظ ، والمعاني وتبيين وجوهها)) .(١)

و في الواقع أنه في تعليقه هذا لا يتفق مع ما قاله بعد قليل من أن ((عبد الجبار يودع بين أيدينا الآن مفاتيح النظم التي استمد(عبد القاهـر) من توقيعه عليها كتابه ((دلائل الاعجاز)) .(٢)

و الواقع أننا نجد في تعريف الفصاحة لدى (عبد الجبار) مؤشـرات إلى نظرية النظم حيث فسر الفصاحة بقوله :

((إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام ، وإنما تظهر في الكلام بالضـم على طريقة مخصوصة ، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة ، وقـد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواصفة التي تتناول الضم ، وقد تكـون بالإعراب الذى به مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع)) .(٣)

هذا هو عين تعريف (عبد القاهر) للنظم . حيث ذكـر (عبد الجبار) أن لا فصاحة ، ولا نظم في الكلام إلا إذا ضمت الكلمـات بعضها إلى بعض ، وشرط الضم أن يكون على طريقة معينة ، وحدد هـذه الطريقة بأنها عبارة عن معاني النحو .

و مع هذا فإنه لا بد لهذه الكلمات أن تكون ذات هيئة معينة ((لأنـه قد يكون لها عند الإنضمام صفة ، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها و موقعها))(٣).

---

(١) البلاغة تطور و تاريخ ص ١١٦ ط ٤ دار المعارف .
(٢) المرجع نفسه ص ١١٧ .
(٣) المغنى في أبواب التوحيد والعدل ص ١٩٩ .

ثم أخذ في بيان العنصر الثاني ، وهو حسن المعنى ، ذلك أنه يرى أهمية المعنى في علو شأن اللفظ ، ولكن ظهور المزية وبيان الفصاحة يتم به ولأجله ، يقول : ((إن المعاني وإن كان لابد منها فلا تظهر فيها المزية ، وإن كانت تظهر في الكلام لأجلها)) .(١)

يقول في هذا (الشيخ عبد القاهر) : ((واعلم أنهم لم يعيبوا تقديم الكلام بمعناه ، من حيث جهلوا أن المعنى إذا كان أدبا أو حكمة ، وكان غريبا نادرا ، فهو أشرف مما ليس كذلك ، بل عابوه من حيث كان من حكم من قضى في جنس من الأجناس بفضل أو نقص ، أن لا يعتبر في قضيته تلك . إلا الأوصاف التي تخص ذلك الجنس ، وترجع إلى حقيقته ، وأن لا ينظر فيها إلى جنس آخر ، وإن كان من الأول بسبيل ، أو متصلا به اتصال مالا ينفك منه)) .(٢)

ثم تحدث (القاضي عبد الجبار) عن شأن المفردات في الجملة ، وفصاحتها ((ولا يمتنع في اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت في معنى تكون أفصح منها إذا استعملت في غيره)) .(٣)

وهذا المعنى قد أخذه (الشيخ عبد القاهر) ، واستشهد له بعدة أبيات من الشعر ، بعد أن شرحه قائلا : ((ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك ، وتوحشك في موضع آخر ، كلفظ الأخدع في بيت الحماسة : (٤)

تلفت نحو الحي حتى وجدتني
وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

---

(١) المعنى في أبواب التوحيد والعدل ص ١٩٩ .
(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٥٥ . (٣) المغني ١٦/ ٢٠٠ .
(٤) البيت للصمه القشيري . وهو من الطويل . انظر معجم شواهد العربية ص ٢١٠ .

وبيت البحـــتري :

وإني وإن بلغتني شرف الغـنى
واعتقت من رق المطامع أخدعي [1]

فإن لها في هذين المكانين مالا يخفى من الحسن ، ثم إنك تتأملهـا في بيت أبي تمام :

يا دهر قوم من أخدعيك فقـد أضجعت هذه الأنام من خرقك

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ماوجدت هناك من الروح والخفة ، والإيناس والبهجة)) .[2]

ويشير (عبد الجبار) إلى دور النحو في تغيير معنى الجملة إذا تغير اعرابهـــا ، مما يؤدي إلى التفاوت في بلاغة الكلام ، يقول : ((ولا يمتنع في اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت في معنى أفصح منهـــا إذا استعملت في غيره وكذلك فيها إذا تغيرت حركاتها ، وكذلك القـــول في جملة من الكلام)) .[3]

وهو ما ترددت أصداؤه في ثنايا دلائل الاعجاز ، حيث استشهـــد لذلك بآي القرآن الكريم ، ليوضح فكرته والتي هي (نظرية النظـــم ، يقول : ((وهل تجد أحدا يقول : هذه اللفظة فصيحة إلا وهـــو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها ، وفضـل مؤانستها لأخواتها)) .[4]

وأخيرا أختتم آراء (عبد الجبار) برأيه في إعجاز القرآن ، يقول : ((واعلم أن التحدي ، وإن كان قد يصح بقدر من الفصاحة والبلاغة ، فمتى اختـص

---

(١) البيت من الطويل . انظر معجم شواهد العربية ص ٢٣٠ .
(٢) دلائل الاعجاز ص ٩٠ - ٩١ . والبيت من البسيط .
(٣) المغني ١٦ / ٢٠٠ .
(٤) دلائل الاعجاز ص ٨٨ .

ماله قدر عظيم في الفصاحة بطريقة من النظم خارجة عن العادة ، يكون وجه الإعجاز فيه أظهر و أبين ، و ظهور عجز الغير عنه أكشف ، فلما كان الأمر كذلك أجرى الله تعالى حال القرآن على مثله ليكون وجه الاعجاز فيه أبين ، فخصه الله تعالى بطريقة خارجة عن نظمهم و نثرهم ، و بقدر من الرتبة في الفصاحة خارج عن عادتهم ، فلذلك اشتبهت الحال فظن بعضهم أن وجه الإعجاز يرجع إلى النظم ، و بعضهم : أنه يرجع إلى قدر الفصاحة ، في أنها لو انفردت لكان معجزا مخالفا لمرتبته في طريقة النظم ، لأنها لو عريت عن الرتبة المخصوصة في الفصاحة لم يكن معجزا و ان كان ذلك مقويا لحاله و مؤكدا لأمره كما نعلم أن حسن المعنى يؤكد كون الكلام الفصيح معجزا ، و إن كان لو انفردت لم يختص لهذه الصفة فإن قال : أليس من يتمكن من الشعر يتبين ممن لا يتمكن منه ، و إن كان فصيحا في نثر الكلام فالمزية قد ظهرت بالنظم و إن انفرد)) .[1]

و يقول في موضع آخر : ((و لهذه الجملة جعلنا الطريقة الخارجة عن العادة في النظم مؤكدة لكونه معجزا ، إذا كان له رتبة عظيمة في الفصاحة)) .[2]

---

(١) المغني ١٦ / ٢٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ١٦ / ٢٢٥ .

المبحث الثالث

المناظرة بين متى بن يونس وأبي سعيد السيرافي

إن فكرة عبد القاهر في اعجاز القرآن ، و في الكلام البليغ ، تنهض على أساس فكرة النظم ، و معنى النظم عنده تعلق الكلم بعضها ببعض مرتبطة بواسطة معاني النحو ، و هذه الفكرة ليست مستحدثة ، بل لقد سبق بها (عبد القاهر) أى أنه لم يكن مخترعا لها ، ولا موجدها من العدم ، اذ وجدت شذرات هنا و هناك في بعض كتب من سبقوه ، فوسعها و بسط القول فيها ، و من تلك الآثار التي استفاد منها عبد القاهر ، ما ظهر من الصراع الذى أثاره امتزاج الثقافات ، و تعصب اليونان للغتهم و ثقافتهم ، و يظهر ذلك واضحا جليا في الصراع الذى نشب بين الحسن بن عبد الله المرزباني المعروف بالسيرافي،(١) و بين أبي بشر متى بن يونس . (٢)

---

(١) أبو سعيد السيرافي، هو أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان و أصله من فارس مولده بسيراف ، و فيها ابتدأ بطلب العلم و خرج عنها قبل العشرين و مضى إلى عمان ، و تفقه بها ثم عاد إلى سيراف ، كان فقيهاً على مذهب العلماء العراقيين . توفى في رجب لليلتين خلتا منه سنة ثمان و ستين و ثلثمائة في خلافة الطائع [انظر الفهرست لابن النديم ص ٩٣] ، كان مفتيها في جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبي حنيفة ، كما كان زاهدا ورعا لم يأخذ على الحكم أجراً ، له كتب كثيرة ، منها الوقف و الإبتداء، المدخل الى كتاب سيبويه، صنعه الشعر و البلاغة .

(٢) ابو بشر متى بن يونس (يونانى) لقائى من أهل دير قنّى أو دير القديس مرمارى على بعد سبعة عشر فرسخاً إلى الجنوب من بغداد ، حصل على ثقافته العلمية في المدرسة المشهورة لذلك الدير ، و إليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره ، و توفى ببغداد في التاسع عشر من رمضان سنة ٣٢٨ هـ . و من تلاميذه : أبو زكريا يحيى بن عدى المنطقي التكريتى كان نصرانيا يعقوبي النحلة ، و قرأ على أبي بشر ، توفى سنة ٣٦٣ هـ انظر الفهرست ص ٣٦٨ انظر تاريخ الأدب لكارول بروكلمان حـ ٤ / ١١٩، ١٢٠ .

وكان موضوع هذه المناظرة دفاع (أبي سعيد السيرافي) عن النحو العربي ، وانتصار (متى) للمنطق اليوناني .

وقد كان رأى (أبي سعيد) : أن مقياس الكلام هو معرفة الإعراب ، والوقوف على دقائقه ولطائفه ، ومعانيه ، ((لأن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المألوف والإعراب المعروف)) (١) .

هذا هو الميزان الذى به يعرف مقدار صحة الكلام من خطئه ، فهو انما يكون بمعرفة النحو وقوانينه ، وتطبيقها على الكلام ، وذات هذا المعنى قد (صاغه (عبد القاهر) بأسلوبه قائلاً :

((ذاك لأنهم لا يجدون بدا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه ، إذ كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذى يفتحها)) (٢) .

وهذا يعنى أن المعاني والألفاظ ذات أهمية بالغة في التعبير عن خوالج النفوس إلا أنها تبقى كالدرة في صدفها لا يفتحها ولا يستخرج كنزها الا النحو ، الذى يفتح أبواب المعاني المغلقة .

وإن كان المنطق الذى تباهى به (متى) وسائر اليونانيين ، يعتمد على العقل في استخلاص النتائج ومعرفة المعاني ، وبالتالي فإنهم يزهدون في النحو ومعرفة أحكامه ، لأنه لا حاجة بهم إلى تلك المعارف ، فإن (أبا سعيد) امتحن (متى) بإستخراج معاني (الواو) من ناحية منطق أرسطو ، فبهت متى ، وما كان منه إلا أن قال : ((هذا نحو ، والنحو لم أنظر فيه ، لأن لا حاجة بالمنطق إليه ، وبالنحوى حاجة شديدة إلى المنطق)) (٣) .

يقول (السيرافي) :

((أسألك عن حرف واحد ، وهو دائر في كلام العرب ومعانيه متميزة عند

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١ / ١٠٩ . دار احياء التراث العربي - بيروت .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٧٥ .

(٣) الامتاع والمؤانسة ١ / ١١٤ .

أهل العقل ، فاستخرج أنت معانيه من ناحية منطق ارسطاطاليس الذى تُـــدل به ، وتباهى بتفخيمه ، وهو الواو ، ما أحكامه ؟ وكيف مواقعه ؟ وهل هـــو على وجه واحد أو وجوه ؟ فبهت متى ، وقال ، هذا نحو ، والنحو لم أنظـــر فيه ، لأنه لا حاجة بالمنطق إليه ، وبالنحوى حاجة شديدة إلى المنطق ، لأن المنطق يبحث عن المعنى ، والنحو يبحث عن اللفظ ، فإذا مر المنطق باللفـظ فبالعرض ، وإن عثر النحوى بالمعنى فبالعرض)) .(١)

فقام (ابو سعيد) بالرد على تلك المغالطة ، فردها بحجج مقنعة بهـت منها (متى) فقال هذا نحو ، والمنطق ليس به حاجة إلى النحو .

(وعبد القاهر الجرجاني) أيضا يرد على (متى) ، وعلى كل من زهـد في النحو وجهل أو انكر أهميته يقول عن أهمية النحو :

((إنه المعيار الذى لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه ، والمقياس الذى لا يعرف صحيح من سقيم ، حتى يرجع اليه ، ولا ينكر ذلك الا من ينكـــر حسه ، وإلا من غالط في الحقائق نفسه ، وإذا كان الأمر كذلك فليت شعـــرى ، ما عذر من تهاون به ، وزهد فيه ، ولم يرأن يستقيه من مصبه ، ويأخذه مـــن معدنه ، ورضى لنفسه بالنقص ، والكمال لها معرض ، وآثر الغبينة ، وهـــو يجد إلى الربح سبيلا)) .(٢)

وكذلك ممن أشاد بعلم النحو قبل (عبد القاهر الجرجانى) (ابن فـارس) حيث يقول : ((فأما الإعراب فبه تميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمـــين ، وذلك أن قائلا لو قال (ما أحسن زيد) غير معرب أو (ضرب عمر زيد) غـــير معرب - لم يوقف على مراده . فاذا قال : (ما أحسنَ زيدا) أو (مـــا أحسنُ زيدٍ) أو (ما أحسنَ زيدٌ) أبان بالإعراب عن المعنى الذى أراده .

وللعرب في ذلك ما ليس لغيرها : فهم يفرقون بالحركات وغيرهـــا بـــين المعاني)) .(٣)

---

(١) الامتاع والمؤانسة ١/١٠٩ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٧٥ .

(٣) الصاحبي / لابن الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ص ٣٠٩ ، ت / السيد أحمد صقر / مطبعة عيسى البابي .

فقول (ابن فارس) هذا فيه وضحت أهمية علم النحو للتفريق بين معاني العبارات وبين المعاني . كما وضح أن النحو علم انفردت بأهميته اللغة العربية .

ولقد شغلت قضية اللفظ والمعنى (متى بن يونس) مثل غيره ، ورد عليه (أبوسعيد) ، كما فعل جل العلماء . يقول (متى) :

((والمعنى أشرف من اللفظ ، واللفظ أوضع من المعنى .

فقال (أبو سعيد) : أخطأت ، لأن الكلام والنطق واللفة واللفظ والافصاح والاعراب والابانة والحديث والاخبار والاستخبار والعرض والتمني والنهي والحض والدعاء والنداء والطلب كلها من واد واحد بالمشاكلة والمماثلة ، ألا ترى أن رجلا لو قال : نطق زيد بالحق ولكن ما تكلم بالحق ، وتكلم بالفحش ولكن ما قال الفحش ، وأعرب عن نفسه ولكن ما أفصح ، وأبان ولكن ما أوضح ، أو فاه بحاجته ولكن ما لفظ ، أو أخبر ولكن ما أنبأ لكان في جميع هذا محرفا ومناقضا وواضعا للكلام في غير حقه ، ومستعملا اللفظ على غير شهادة من عقله وعقل غيره)) (٢) .

فعند ما فضل (متى) المعنى ، وجعل له خالص المزية على اللفظ استنكر ذلك (أبو سعيد السيرافي) ، ومثل له ببعض أمثلة خلص منها الى أنه مناقض وواضع للكلام في غير موضعه ، وأن سوء استعمال اللفظ أدى الى افساد المعنى أى أنه ينفي أن تلصق المزية بالمعنى دون اللفظ ، وهو المعنى الذى قال به (عبد القاهر الجرجاني) وردده في ثنايا كتابه الدلائل قائلا : ((واعلم أن الداء الدوى ، والذى أعي أمره في هذا الباب غلط من قدم الشعر بمعناه وأقل الاحتفال باللفظ ، وجعل لا يعطيه من المزية ان هو أعطى الا ما فضل عن المعنى يقول ما في اللفظ لولا المعنى ، وهل الكلام الا بمعناه ؟ فأنت تراه لا يقدم شعرا حتى يكون أودع حكمة وأدبا ، واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر)) (٢) .

ولقد تعددت طرق الطعن على أهمية علم النحو ومعرفة طرقه وسبله ، وتلك حجج الضعيف ، يقول (متى) في دفاعه الواهي عن نفسه وعن آرائه السقيمة في الموازنة بين النحو والمنطق :

((يكفيني من لغتكم هذه ، الاسم والفعل والحرف ، فاني اتبلغ القدر الى

---

(١) الامتاع والمؤانسة ١/ ١٤٤ . (٢) دلائل الاعجاز ص ٢٥٣ .

أغراض قد هذبتها لى يونان)) . (١)

حيث يرى أن النحو عبارة عن معرفة أقسام الكلمة ، وغير ذلك ليس مهما ، وهذا الرأى خطل واضح بين كما قال(أبو سعيد) :

((أخطأت ، لأنك في هذا الاسم والفعل والحرف ، فقير إلى وضعها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها ، وكذلك أنت محتاج بعد هذا الى حركات هذه الأسماء والأفعال والحروف)) (١) .

وكذلك يقول(الشيخ عبد القاهر)زاريا على كل من يرى علم النحو : ((ضربا من التكلف وبابا من التعسف ، وشيئا لا يستند إلى أصل ، ولا يعتمد فيه على عقل ، وأن ما زاد فيه على معرفة الرفع والنصب وما يتصل بذلك مما تجده في المبادئ ، فهو فضل لا يجدي نقعا ، ولا تحصل منه على فائدة)) . (٢)

وأهمية التقديم والتأخير في شأن بلاغة الكلام ليست أقل شأنا ، من أهمية قضايا النحو ، بل لكل منهما فضل كبير في الكلام البليغ ، يقول(أبو سعيد السيرافي) :

((معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته ، وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها ، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير ، وتوخى الصواب في ذلك وتجنب الخطأ من ذلك)) . (٣)

وكما هو الملاحظ على الجهد الشاق ، والبحث المضني الذى بذله (عبد القاهر)في جمع شتات أفكار وعناصر نظرية النظم ، نقدر مدى عبقرية هذا الامام الجليل الذى دقق النظر والبحث فيما بين السطور ، إذ يقول :

((وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك ، لأنك تقتفى في نظمها آثار المعاني ، وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس)) . (٤)

---

(١) الامتاع والمؤانسة ١ / ١١٥ .
(٢) دلائل الاعجاز ص ٥٦ .
(٣) الامتاع والمؤانسة ١ / ١٢١ .
(٤) دلائل الاعجاز ص ٩٣ .

وهذا العنصر الأساسي في نظرية النظم لدى (عبد القاهر)، قد طرقه (أبو سعيد السيرافي) في مناظرته مع (متّى)، إذ يقول :

((وإذا قال لك آخر : كن نحويا لغويا فصيحا ، فإنما يريد : افهم عن نفسك ما تقول)) (١) .

ويقصدون من ذلك أن على المتكلم أن يرتب المعنى في نفسه ثم يرتبه بعد ذلك في النطق .

ومن ثم لا بد لتمام آلة الكلام البليغ من أن يؤدى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ، ولا بد كذلك من أن يختار اللفظ المناسب للمعنى، ليؤدى المطلوب من المتكلم فيقول (أبو سعيد) في وصفه لهذا الكلام ((وقدر اللفظ على المعنى فلا يفضل عنه ، وقدر المعنى على اللفظ فلا ينقص منه ، هذا إذا كنت في تحقيق شئ على ما هو به)) .(٢)

وهو المعنى الذى ترددت معانيه لدى (الشيخ عبد القاهر) يقول : ((ولا جهة لاستعمال هذه الخصال : غير أن يؤتى المعنى من الجهة التي هى أصح لتأديته ، ويختار له اللفظ الذى هو أخص به ، وأكشف عنه ، وأتم له ، وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزيه)) .(٣)

وهناك تطبيقات نحوية على تلك النظرية ، وذلك عندما يذكر (ابو سعيد) بعض استعمالات الواو المختلفة ومنها ((أن تكون مقحمة ، نحو قول الله عز وجل : (فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه) (٤) أى ناديناه .

ومثله قول الشاعر: (فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى) ، والمعنى انتحى بنا)) (٥)

---

(١) الامتاع والمؤانسة ١ / ١٢٥ .
(٢) الامتاع والمؤانسة ١ / ١٢٥ .
(٣) دلائل الاعجاز ص ٨٧ .
(٤) سورة الصافات آية ١٠٣ .
(٥) الامتاع والمؤانسة ١ / ١١٨ .
وتمام البيت : بنا بطن خبت ذى حقاف عقنقل) من الطويل وهو لامرئ القيس . من شرح المعلقات السبع للزوزني ص ١٩ ط دار بيروت ، ١٣٨٩ هـ .

قال (السيرافى) : ((ومنها معنى الحال في قوله عز وجل (ويكلم الناس في المهد وكهلا) [1] أى يكلم الناس في حال كهولته)).[2]

كما فرق (السيرافى) بعد ذلك بين : (زيد أفضل الأخوة) (وزيد أفضل إخوته) وقال ان التعبير الأول صحيح والثاني غير صحيح .

وقضية اللفظ والمعنى من الأهمية بمكان ، حيث لا يغفلها أى باحث في موضوعات البلاغة ، ولا يمكن أن تذهب عن(السيرافى) قضية كهذه ، لأنه يدافع عن مبدأ النحاة ، وعن نظرتهم إلى بلاغة الكلام البليغ والمعجز ، يقول وقد عاب على(متّى) قوله :((إن النحوى إنما ينظر في اللفظ دون المعنى ،والمنطقي ينظر في المعنى لا في اللفظ)).

فهذا التقرير والنقد لآراء (متى) إنما يحمل في طياته اهتمامه بقضية اللفظ والمعنى ، كغيره من العلماء الذين ما فتئوا يزودون كتب البلاغة بمختلف الآراء مصحوبة بالشواهد والأمثلة ، قائلا :

((أما تعرف أن الكلام اسم واقع على أشياء قد ائتلفت بمراتب ، وتقول بالمثل ((مثال ذلك أن تقول هذا ثوب)) ، والثوب اسم يقع على أشياء بها صار ثوبا ، لأنه نسج بعد غزل ، فسداته لا تكفى دون لُحمته ، ولُحمته لا تكفي دون سداته ، ثم تأليفه كنسجه ، وبلاغته كقصارته ، ورقة سلكه كرقة لفظه وغلظ غزله ككثافة حروفه ، ومجموع هذا كله ثوب ، ولكن بعد تقدمه كل ما يحتاج إليه فيه)) .

وتبدو أهمية النحو في نظم الكلام البليغ الذى تفوق به العرب على سائر أصحاب اللغات واللهجات .

والجدير بالذكر أن بعض الباحثين المحدثين اعتبر ما جاء في هذه المناظرة اساسا لنظرية (النظم)عند (عبد القاهر) ومن هؤلاء الدكتور(إبراهيم سلامة)

---

(١) سورة آل عمران آيه ٤٦ .

(٢) الامتاع والمؤانسة ١ / ١١٨ .

الذى رأى تأثر (عبد القاهر) بالمنطق اليوناني لأن المنطق يخضع للعقل و (عبد القاهر) وإن كان يميل إلى الذوق وإلى الطبع في تحليل المعاني الأدبية إلا أنه أخضعها للعقل متأثراً بأرسطو ، يقول :

((وعبد القاهر وإن كان يستسيغ المعاني الادبية الا أنه كثيرا ما يخضعها للمعاني العقلية التي تأثر بها المناطقة ، كما تأثربهاالكثير غيره من النحاة)) (١)

فهذا الدكتور (إبراهيم سلامة) يدل بعد حديث طويل على أن (عبد القاهر) متأثر بتلك المناقشة أو الحوار العلمى بين (متى بن يونس)و(أبي سعيد السيرافى) فقد بين ذلك وأيده بأدلة ليس فيها كبير اقناع بل اهتم بأن المنطق أساسه العقل ، وطريقة (الشيخ عبد القاهر) مرجعها العقل فكان (العقل) إذاً هو نقطة التقائهما .

وهذا في الواقع دليل ليس كافيا للحكم على أدبه أمه ونتائج تفكير وبحث طويل . (٢)

وكذلك الدكتور(بدوى طبانه)الذى رأى أن (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) قد اعتمد في (نظرية النظم) على ما انتجه اليونانيون،كما استفاد من تلك المناظرة : يقول :

((والواقع أن هذه الفكرة لم يكن(عبد القاهر)مخترعا لها ، وإن كان هو الذى بسط فيها القول ، وأقام على أساسها فلسفة كتابه)) (٣) .

فلم يكن (عبد القاهر) مخترعا ومبتدعا (لنظرية النظم) ، فهذا صحيح ولكن الواقع أنه استفاد مما قدمه الأوائل مما ساعده على وضع أصول هذه النظرية واستخلاص نتائجها . ولكن الدكتور(بدوى طبانه)رأى أنه اعتمد على السابقين من جراء الصراع الذى نتج عن امتزاج الثقافات يقول :

---

(١) بلاغة أرسطو ص ٣٥٩ .
(٢) انظر بلاغة أرسطو د . ابراهيم سلامة . ص ٣٥٢ الى ٣٦٠ .
(٣) البيان العربي، دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى ط ٦ / ص ٢٢١ مكتبة الأنجلو المصرية .

((وظهرت هذه الفكرة واضحة جلية في الصراع الذى أثاره امتزاج الثقافات، وتعصب حملة اليونانية لفلسفة اليونان ومنطقهم،ودفاع حملة العربية عن تراثهم وثقافتهم ، ومنها الثقافة النحوية)) (١) .

والواقع أن مقدمات نظرية النظم قد سبقت ذلك الامتزاج بكثير فقد بينت في مستهل هذا الفصل أثر(الخليل) و(سيبويه). كما بينت في فصول أخرى ترقى الفكر العربي في استنباط المعاني وما وراءها عندما أخذ القراء في تفسير القرآن الكريم أمثال : قتادة ومجاهد . الذين كانت لهما آراء مبدئيه في المجاز . وهو من أعظم فنون البلاغة العربية . وهكذا فلم تكن تلك المناظرة ولا ذاك التراث كله ذا أثر في أساس بلاغتنا العربية .

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٢١ .

الملحـــق

نموذج للخلاف بين العلماء على قضيـة اللفـــظ والمعـــني

يقول الشاعـــر [1]:

ولما قضينامن منى كل حاجـــة
ومسّح بالأركان من هو ماســـح
وشدت على حدب[2] المهارى رحالنا
ولا ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننـــا
وسالت بأعناق المطيّ الأباطـــح

ويعتبر (ابن قتيبة) من أوائل الذين افتتحوا القول في هذه الأبيـات حيث استشهد بها على الضرب الذى حسن لفظه وحلا ، وخلا من المعنى الذى به الفائدة يقول :

((وضرب منه حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائـدة في المعنى .

هذه الألفاظ كما ترى ، أحسن شئ مخارج ومطالع ومقاطع ، وإن نظـرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى ، واستلمنا الأركـان وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى الناس لا ينتظر الغادى الرائح ، ابتدأنا فـي الحديث ، وسارت المطى في الأبطح))[3].

---

(١) قائل هذه الأبيات يزيد بن الطثرية ، والطثرية أمه . قتلته بنو حنيفـة يوم الفلج ، كما في الشعر والشعراء / طبقات لابن قتيبة ص ٩٩ ، ط ١ / بيروت وتنسب كذلك : لكثير عزة ، والابيات من الطويل .

(٢) الحدب : خروج الظهر ودخول البطن ، انظر القاموس المحيط ١ / ٥٤ ، ٥٥ باب الباء فصل الحاء .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ٦٦ ، ٦٧ .

والملاحظ أن (ابن قتيبة) يستهين كثيرا بمعاني هذه الأبيات التي ترددت في كتب السابقين عليه ، وفي كتب من أتوا بعده ، وأشاد (عبد القاهر) بها ورد على من استهان بها .

أما (ابن طباطبا العلوي ت ٣٢٢هـ) فيقول :

((فأما قول القائل :

ولما قضينا من منى كلّ حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا ولا ينظر الغادى الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

هذا الشعر هو استشعار قائله لفرحة قفوله الى بلده ، وسروره بالحاجة التي وصفها من قضاء حجه وأنسه برفقائه ، ومحادثتهم ووصفه سيل الأباطح بأعناق المطي كما تسيل بالمياه فهو معنى مستوفى على قدر مراد الشاعر))[1]

كما عرض لهذه الأبيات (قدامة بن جعفر ت ٣٢٧هـ) في نعت اللفظ وذلك عندما وصف اللفظ بصفات منها سهولة المخارج مع فصاحة وخلو من البشاعة فقد استشهد بعدة أبيات منها هذه الأبيات ، حيث يقول :

((أن يكون سمحا ، سهل مخارج الحروف من مواضعها ، عليه رونق الفصاحة ، مع الخلو من البشاعة ، مثل أشعار يؤخذ فيها ذلك وان خلت من سائر النعوت للشعر))[2] .

ولم يزد (أبو علي القالي ت٣٥٦هـ) على ما ذكره السابقون غير شرح لبعض مفرداتها .

---

(١) عيار الشعر لابن طباطبا ص ٨٨ ط ١ بيروت ١٤٠٢هـ .
(٢) نقد الشعر ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ص ٧٤ ، ط١ ، ١٣٩٩هـ .

((وأنشد أبو العباس :

ولما قضينا من منى كل حاجـــــة ومسح بالأركان من هو ماســـح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننـــــا وسالت بأعناق المطي الأباطـح

أطراف الأحاديث ما يستظرف منها ويؤثـر))[1].

أى أن هذه الأبيات لم تأخذ حقها الا عند (ابن جني) الذى أفاض في استنباط أنواع الجمال في هذا الشعر ، والتدليل على أن الجمال ليس في المعنى وحده ، بل جمال اللفظ وحسن تنضيده هو الذى رفع هذه الأبيات لأرقى منزلة حيث يقول :

((فإن قلت : فإنا نجد من ألفاظهم ما قد نمقوه ، وزخرفوه ، ووشوه ، ودبجوه[2] ، ولسنا نجد مع ذلك تحته معنى شريفا ، بل لا تجد قصدا ولا مقاربا ، ألا ترى إلى قوله :

ولما قضينا من منى كـــل حاجـــة
ومسح بالأركان من هو ماســـــــــح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننـا وسالت بأعناق المطي الأباطـــح

فقد ترى الى علو اللفظ ومائه ورقالـه وتلاهـم أنحائـــــه .

ومعناه مع هذا ما تحسه وتراه : انما هو ، لما فرغنا من الحج ركبنـــا الطريق راجعين ، وتحدثنا على ظهور الابل ، ولهذا نظائر كثيرة ، شريفة الألفاظ رفيعتها ، مشروفة المعاني خفيضتها ، قيـل :

هذا الموضـع قد سبق إلى التعلق به من لم ينعم النظر فيه ، ولا أرى ما أراه

---

(١) ذيل الامالى والنوادر . ص ١٦٦ دار الكتاب العربي - بيروت .
(٢) قصدا : القصد : استقامة الطريق . انظر القاموس المحيط ١ / ٣٣٩ باب الدال فصل القاف .

القوم منـــه .)) (١) .

(فابن جني) يرى أن هذه الألفاظ المنمقة تحمل أيضا كنزا من المعاني التي يطول نثرها ، ولكن جودة الصياغـة وحسن اختيار الألفاظ ، أكسبهـا منزلة عالية ، فاختصرها في تلك الأبيات القليلة .

ولكن هناك من جفا طبعـه ، فخفى عليه تدبر دقائق المعاني يقـول :

((وإنما ذلك لجفاء طبع الناظـر ، وخفاء غرض الناطق ، وذلك أن في قوله : (كل حاجـة)مايفيد منه أهل النسيب والرقة ، وذوو الأهواء والمقه (٢) مالا يفيده غيرهم ، ولا يشاركهم فيه من ليس منهم . ألا ترى أن من حوائـج (منى) أشياء كثيرة غير ما الظاهر عليه ، والمعتاد فيه سواها ، لأن منهـا التلاقي ومنها التشاكي ، ومنها التخلي إلى غير ذلك مما هو تال له ، ومعقود الكون به ، وكأنه صانع عن هذا الموضع الذى أومأ إليه ، وعقد غرضه عليـه ، بقوله آخر البيت :

((ومسح بالأركان من هـو ماسـح)) .

أى إنما كانت حوائجنا التي قضيناها ، وآرابنـا التي أنضيناها ، من هـذا النحو الذى هو مسح الأركان ، وما هو لا حق به ، وجار في القربة من اللـه ، مجراها ، أى لم يتعد هذا القدر المذكور إلى ما يحتمله أول البيت مـن التعريض الجاري مجرى التصريح)) (٣) .

---

(١) الخصائص : ١/ ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٢) المقه : النعت أمقه ومقهاء . والأمقه العبيد ، والمكان لا ينبت فيه من شجـر . القاموس المحيط جـ ٤ / ص ٢٩٤ فصل الميم باب الهاء .

(٣) الخصائص ١/ ٢١٨ ، ٢١٩ .

فهذه مناسك الحج وما يقوم به الحجيج من أداء أعمال توجبها هذه المناسبة قد عبر عنها بطلاوة ورقة وعذوبة .

ونفذ من هذا البيت إلى نهاية مطاف الحجيج ، فوصف مشاعر الراحة والأنس التي تعترى هذه النفوس بعد أداء تلك المناسك وأثناء عودتهم إلى منازلهم ، فدارت الأحاديث اللطيفة ، لقطع المسافة في المحاورات والمحادثات وأوقات ملؤها الطمأنينة . يقول في ذلك :

((وأما البيت الثاني فإن فيه :
((أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا))

وفي هذا ما أذكره لتراه فتعجب ممن عجب منه ، ووضع من معناه ، وذلك أنه لوقال : أخذنا في أحاديثنا ، ونحو ذلك لكان فيه معنى يكبره أهل النسيب وتعنو له ميعة الماضي الصليب ، وذلك أنهم قد شاع عنهم واتسع في محاوراتهم علو قدر الحديث بين الأليفين والفكاهة بجمع شمل المتواصلين - ألا ترى إلى قول الهذلي :

وإنَّ حديثا منك لو تعلمينه ... جني النحل في ألبان عوذ مطافل (١)

وقال آخر :

وحديثها كالغيث يسمعه ... راعي سنين تتابعت جدْبا (٢)
فأصاخ يرجو أن يكون حيًّا ... ويقول من فرح هيا ربّا

الأبيات الثلاثة ، فإذا كان قدر الحديث مرسلا عندهم هذا ، على ما ترى ، فكيف به إذا قيده بقوله ((بأطراف الأحاديث)) ، وذلك أن في قوله : (أطراف الأحاديث) وحيا خفيا ، ورمزا حلوا ، ألا ترى أنه يريد

---

(١) البيت من الطويل وهو لأبي ذؤيب الهذلي ، وكان شاعرا فحلا لا غميزة فيه ولا وهن . وقد عدّه ابن سلام من شعراء الطبقة الثانية . انظر طبقات فحول الشعراء ١/ ١٣١ .
(٢) الأبيات غير منسوبة وهي من الكامل ونسبت إلى الراعي .

بأطرافها ما يتعاطاه المحبون ، ويتفاوضه ، ذوو الصبابة المتيمون من التعريض والتلويح ، والإيماء دون التصريح ، وذلك أحلى وأدمث وأغزل وأنسب أن يكون مشافهة وكشفا ومصارحة وجهرا ، واذا كان كذلك فمعنى هذين البيتين أعلى عندهم ، وأشد تقدما في نفوسهم من لفظهما ، وإن عذب موقعه ، وأنق له مستمعه . نعم ، وفي قوله :

((وسالت بأعناق المطي الأباطح))

من الفصاحة مالا خفاء به ، والأمر في هذا أيسر وأعرف وأشهر ، فكأن العرب إنما تحلى ألفاظها وتدبجها وتشيها ، وتزخرفها عناية بالمعاني التي وراءها ، وتوصلا بها إلى إدراك مطالبها ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن من الشعر لحكما ، وإن من البيان لسحرا)[1] . فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعتقد هذا في ألفاظ هؤلاء القوم التي جعلت مصايد وشراكا للقلوب ، وسببا وسلما إلى تحصيل المطلوب وعرف بذلك أن الألفاظ خدم للمعاني ، والمخدوم لا شك أشرف من الخادم))[2].

(ولأبي هلال العسكري ت ٣٩٥ هـ) :

رأيه في تمييز جيد الكلام من رديئه ، ونادره من باردة ، حيثأن المعاني لديه ليس لها ذاك النصيب من العناية والدربة ، وإنما اختيار اللفظ المناسب وجودة السبك وحسن الرصف ، وهو لم يزد على ذلك تفصيلا وشرحا ، فكيف يكون الكلام المرصوف الجيد ، أو المسبوك المحبوك ، ولقد ضرب أمثلة عدة للشعر الجيد السبك المشيد المباني ، ولكن لم يشرح فيها أكثر من ذلك .

يقول :

((الكلام أيدك الله ، يحسن بسلاسته وسهولته ، ونصاعته وتخير ألفاظه وإصابة معناه ، وجودة مطالعه ، ولين مقاطعه ، واستواء تقاسيمه ، وتعادل

---

(١) الخصائص ١/ ٢١٩ ، ٢٢٠ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٠ .

أطرافه ، وتشبه أعجازه بصواديه.وموافقة مآخيره لمباديه ، مع قلة ضروراته بل عدمها أصلا ، حتى لا يكون لها في الألفاظ أثر ، فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه ، وجودة مقطعه ، وحسن رصفه وتأليفه ،وكمال صوغه وتركيبه .

فإذا كان الكلام كذلك ، كان القبول حقيقيا ، وبالتحفظ خليقا))[1].

ولقد تميز طبعه بأنه ليس من زواد المعاني وليس من طالبيها لأنه لو كان مدار الأمر على المعنى لطرحوا أكثر التكلف والعناء ، وربحوا كثيرا من عرض مختلف المعاني ، يقول : ((ولو كان الأمر في المعاني لطرحوا أكثر ذلك فربحوا كدا كثيرا ، وأسقطوا عن أنفسهم تعبا طويلا))[2] .

ولقد عرض لنفس المثال الذى تحدث عنه (ابن قتيبة) بإفاضة ، ولم يزد عليها (أبو هلال) غير تعليق يسير إذ يقول :

((ودليل آخر . . أن الكلام اذا كان لفظه حلوا عذبا ، وسلسا سهلا ، ومعناه وسطا ، دخل في جملة الجيد ، وجرى مع الرائع النادر ، كقول الشاعر :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا
ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطي الأباطح

---

(١) الصناعتين لأبي هلال ص ٦٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٣ .

وليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى ، وهي رائقة معجبة ، وانما هـــي : ولما قضينا الحج ومسحنا الأركان وشدت رحالنا على مهازيل الابل ولم ينظـر بعضنا بعضـــا ، جعلنا نتحدث وتسير بنا الابل في بطون الأودية)) (١) .

وعلى ما نالته هذه الأبيات من عدم الإشادة بالمعاني لدى (أبي هـلال) وغيره حظيت لدى (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) بالدرس والشرح والتفصيل الذى بنى أساسه على من سبقه ، ولقد استشهد بهذه الأبيات ، وشرح لنـا مكامن جودتها ، وبين أن غيره استحسن ماءها وطلاوتها من غير أن يبـين جهة دماثتهـا . يقـول :

((انظر إلى الأشعار التي أثنوا عليها من جهة الألفاظ ، ووصفوهـا بالسلاسة ، ونسبوها الى الدماثـة ، وقالوا كأنهـا الماء جريانا والهـواء لطفـا)) (٢) .

تلك الأوصاف المتعددة التي نقلها عن غيره ، لم تبين الوجه الصحيح للجودة لذا فقد أخذ يشرح مواطن جمال هذه الأبيات القليلة ، وما حوته من معـان كثيرة ، ومن استعارة قد أدت دورها في إبراز المعنى .

يقول (الشيخ عبد القاهر) :

((راجع فكرتك واشحذ بصيرتك ، وأحسن التأمل ، ودع عنك التجـوز في الرأى ، ثم انظر هل تجد لاستحسانهم وحمدهم وثنائهم ومدحهم منصرفـا ، إلا إلى استعارة وقعت موقعها وأصابت غرضها ، أو حسن ترتيب تكامل معـه البيان حتى وصل المعنى إلى القلب ، مع وصول اللفظ إلى السمع)) (٣) .

---

(١) الصناعتين لأبي هلال ص ٧٣ ، ٧٤ .
(٢) أسرار البلاغـة ص ١٥ .
(٣) المرجع نفسـه ص ١٦ .

ولم تكن جودة تلك الأبيات عائدة إلى ذات اللفظ ، لأنه لو كان الأمر كذلك لكان لكل كلمة منفردة ، ومنفصلة عن البيت من الشأن والعلو ما للبيت من الجودة ، وهو نفس المعنى الذى عبّر عنه (أبو هلال العسكرى) حين قال :

((ودليل آخر . . . أن الكلام إذا كان لفظه حلوا عذبا ، وسلسا سهلا ومعناه وسطا ، دخل في جملة الجيد ، وجرى مع الرائع النادر))(١) .

يقول (الشيخ عبد القاهر) الذى لم ير للمعنى ، أو اللفظ فضلا مستقلا ، إلا بضم جواهر الألفاظ بعضها إلى بعض ضما رقيقا ، تجعل منها قلادة ثمينة وعقدا رفيع الصنعة ، بادى الجمال . يقول :

((فهل بقيت عليك حسنة تحيل فيها على لفظة من ألفاظها ، حتى ان فضل الحسنة يبقى لتلك اللفظة ، ولو ذكرت على الإنفراد ، وأزيلت عن موقعها من نظم الشاعر ونسجه ، وتأليفه وترصيفه ، وحتى تكون في ذلك كالجوهرة التي هي وإن ازدادت حسنا بصاحبة أخواتها ، واكتست رونقا بمضامة أترابها))(٢) .

كما أن هذه الكلمات المتلائمة قد حوت فيضا من المعاني رفيقا ، يملأ نفس القارئ بهجة ، وقد شرحه (الشيخ عبد القاهر) بإفاضة ، كما فعل (ابن جني) بل استنار ببعض جمل تخللت ذاك الشرح .

يقول الشيخ (عبد القاهر) :

((إن أول ما يتلقاك من محاسن هذا الشعر : أنه قال :
ولما قضينا من منى كل حاجة ، فعبر عن قضاء المناسك بأجمعها ، والخروج من فروضها وسننها ، من طريق أمكنه أن يقصر معه اللفظ ، وهو طريقة العموم ، ثم نبه بقوله :

((ومسح بالأركان من هو ماسح) على طواف الوداع الذى هو آخر الأمر ، ودليل المسير الذى هو مقصوده من الشعر ، ثم قال : (أخذنا بأطراف

---

(١) الصناعتين ص ٧٣ .
(٢) أسرار البلاغة ص ١٧ ، ١٨ .

الأحاديث بيننا) فوصل بذكر مسح الأركان ما وليه من زم الركاب ، وركوب الركبان ، ثم دل بلفظة (الأطراف) على الصفة التي يختص بها الرفاق في السفر ، من التصرف في فنون القول وشجون الحديث ، أو ما هو عادة المتطرفين من الإشارة ، والتلويح والرمز والايماء)) (١) .

ولقد استقى هذا المعنى من (ابن جني) وقد تقدم الحديث وخاصة وخاصة عند قوله : ((يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبون ذوو الصبابة المتيمون من التعريض والتلويح ، والإيماء دون التصريح ، وذلك أحلى وأدمث وأغزل وأنسب من أن يكون مشافهة وكشفا ومصارحة وجهرا)) (٢) .

ولقد شارك (الشيخ عبد القاهر) في هذا المعنى (ابن جني) وبخاصة في ما يخص موضوع الإشارة والتلويح وماله من أثر في النفس أبقى وأجمل من التصريح ، والعرب إنما يهمها الرمز والإيماء لأنه يلهمها سعة الخيال وخصب التفكير ، اكثر من الشرح والتفصيل .

---

(١) أسرار البلاغة ص ١٦ ، ١٧ .

(٢) الخصائص ١ / ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

الفصل الثاني

قضية المجاز وما يتفرع عنها في أسرار البلاغة
ويشتمل على مبحثين

المبحث الأول : المجاز وجهود السابقين .

المبحث الثاني : خاصة جهود عبد القاهر في قضية المجاز .

المبحث الأول

المجاز وجهود السابقين

ان أهم ما سمت به اللغة العربية ، ما عرف عنها من استعمال التشبيهات والمجازات والاستعارات .

ومع هذا فتحديد ظهور هذه المصطلحات البلاغية غير معروف على وجه الدقة

ولكن من خلال دراسة بعض الكتب المتقدمة أمثال (معاني القرآن) (للفراء) ، و (تأويل مشكل القرآن)(لابن قتيبة)، نقف على بعض هذه المصطلحات .

فقد ورد في (معاني القرآن) بعض شواهد تنص على خروج الألفاظ عن أصل استعمالها في اللغة ، قبل(سيبويه)وقبل ظهور (الكتاب) .

يقول :

((وقوله (فظلّت أعناقُهم لها خاضِعِيْن)[1] ، والفعل للأعناق فيقول القائل : كيف لم يقل : خاضعة : وفي ذلك وجوه كلها صواب . أولها أن (مجاهدا)[2] جعل الأعناق : الرجال الكُبراء . فكانت الأعناق هاهنا بمنزلة قولك : ظلت رؤوسهم رؤوس القوم وكبراؤهم لها خاضعين))[3] .

---

(١) سورة الفرقان من الآية ١٠ .

(٢) مجاهد : ((وهو مجاهد بن (جبر) أبو الحجاج المكي أحد الأعلام من التابعين والأئمة المفسرين ، قرأ على عبد الله بن السائب وعلى عبد الله بن عباس بضعاً وعشرين ختمة ويقال ثلاثين . . أخذ عنه القراءة عرضا عبد الله بن كثير وأبو عمرو ابن العلاء وقرأ عليه الأعمش ، وقال (قتادة) : أعلم من بقي بالتفسير مجاهد . قال سلمة بن كهيل كان مجاهد ممن يريد بعلمه الله . مات سنة ثلاث ومائة وقيل سنة أربع وقيل سنة اثنتين وقد نيف على الثمانين . يقال مات وهو ساجد رحمه الله)) ٢/ ٤١ ، ٤٢ غاية النهاية في طبقات القراء للجزرى ، نشر : ج . برجستراسر على نفقة الناشر سنة ١٣٥٢ ، ١٩٣٣م .

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

((فهي إذا مجاز مرسل علاقته الجزئية ، لأن العنق جزء الانسان ولا يخفى مالهذا الجزء من الخصوصية التي يشترطها أرباب الصناعة في نيابة الجزء عن الكل ، وللوفاء بحق المعنى المراد ، فخضوع العنق دليل الاستسلام والانقياد ، وما نقله القراء عن مجاهد أحد وجوه في تأويل الآية بدأ القراء بذكره وكأنه الوجه الأرجح عنده))[1] .

كما ورد معنى (المجاز) في تفسير (قتادة) ، وقد نقله (ابن قتيبة)[2] حين قال : ((وقال الله تعالي : (سنفْرُغ لكم أيّها الثّقلان) والله تبارك وتعالى لا يشغله شأن عن شأن ، (ومجازه) سنقصد لكم بعد طول الترك والإمهال ، قال (قتادة) : قد دنا من اللّه فراغ لخلقه ، يريد أن الساعة قد أزفت وجاء أشراطها))[3] .

كما نُقل عن (قتادة)[4] (في تفسيره لقوله تعالى : (يوم يكشف عن ساق) أى عن شدة الأمر ، كذلك قال (قتادة)[5] وقال " ابراهيم " : عن أمر عظيم ، وأصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى معاناته والجد فيه شمّر عن ساقه ، فاستعيرت الساق في موضع الشدة))[6] .

أما ما ورد في كتاب (العين) (للخليل بن أحمد الفراهيدى) فيعتبر من الإشارات الثواني إلى المجاز ، الذى يقول في مادة (عُش) :

((العش : ما يتخذه الطائر في رؤوس الأشجار للتفريخ ، ويَجمع عششه واعتش الطائر إذا أتخذ عشاً ، قال يصف الناقة :

يتبعها ذو كُدْنة جرائض
لخشب الطّلح هصُور هائض

---

(١) (المجاز في القرآن واللغة بين الإجازة والمنع) للدكتور عبد العظيم المطعني ١/ ٣٠ مكتبة وهبة .
(٢) سورة الرحمن آية ٣١ .
(٣) (تأويل مشكل القرآن) لابن (قتيبة) ص ١٠٥ شرح ونشر السيد أحمد صقر / ط ٢ ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣م دار التراث .
(٤) سورة القلم من الآية ٤٢ .
(٥) (قتادة) : ابن (دعامة) ابو (الخطاب) السّدوسي البصري . أحد الأئمة في حروف القرآن . روى القراءة عن أبي العاليه . مات سنة سبع عشرة ومائة للهجرة . انظر ٢/ ٢٥ (غاية النهاية في طبقات القراء).
(٦) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ١٣٧ .

بحيث يعتش الغراب البائض (١)

قال : البائض

وهو ذكر ، فان قال قائل الذكر لا يبيض ، قيل هو في البيض سبب ، ولذلك جعله بائضاً على قياس والد بمعنى الأب ، وكذلك البائض ، لأن الولد والبيض في مذهبه شيء واحد)) (٢) .

فهذه من الخطوات الصائبة نحو المجاز ، حيث صرح بأنه يصح إطلاق بائض على ذكر الطائر مع أن الذكر لا يبيض ، وانما صح ذلك لأن الذكر سبب في البيض فصح إطلاقه لجهة السببية .

وهذه الخطوات قد اتسعت إلى حد ما ، حتى عهد سيبويه ، الذي وجدت له آراء متفرقة في كتابه (الكتاب) .

وفي صدد حديثي عن نشأة المجاز ، أشير إلى (سيبويه) ، اذ اشتمل مؤلفه على التعريض لبعض أساليب المجاز . حيث يقول :

((وتقول : مُطِر قومُك الليلَ والنهارَ على الظرف وعلى الوجه الآخر ، وان شئت رفعته على سعة الكلام ، الذي سمي فيما بعد المجاز وهو من التوسع ، كما قال : صِيد عليه الليلُ والنهارُ ، وهو نهاره صائم وليله قائم ، وكما قال (جرير) :

لقد لمتنا يا أم غيلان في السُّرى
ونمت وما ليل المطي بنائم (٣)

---

(١) من رجز لأبي محمد الفقعسي.
ذو كدنة : من كدن (وهو كثرة الشحم واللحم) ١٣ / ٣٥٥
جرائض : في مادة (جرض) من اللسان ٧ / ١٣١ يقول : (أن الجرائض الجمل الذي يحطم كل شيء بأنيابه ٥ / ٢٦٤ اللسان .
هصورها : الهصر : الكسر . هصر الشيء يهصره : جبذه وأماله ، ويقال أسد هصور

(٢) كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ١ / ٧٩ . ت / عبد الله درويش.
(٣) البيت من الطويل انظر ٢ / ٤٤٢ من اللسان مادة (ربح)
السرى : سير الليل عامته ، وقيل السرى سير الليل كله)) ١٤ / ٣٨١ مادة (سرا) اللسان .
المطي : ((المطية من الدواب التي تمطو في سيرها ، وجمعها مطايا ومطيّ مادة (مطا) اللسان ١٥ / ٢٨٥

فكأنه في كل هذا جعل الليل بعض الاسم ، وقال آخر :

أما النهار ففي قيد وسلسلة والليل في قعر منحوتة من السّاج (١)

فكأنه جعل النهار في قيد والليل في بطن منحوت ، أو جعله الاسم أو بعضه)) (٢)

ويريد (سيبويه) في إستشهاده بقول القائل : مُطر قومك الليل والنهار) على الرفع على أنه نائب مناب الفاعل .

ولقد عدد (سيبويه) الأمثلة ، فمنها للجملة الفعلية كقول العرب : صيد عليه الليل والنهار ، وكما في بيتي الشعر المتقدمين ، وكلها على سبيل التوسعة في الكلام .

كما وردت له عدة أقوال في بعض الآيات القرآنية ، والتي سارت بعده أمثالا على المجاز تتردد في كتب البلاغة .

فقي قوله تعالى :(واسأل القرية التي كنا فيها ، والعير التي أقبلنا فيها) (٣) .

إنما يريد أهل القرية ، فاختصر عمل الفعل في القرية ، كما كان عاملا في الأهل لو كان هاهنا)) (٤) .

ومثل ذلك من كلامهم : بنو فلان يطؤهم الطريق ، يريد يطؤهم أهل الطريق ، وقالوا : صدنا قنوين ، وإنما يريد صدنا بقنوين ، أو صدنا وحش قنوين ، وإنما قنوان اسم أرض)) (٥) .

والملاحظ على (سيبويه) أنه بين عمل الفعل في (القرية) التي حلت محل (أهل) يقول في ذلك الدكتور عبد العظيم المطعني :

((الآية الكريمة فيها مجازان عقليان . ولم يفت صاحب الكتاب أن يبين

---

(١) البيت من البسيط وهو غير منسوب .
منحوت : النحت : النشر والقشر ، والنحت : نحت النجار للخشب ، انظر اللسان مادة (نحت) ٢/٩٧ .
(٢) الكتاب ١/١٦٠ ، ١٦١ .
(٣) سورة يوسف آية ٨٢ .
(٤) الكتاب ١/٢١٢ .
(٥) المصدر نفسه ١/٢١٣ .

أصل الكلام ، فكان حق الفعل (اسأل) أن يعمل في الأهل لا في القرية ولا في العير من حيث أنهما قرية وعير .

والعلاقة في الموضعين واضحة ، فهي في القرية المكانية ، وفي العير المجاورة أو المصاحبة ، فقد أوقع الفعل فيهما على غير ما حقه أن يقع عليه ومثال هذا أن تقول : أسعدت المدينة ، وأنت تريد أهل المدينة))[1] .

وقد ذكر (سيبويه) في باب (ماجرى مجرى الفاعل الذى يتعداه فعله إلى مفعولين في باب اللفظ لا في المعنى)[2] .

((وذلك قولك : ياسارق الليلة أهل الدار ، فتجرى الليلة على الفعل في سعة الكلام ، كما قال : صِيد عليه يومان ، وولد له ستون عاما . فاللفظ يجرى على قوله هذا معطى زيد درهما ، والمعنى انما هو في الليلة ، وصيد عليه في اليومين ، غير أنهم أوقعوا الفعل عليه لسعة الكلام))[2] .

والملاحظ على (سيبويه) في هذه العبارة أنه أجرى الليلة على الفعل في سعة الكلام ، وهذا مثل قول القائل : صيد عليه يومان ، والمعنى إنما هو : صيد عليه الوحش في يومين ولكنه اتسع واختصر .

وكذلك قول القائل : (سرقتُ الليلةَ أهلَ الدارِ) أى سرقت في الليلة أهل الدار .

والملاحظ في المثالين السابقين : أنه استشهد بهما على سبيل ايقاع الفعل عليه لسعة الكلام ، واقامته مقام المفعول . اى استعملت الظروف استعمال الأسماء ، وليس على سبيل الإسناد إلى الظروف .

كما عقد فصلا آخر وضح فيه ما سبق أن أجمله واختصره ، يقول :

---

(١) المجاز في القرآن واللغة ١ / ١٠ .
(٢) الكتاب ١ / ١٧٥ ، ١٧٦ .

((هذا باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لاتساعهم في الكلام ، والايجاز والإختصار)) :[1]

((فمن ذلك أن تقول على قول السائل كم صيد عليه ؟ وكم غير ظرف لما ذكرت لك من الاتساع والإيجاز ، ولكنه اتسع واختصر ، ولذلك أيضا وضع السائل كم غير ظرف ، ومن ذلك أن تقول : كم ولد له ؟ فتقول : ستون عاما ، فالمعنى ولد له الأولاد ، وولد له الولد ستين عاما ، ولكنه اتسع وأوجز .

ومن ذلك أن تقول : كم سير عليه ، وكم غير ظرف فيقول يوم الجمعة ، ويومان ، فكم هاهنا بمنزلة قوله : ما صيد عليه ، وما ولد له من الدهر والأيام ؟ فليس كم ظرفا ، كما أن " ما " ليس بظرف))[2] .

فقد وضح (سيبويه) في هذا الباب كيف أجرى المجاز ، وكيف فسّر قوله على سعة الكلام . فعند سؤلك كم صيد عليه ؟ تقول : صيد عليه يومان وكم هنا على هذا الأساس ليست ظرفية وكذلك " ما " . وتقدير الكلام في قول القائل : (ولد له ستون عاما) كم ولد له ؟ فيقول : ستون عاما . وهو يقصد ولد له الأولاد ، وولد له الولد ستين عاما ، وهذا التوسع في الكلام والايجاز والاختصار كثير في كلام العرب ، يقول : ((وهذا الكلام كثير منه ما مضى ، وهو أكثر من أن أحصيه ، ومنه ما ستراه أيضا فيما يستقبل ان شاء الله))[2]

وعلى هذا النحو مضى (سيبويه) يشرح الأمثلة التي تحتاج في تفسيرها إلى تأويل من القرآن ومن الشعر ، ويلحظ بذلك أنه لم يشر في قليل أو كثير إلى المجاز ، ولكنه فقط ذكر أن تلك الأمثلة مما يحتاج تفسيرها الى تأويل ، لعدم العلاقة المباشرة بين المعنى والكلمة التي استعملت في التعبير عنه .

---

(١) الكتاب لسيبويه ١/ ٢١١ .

(٢) المصدر نفسه ١/ ٢١٤ ، ٢١٥ .

ولقد استعمل للتعبير عن هذه الظاهرة اسم (التوسع) وهو تفسير شامل اذ استعمله في توضيح بعض العلاقات البلاغية التي يحتاج في تأويلها خروج إلى غير مقتضى الظاهر .

وهكذا فقد سبق (سيبويه) غيره في التمهيد لموضوع (المجاز) ، كما كان سباقا إلى معظم الموضوعات البلاغية .

وعلى كلٍ فإثبات رأى (سيبويه) في المجاز وكذلك إثبات رأى غيره من المتقدمين عليه ، والذين فسروا بعض الكلمات على المجاز ، وبينوا كيف خرجت عن أصل وضعها في اللغة . يدل كل ذلك على ثبوت المجاز في اللغة وفي القرآن .

أما (الفراء ت ٢٠٧ هـ) فقد درس أساليب القرآن الكريم دراسة أدبية واستطاع أن يتوصل إلى موضوع متكامل عن المجاز ، وإن لم يصرح باسمه المتعارف عليه الآن .

إن اشارات (الفراء) الى المجاز ، والى الأساليب البلاغية الأخرى أتت ضمن شرحه لنصوص القرآن الكريم ، وبيان معانيه في مؤلفه (معاني القرآن) . ولقد حاولت جمع بعض من النصوص القرآنية ، والتي وجهها توجيها مجازيا ، وسنلاحظ أنه في بعض الأحيان يسند أقواله بأقوال السلف الصالح من أمثال قتادة ومجاهد وابن عباس .(١)

ففي صدد حديثه عن قوله تعالى : (لا عاصم اليوم من أمر اللهِ الاَّ من رَحم)(٢) حكاية عن قِصَّة (نوح عليه السلام) مع قومه ، يقول :

((كأنك قلت لا معصوم اليوم من أمر الله ، وقوله تعالى : (من ماء دافق)(٣) معناه مدفوق ، وقوله في عيشة راضية ، معناها مرضية ، وقول الشاعر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي(٤)

---

(١) وفي هذه الاقوال دليل على صحة القول بوجود المجاز في القرآن الكريم .

(٢) سورة هود من آية ٤٣ .
(٣) سورة الطارق من الآية ٦ .
(٤) هذا البيت من البسيط . وقائله (الحطيئة) .

معناه المكسو : نستدل على ذلك أنك تقول : رَضِيتْ هذه المعيشة ، ولا تقول رَضِيتْ ، ودُفِق الماءُ ، ولا تقول دَفَق ، وتقول كُسِى العريان ولا تقول كسا)) .(١)

وترددت مقالته هذه أيضا في حديثه عن قوله تعالى : (في يوم عاصف)(٢) أن العصوف وإن كان للريح فإن اليوم يوصف به ، لأن الريح فيه تكون ، فجاز أن تقول يوم عاصف ، كما تقول يوم بارد ، ويوم حار))(٣).

وحين تعرض الفراء لقوله تعالي : (فما ربحت تجارتهم)(٤) . يقول : ((ربما قال القائل لا تربح التجارة ، وإنما يربح الرجل التاجر ؟ وذلك من كلام العرب ، ربح بيعك ، وخسر بيعك ، فحسن القول بذلك ، لأن الربح والخسران ، إنما يكونان في التجارة ، فعلم معناه ، ومثله في كلام العرب ، هذا ليل نائم ومثله من كتاب الله : (فاذا عزم الأمر)(٥) ، وانما العزيمة للرجال ، فلو قال قائل قد ربحت دراهمك ودنانيرك ، وخسر بزك ورقيقك ، كان جائزا ، لدلالة بعض على بعض))(٦) .

ومن هذا التعليق الذى أورده (الفراء) نستطيع أن نتبين أنه استشف (المجاز العقلي) من خلال دراسته لأقوال العرب فطبقه على شرح الآية ، فالعرب تقول : ربح بيعك ، وخسر بيعك ، وهم يعنون أن يكون الربح والخسران في التجارة ، وإنما انطبق على الآية الكريمة ، لأن المعنى يكون ربح الرجل التاجر وإنما صح هذا القول لدلالة بعض الكلام على بعض .

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢ / ١٥ / ١٦ .
(٢) سورة ابراهيم من الآية ١٨ .
(٣) المصدر نفسه ٢ / ٧٣ .
(٤) سورة البقرة من الآية ١٦ .
(٥) سورة محمد من الآية ٢١ .
(٦) معاني القرآن ١ / ١٤ ، ١٥ .

كما أنه حين تعرض للآية الكريمة ، قوله تعالى : (بل مكر الليل والنهار)[1] ، والتي ورد الكلام فيها ، قال : ((المكر ليس لليل والنهار انما المعنى بل مكركم بالليل والنهار ، وقد يجوز أن نضيف الفعل الى الليل والنهار ، ويكونا كالفاعلين ، لأن العرب تقول : نهارك صائم ، وليلك قائم ، ثم تضيف الفعل الى الليل والنهار ، وهو في المعنى للآدميين ، كما تقول نام ليلك ، وعزم الأمر انما عزمه القوم ، فهذا ما يعرف معناه ، فتتسع به العرب))[2] . وقوله : ((تتسع به العرب)) انما هو ترديد عرض له (سيبويه) عن هذه المعاني انما للاتساع في الكلام . ومع هذا فيعتبر ما تضمنه (معاني القرآن) (للفراء) عن (موضوع المجاز) أكثر توسعا مما ذكر سيبويه . ومن المعاني البلاغية التي أوردها (الفراء) هو خروج الاستفهام عن وضعه الحقيقي الى معان أخر متعددة ، ورأى كذلك خروج الاستفهام عن معناه الوضعي الى معان مجازية وضرب كثيرا من الأمثلة ، ففي قوله تعالى : (قل أرأيتم ان أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون)[3] . يقول في تخريج معنى الاستفهام : ((ان شئت جعلت (ماذا) استفهاما محضا على جهة ،كقوله : ويلهم ماذا أرادوا باستعجال العذاب ؟ . وان شئت عظمت أمر العذاب فقلت : بماذا استعجلوا . وموضعه رفع اذا جعلت الهاء راجعة عليه ، وان جعلت الهاء في منه للعذاب وجعلته في موضع نصب أوقعت عليه الاستعجال))[4] .

وسواء المعنى الأول أو الثاني فان كلا منهما صرف عن المعنى الظاهر وهذا هو معنى المجاز .

كما أشار (الفراء) الى (المجاز المرسل) ، وان لم يسمه أيضا ، ولم يشر الى العلاقة فيه ، يقول في قوله تعالى : (يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون)[5] .

---

(١) سورة سبأ من الآية ٣٣ .
(٢) معاني القرآن ٢/ ٣٦٣ .
(٣) سورة يونس من الآية ٥٠ .
(٤) المصدر نفسه ١/ ٤٦٧ .
(٥) سورة آل عمران آية ١١٣ .

قال فيه : ((السجود في هذا الموضع اسم للصلاة لا للسجود لأن التلاوة لا تكون في السجود ، ولا في الركوع)) (١) .

فالمعنى أن السجود هنا بمعنى الصلاة ، ودليل ذلك أن التلاوة لا تكون في السجود ، وانما في الصلاة ، ويكون (الفراء) بذلك قد توصل الى القرينة المانعة ، من ايراد المعنى الأصلي الوارد في الآية الكريمة ، وهو السجود ، وتلك القرينة المانعة هي تلاوة القرآن الكريم في السجود .

ولقد كان الحديث في هذا الموضوع سببا في فصل آخر (٢) ، ويأتي مع (الفراء) ، (أبو عبيدة) (٣) ، فهو من معاصري الفراء .

ولقد كانت له اشارات بلاغية في مصنفه (مجاز القرآن) ، حيث خرّج بعض المعاني تخريجات مجازية ، وان لم يرد بتسمية مؤلفه هذا مجاز القرآن المعنى الاصطلاحي المعروف للمجاز الآن .

ففي قوله تعالى : (واذ قال ربك للملائكة ان جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) (٤) .

يقول (أبو عبيدة) في صدد شرح هذه الآية ، وفي بيان مدلولها :

((جاءت على لفظ الاستفهام ، والملائكة لم تستفهم ربها ، وقد قال تبارك وتعالى : (اني جاعل في الأرض خليفة) ، ولكن معناها معنى الايجاب :أى أنك ستفعل ، وقال جرير ، فأوجب ولم يستفهم لعبد الملك بن مروان :

---

(١) معاني القرآن ١ / ٢٣١ .
(٢) انظر الموضوع بتوسع في فصل (بلاغة عبد القاهر ومدى صلتها بالبلاغة اليونانية) .
(٣) من الأعلام الأفذاذ الذين عاشوا في القرن الثاني الهجرى . توفى سنة ٢١٠ هـ .
(٤) سورة البقرة من الآية ٣٠ .

ألستم خير من ركب المطايـا
وأنـدى العالمين بطـون راح (١)

وتقول وأنت تضرب الغلام على الذنب : ألست الفاعل كذا ؟ ليس باستفهام ولكن تقـرير)) (٢) .

ولقد استشهد (الدكتور عبد العظيم المطعني) بهذه الآيـة وببيت جرير ولكنه انتقـد على (أبي عبيدة) ، أنه لم يوفق في توجيـه الاستفهام في الآيـة الكريمة ، وان أصاب في تخريج الاستفهام عن أصل وضعه الحقيقي ، حيث يقول :

(((أبو عبيدة) أصاب عين الحق في بيـت جريـر ، فهو بـلا خلاف استفهام أريد منه التقرير والايجاب ، أي أنتم خير من ركب المطايا ، أمـا الآيـة الكريمة فليس قوله فيها أنها للإيجـاب بمسلم على إطلاقه ، بل الظاهـر من السياق ، أن الاستفهام للإنكـار)) (٣) يقصـد من ذلك أنه موافق (أبي عبيدة) في تخريج الاستفهام في بيت جرير من أنه استفهام أُريد منه التقرير والإيجاب. وغير موافق له على تخريج الاستفهام في الآية الكريمة أنه للايجاب ، بل يـرى (الدكتور عبد العظيم المطعني) أن الاستفهام في الأية الكريمة للإنكـار. وقد أورد عدة أدلة في كتابه يحاول بها تأييد رأيه .

وإني أرى أن الملائكـة لا تستنكر عمل الله جل جلاله ، ولا تنكره ، بل تعْجب من صنيعـه ، ومن بديع تصريفه للأمـور أن يخلق الأرض وينشئها ثم يجعل فيهـا من يخطئ ويسفك الدماء ، فهذا تعجل مؤمن مأخوذ بعظمة الله الذي يدبـر الأمور بحيث لا يشذ منها شئ عن شئ ، والله أعلم .

وهناك من الآيات التي جاء فيها الاستفهام ، وخرّجه (أبو عبيده) عن أصـل وضعه ، فكان بذلك من الذين أشاروا إلى المجاز ولم يصرحوا باسمه .

---

(١) البيت من الوافر ص ٧٧ ديوان جرير ، دار بيروت للطبع
بطون راح : (البطن من الانسان والحيوان خلاف الظهر) اللسان ١٣ / ٥٢ مادة (بطن) .
الراح : الواحدة راحه : الكف .
(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ / ٣٥ ، ٣٦ علّق عليه الدكتور محمد فؤاد سيزكين مكتبة الخانجي .
(٣) المجاز في اللغة والقرآن ١ / ٣٩٠

وكذلك فعل في المجاز المرسل ، وسأعرض مثلاً واحدا مما ذكر (أبو عبيدة) بإذن الله ، حيث يقول في قوله تعالي : (وأرسلنا السماء عليكم مدرارا)[1] . مجاز السماء ها هنا مجاز المطر ، يقال : ما زلنا في سماء أي في مطر ، وما زلنا نطأ السماء ،أي أثر المطر ،وأتى أخذتكم هذه السماء ومجاز أرسلنا : أنزلنا وأمطرنا))[2].

وهذا مثل مشهور في كتب البلاغة ، حيث عُرفت السماء بمعنى المطر

كما عرض (للمجاز العقلي) وإن لم يهتد إلى إطلاق اسم المجاز العقلي عليه ، فيقول في قوله تعالى (والنهار مبصرا)[3] ((له مجازان أحدهما أن العرب وضعوا أشياء من كلامهم في موضع الفاعل ، والمعنى : أنه مفعول ، لأنه ظرف ، يفعل فيه غيره ، لأنه لا يبصر ، ولكنه يبصر فيه الذى ينظر ، وفي القرآن الكريم قوله (في عيشة راضية)[4] ، وإنما يرضى بها الذى يعيش فيها قال جرير :

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى
ونمت وما ليل المطيّ بنائم[5]

والليل لا ينام ، وإنما يُنام فيه))[6].

والجاحظ (ت٢٥٥هـ) يعد مرحلة جديدة في تاريخ البلاغة عامة ، وفي علم المجاز خاصة ، لأننا سنلحظ تغيرا ملحوظا في فهم معاني الآيات التي فيها المجاز وسنرى له في المجاز أسلوبا يختلف عن سابقيه ، حيث كانت الإشارات هنا مرادفة لتفسير المعاني ، بينما نلحظ اتجاهانحو وضع مسميات ، وتحديدها لتوضيح الاختلاف بين الأساليب ، وإن كانت هذه المسميات وتلك التحديدات بسيطة، إلا أنها تُعد بداية الطريق .

---

(١) سورة الانعام من الاية ٦ .
(٢) مجاز القرآن ١/١٨٦.
(٣) سورة يونس من الاية ٦٧ .
(٤) سورة الحاقة من الآية ٢١ .
(٥) البيت من الطويل .
(٦) مجاز القرآن ١/٢٧٩ .

ولقد طعن ناس من الملحدين ، ومن ليس لهم علم ولا خبرة في سلك طرق اللغة العربية ، ودراسة وجوهها، في آية النحل قوله تعالى : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكي سُبُل ربك ذُلُلاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون)) (١) .

((ولقد كانت دعوى الملحدين ، بأن العسل إنما هو شيء تنقله النحل مما يسقط على الشجر ، ثم تبنى بيوت العسل منه ، ومواضع هذا النحل خفي فلا دخل للبطن فيه .

والمجاز واقع في قوله تعالي : (يخرج من بطونها شراب) ، فالعسل ليس بشراب ، وإنما هو شيء يُحول بالماء شرابا ، أو بالماء نبيذا ، فسماه كما ترى شرابا ، اذ كان يجيء منه الشراب .

وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا : جاءت السماء اليوم بأمر عظيم . وقد قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم
رعيناه وإن كانوا غضابا (٢)

---

(١) سورة النحل آيه ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) البيت من الوافر . وقائله : هو معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمه ابن خصفة بن قيس عيلان بن مضر . لقب بـ (مُعود الحكماء) لقوله في القصيدة : أعود مثلها الحكماء بعدى ، ، إذا ما الحق في الأشياع نابا .

و هو فارس شاعر مشهور ، و هو خامس خمسة من إخوته ، كلهم ساد و وسم بخصلة حميدة عرف بها . جو القصيدة : هو في هذه القصيدة كبير قد علت به السن ، و أضحت سلمى كذلك في مشيبها ، فأقصر كل منهما عن جهل الصبا و لهوه ، كما شابت لداته من النساء فعدلن عنه . ثم استرجع ذكريات الصبا ، كما عبر عن عزة قومه) بالبيت الآنف الذكر و هو ٢٣ من القصيدة نفسها المفضليات ص ٣٥٤ القصيدة ١٠٤ .

فزعموا أنهم يرعون السماء ، وأن السماء تسقط ، ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها ، فقد خرج في اللغة من بطونها وأجوافها ، ومن حمل اللغة على هذا المركب ، لم يفهم عن العرب قليلا ولا كثيرا)) .(١)

فـ (الجاحظ) يرى أن في المثالين السابقين الآية الكريمة ، وبيت الشعر مجازا . لأن الذى يخرج من بطون النحل العسل وليس الشراب ، وأن العرب ترعى المراعي التي هي بسبب الغيث ، ولا ترعى السماء ، لأن السماء لا تسقط .

ثم هاجم بعنف كل من حمل معنى الآية ، وبعض كلام العرب على الظاهر وفسره كما ورد . لأن ذلك صنيع جاهل بلغة العرب وبطرقها وفنونها وبدروب القول فيها . و (الجاحظ) على ثقة من أهمية علم المجاز ، وعلى فهم عميق به ، لأنه يقول عنه : ((وللعرب إقدام على الكلام ، ثقة بفهم أصحابهم عنهم وهذه أيضا فضيلة أخرى)) .(٢)

أى أن العرب لها المقدرة على إخراج الكلام في صور متعددة على غير الظاهر المعروف المتداول ، ثقة منهم بفهم بعضهم لبعض ، لأن تلك أصبحت عادتهم . وذكر ذلك بعد أن طرق فن المجاز وبابه وضرب له أمثلة فقال ما قال .

ولعل من أهم ما قدمه (الجاحظ) وانتهى اليه بعد تلك الدراسات العميقة في البيان العربي ، أنه خلص بتعريف للاستعارة .

ابن قتيبة ت ٢٧٦ هـ :

لقد عرف المجاز بين الدارسين ، ووضحت معالمه ، حتى أن بعض خصوم الدعوة وجد من المجاز مغمزا اعترض به على القرآن الكريم . ولكن (ابن قتيبه) ألف كتابه (تأويل مشكل القرآن) للرد على الطاعنين . ومن ذلك خلص إلى توجيه المجاز وجهه الصحيح : يقول في ذلك :

((وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ، ولغوا فيه وهجروا واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله)) (٣) بأفهام كليلة ، وأبصار عليلة ،

---

(١) الحيوان ٥/ ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

(٢) الحيوان ٥/ ٣٢ .

(٣) سورة آل عمران ٧ .

و نظر مدخول ، فحرفوا الكلام عن مواضعه و عدلوه عن سبله ، ثم قضوا عليه بالتناقض ، و الاستحالة و اللحن و فساد النظم و الإختلاف .

و أدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر ، و الحدث الغِر ، واعترضت بالشبه في القلوب ، و قدحت بالشكوك في الصدور . . . . فأحببت أن أنضح عن كتاب الله ، و أرمي من ورائه بالحجج النيرة و البراهين البينة ، و أكشف للناس ما يكسبون)) .(١)

و هو بهذا يؤيد المجاز و يرد على الطاعنين على القرآن من جهته . لأن المجاز موضوع و ظاهرة بيانية معتادة في الكلام كغيرها من الظاهرات الأدبية يقول :

((و للعرب المجازات في الكلام ، و معناها طرق القول و مآخذه ففيها الاستعارة و التمثيل ، و القلب ، و التقديم و التأخير ، و الحذف و التكرار و الإخفاء و الإظهار ، و التعريض و الإفصاح ، و الكناية و الإيضاح ، و مخاطبة الواحد مخاطبة الجمع ، و الجمع مخاطبة الواحد ، و الواحد و الجميع خطاب الاثنين و القصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، و بلفظ العموم لمعنى الخصوص مع أشياء كثيرة ستراها في أبواب المجاز إن شاء الله تعالى)) .(٢)

و ما هذه العبارات ، و تلك الجمل المتتابعة من (ابن قتيبة) إلا لأن الناس انقسموا قسمين في الحكم على المجاز الفريق الأول : الذى ينفى وجود المجاز بها نفيا مطلقا :- و هو بذلك يتعرض لرد (ابن قتيبة) حيث ، يقول : ((و أما الطاعنون على القرآن بالمجاز ، فانهم زعموا أنه كذب ، لأن الجدار لا يريد و القرية لا تسأل .

و هذا من أشنع جهالاتهم ، و أدلها على سوء نظرهم و قلة أفهامهم ، و لو كان المجاز كذبا ، و كل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلا : كان أكثر كلامنا فاسدا ، لأنا نقول : نبت البقل ، و طالت الشجرة ، و أينعت الثمرة ، و أقام الجبل ، و رخص السعر .

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠ .

وتقول : كان هذا الفعل منك في وقت كذا وكذا ، والفعل لم يكن وإنما كون .

وتقول كان الله ، وكان بمعنى حدث ، والله جل وعز قبل كل شيء بلاغاية لم يحدث فيكون بعد أن لم يكن)) .(١)

وخلاصة رأي منكري المجاز : أن المجاز بزعمهم كذب وباطل ، لأن الجدار لا يريد والقرية لا تسأل ، لأنهما غير عاقلين ، ولا ينتظر منهما إجابة حيث لا يعقلان السؤال .

وابن (قتيبة) يرى البطلان في كلامهم ، لأن هذا المفهوم يؤدي إلى أن يكون كل كلام العرب المبنى على المجاز خطأ ، وقد عرف عن العرب ، قولهم نبت البقل ، وطالت الشجرة وأينعت الثمرة .

بل تؤدي هذه الدعوى إلى أكثر من ذلك ، ففي ما يخص (جل ثناؤه) عندما يقال (كان الله) بمعنى حدث ، وسبحانه وتعالى قبل كل شيء وبعد كل شيء ، لأنه بلا غاية ، فلم يحدث ولن يحدث ، فعلى دعواهم يكون المعنى أنه كان ، وهذا من أشنع جهالاتهم ومن أشنع ما يقال .

وأيضا هناك من النصوص القرآنية التي شرحها (ابن قتيبة) ليثبت أهمية المجاز في لغتنا ، وأنه في كثير من المعاني ، لا يمكن تفسير الكلام على وجهه المعروف يقول :

((ولو قلنا للمنكر لقوله تعالى : (جدارا يريد أن ينقضّ) (٢) : كيف كنت أنت قائلا في جدار رأيته على شفا انهيار : رأيت جدارا ماذا ؟ لم يجد بدا من أن يقول : جدارا يهم أن ينقض أو يكاد أن ينقض أو يقارب أن ينقض وأيا ما قال فقد جعله فاعلا لا أحسبه يصل إلى هذا المعنى في شيء من لغات العجم إلا بمثل هذه الألفاظ)) (٣)

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة . ص ١٣٢ .

(٢) سورة الكهف آيه ٧٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٣٣ .

الفريـــق الثاني :-

و هو الفريق الذى يقول بالمجاز في كل ما من شأنه أداء المعاني و هـــذا هو الفريق المغالي ، وعلى النقيض من الأول ، ولقد انبرى (ابن قتيبة) للرد على هؤلاء أيضا بأن بين ماجره قولهم هذا من تغيير أمور ثابتة و انكار ما هو واضح في القرآن الكريم ، يقول :

((و ذهب قوم في قول الله و كلامه : إلى أنه ليس قولاً ، ولا كلاماً علـــى الحقيقة ، وإنما هو إيجاد للمعاني ، و حرّفوه في كثير من القرآن إلى المجـــاز كقول القائل : قال الحائط فمال ، و مل برأسك إلى ، يريد بذلك الميـــل خاصة ، و القول فضْل .

و قال بعضهم في قوله للملائكة : (اسجدوا لآدم) (١) هو الهام منـــه للملائكة ، كقوله : (و أوحى ربك الى النحل) (٢) ، أى ألهمها .

و كقوله : (و ما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء) (٣)

و ذهبوا في الوحي ها هنا الى الالهام)) (٤)

و يستشهد بآيات و أدلة أخرى ليدل على فساد قولهم أن المعاني في القـرآن الكريم كلها مجاز ، يقول : ((قالوا : ونحو هذا قوله تعالى : (يَوْمَ نَقُـــولُ لجَهَنَّم هَل امْتَلأْتِ ، وَتَقُول هَلْ منْ مَزيدْ) (٥) وليس يومئذ قول منه لجهنـــم ولا قول من جهنم ، وإنما هي عبارة عن سعتها)) (٦)

و بهذا المعنى قد خرّجوا الآية من الحقيقة ، و جعلوا قول جهنم مجازا أى غير حقيقة ، وإنما هي عبارة ليدل سبحانه على سعتها .

---

(١) سورة البقرة من الآية ٣٤ .
(٢) سورة النحل آيه ٦٨ .
(٣) سورة الشورى من الآية ٥١ .
(٤) تأويل مشكل القرآن ص ١٠٦ .
(٥) سورة من آيـه ٣٠ .
(٦) تأويل مشكل القرآن آيه ١٠٨ .

و هذا ليس جائزا ، لأن القول قد عرف عن العرب أنه يقع المجاز فيه ((فيقال : قال الحائط فمال ، و مل برأسك إلى أى أمله و قالت الناقة ، و قال البعير)).(١)

فالقول من الحائط و الناقة و البعير . جائز في كلام العرب ، و قد ملئت أشعارهم بقول مالا يعقل .

و هذا يدعو الى بيان أن هناك فرقا بين القول و الكلام ، فالأول يقع فيه مجاز ، و الثاني (الكلام) لا يكون فيه المجاز ،لأن معناه النطق بعينه ، خلا موضع واحد و هو أن تتبين في شيء من الموات عبرة و عظة ،فتقول : خبر و تكلم و ذكر لأنه دلك معنى فيه ، فكأنه كلمك ، قال الشاعر :

و عظتك أجداث صُمتْ
و نعتك ألسنة خفُتْ
و تكلمت عن أوجه
تبلي و عن صور سُبتْ
و أرتك قبرك في القبو
ر، و أنت حي لم تمتْ (٢)

فإذا القول بالمجاز في الكلام لا يقع إطلاقاً إلا في موضع واحد و هو العبرة من الموات، لأنه من الوضوح حيث يدل و كأنه ناطق فعلاً ، و مما يدل على أن الكلام كله لا يقع فيه المجاز بل هو حقيقة ، أنّ أفعال المجاز لا يكون منها مصادر ، و هذا المقياس لو طبق هنا ، اى على الكلام لوجدناه يكون منه المصدر ، و خروج المصدر من الفعل يكون للتأكد ، يقول : ((و تبين له أيضاً أن أفعال المجاز لا تخرج

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٩ .

(٢) قائل هذا الشعر هو ابو العتاهية و الأبيات من الكامل ذكرها ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢/ ٣٠٦ (دار الكتب ١٣٤٣ هـ) و في الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢/ ٧٩٤ .
و في تأويل مشكل القرآن ص ١٠٩ ، ١١٠ . و أبو العتاهية (هو اسماعيل بن القاسم مولى لعنزة ، و يكنى أبا اسحاق و أبو العتاهية لقب وكان جرارا و يرمى بالزندقة وكان أحد المطبوعين ، و ممن يكاد يكون كلامه كله شعرا .
انظر الشعر و الشعراء ٢/ ٧٩١ لابن قتيبة .

منها المصارد ، ولا تؤكد بالتكرار ،فتقول أراد الحائط أن يسقط ،ولا تقول أراد الحائط أن يسقط إرادة شديدة ، وقالت الشجرة فمالت ، ولا تقول : (قالت الشجرة فمالت قولا شديدا) والله تعالى يقول : (وكلّم الله موسى تكليما)[1] ، فوكد بالمصدر ، معنى الكلام ، ونفى عنه المجاز وقال : (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون)[2] فوكّد القول بالتكرار ووكد المعنى بإنما)).[3]

وهذا كله انما أورده (ابن قتيبة) ليرد على من يرى المجاز في كل شيء حتى وفي كل شيء ورد في القرآن الكريم ، يصرفونه عن وضعه ، وعن قوله ، لأن هذا يؤدى إلى إنكار آيات وحقائق قررها سبحانه ، ويجب علينا الإيمان بها ، كعذاب القبر ، ووجود السحر ، وغير ذلك مما يطول شرحه وبيانه وليس المجال مجاله .

وآن لى في هذه المقالة أن أبين مقصد (ابن قتيبة) في المجاز على أنه مقابل للحقيقة ، أوغير ذلك .

إن المجاز عند (ابن قتيبة) مقابل للحقيقة . والذى يدعوني لأن أقول ذلك : ما أورده من الآيات البينات التي اشتملت على المجاز ففسر مجازها وقرره ، وان أوردها على الحقيقة لا يصح ، إذ يؤدى ذلك إلى الخطأ في تقدير أمور تتصل بذات الله العليه ، ففي قوله تعالي : (سنفرغ لكم أيها الثقلان)[4] ، والله تبارك وتعالى لا يشغله شأن عن شأن ، ومجازه : سنقصد لكم بعد طول المترك والإمهال))[5] .

فهذا يعنى أن تفسير بعض الآى على الحقيقة لا يصح

---

(١) سورة النساء من آية ١٦٤ .
(٢) سورة النحل من الآية ٤٠ .
(٣) تأويل مشكل القرآن ص ١١١ .
(٤) سورة الرحمن آية ٣١ .
(٥) تأويل مشكل القرآن ص ١٠٥ .

ويؤدى إلى الكفر ، فلا بد من التأويل ، وهو ما يسمى بالمجاز ، إذن فالمجاز مقابل للحقيقة ، ولكن الكيفية تختلف عنها ، أى عن الحقيقة .

كما أطل في القرن الثالث الهجرى : أبو العباس المبرد (ت ٢٨٥هـ) له كتابات عليها طابع النزعة اللغوية ، وكذلك النحوية ، كما له رأى فى المجاز . لذلك سوف أعرض لرأيه فيه ، وخاصة أنه من مجوزى المجاز ، وله اشارات متعددة وردت في كتابه (الكامل) . ولقد اخترت مثالاً منها ، وإن لم يصرح بذكر كلمة (المجاز) فيه . يقول :

ومن أمثال العرب إذا طال عمر الرجل أن يقولوا : لقد أكل عليه الدهر وشرب ، إنما يريدون أنه أكل هو وشرب دهرا طويلا . قال الجعدي :

كم رأينا من أناس هلكوا
أكل الدهر عليهم وشرب (١)

والعرب تقول : نهارك صائم وليلك قائم ، أى أنت قائم في هذا وصائم في ذاك ، كما قال الله عز وجل : (بل مكر الليل والنهار) والمعنى والله أعلم ، بل مكركم في الليل والنهار . وقال جرير :

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى
ونمت ومالي المطي بنائم (٢)

أما المجاز عند (ثعلب ت ٢٩١ هـ) : فقد وضحت الإشارة إليه عند شرحه لقوله تعالى :

(والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) (٣) أى في قبضته ، كما تقول: هذه الدار في قبضتي)) (٤) .

وقوله تعالى : (نسوا الله فنسيهم) (٥) تركوا الله فتركهم .

---

(١) البيت من الرمل ، وقائله : النابغة الجعدى كما نسب في اللسان مادة (طرب) ١ / ٥٥٧ ونسب الى النابغة الذبياني في ديوانه ص ٢٦ .
(٢) البيت من الطويل ١/ ١٢٨ ، ١٢٩ وقد تقدم الحديث عنه .
(٣) سورة الزمر من الاية ٦٧ .
(٤) مجالس ثعلب / لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب شرح / عبد السلام هارون دار المعارف ٢/ ٥٥٠ ، ط ٤ .
(٥) سورة التوبة آية ٦٧ .

والله عز وجل لا ينسى إنما يترك (فأنساهم أنفسهم) [1] أى أنساهم أن يعملوا لأنفسهم)) [2].

وقال تعالى :

(والسموات مطويات بيمينه) [3] ، قال : هو كما تقول الدار بيدى ، والشئ في يدى [4].

ولقد كانت هناك بعض اشارات مهمة لعلم المجاز قد أضافها أبو القاسم الآمدى (ت ٣٧٠هـ) :-

من رواد الأدب والفكر العربي في القرن الرابع ، له أهمية في علم البلاغة بصفة عامة ، والمجاز بصفة خاصة .

لذا سوف أعرض لبعض الآيات والشواهد الأخرى ، والتي خرج فيها المعنى إلى معنى آخر .

يقول :

((في قوله تعالى : (واسأل القرية) [5] التي كنا فيها ، يريد أهل القرية)) [6].

كما أن الاستفهام إذا كان خارجا عن طلب الفهم كان من قبيل المجاز كما مر بنا في التمثيل له لدى العلماء السابقين .

فهذا (الآمدى) أيضا قد بين أمثلة خروج الاستفهام إلى غير طلب الاستفهام . يقول في ذلك : ((ومن خطئه قوله :

رضيت وهل أرضى اذا كان مُسخطي
من الأمر مافيه رضى من له الأمر

فمعنى هل في هذا البيت . . التقرير ، والتقرير على ضربين :-

---

(١) سورة الحشر من الآية ١٩ .
(٢) المصدر نفسه ٢ / ٥٥٠ ، ٥٥١ .
(٣) سورة الزمر من الآية ٦٧ .
(٤) المصدر نفسه ٢ / ٤٦٨ .
(٥) سورة يوسف آية ٨٢ .
(٦) الموازنة ١ / ١٧٤ .

تقرير للمخاطب على فعل قد مضى ووقع ، أو على فعل هو في الحال ليوجب المقرر بذلك ، و يحققه ، و يقتضى من المخاطب في الجواب الاعتراف بـــه ، نحو قوله : هل أكرمتك ؟ هل أحسنت إليه ؟ هل أودك وأوثرك ؟ وهل أقضى حاجتك ؟

و تقرير على فعل يدفعه المقرر ، و ينبغي أن يكون قد وقع ، نحو قولـه : هل كان منى إليك قط شيء كرهته ؟ و هل عرفت منى غير الجميل ؟)).[1]

ابن جنى و قضية المجاز (ت ٣٩٢ هـ) :

لقد كانت آثار (ابن جنى) في موضوع (المجاز) واضحة جلية ، اذ استقصى الموضوع و أثاره من البداية ، و سنمضي لنرى ما الذى أضافـــه (ابن جنى)، يبـدأ في مستهل باب (في الفرق بين الحقيقة و المجـاز) بتعريف المجاز ، و ذلك بالمقارنة بين تعريف الحقيقة و بين تعريف المجـاز، يقـــول :

((الحقيقة ما أقر في الإستعمال على أصل وضعه في اللغة ، و المجاز ما كان بضـد ذلك .

و إنما يقع المجاز و يعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة ، و هي الاتساع و التوكيد ، و التشبيه ، فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البته).[2]

فملخص تعريف المجاز أنه ضـد الحقيقة ، و تفسير هذا الملخص يكـــون بشرح العناصر الثلاثة التي ذكرها في تعريفه و هي :

(الاتساع) ، (و التوكيـد) ، (و التشبيه) ، و هي مالا بد أن تشتمل

---

(١) الموازنـــة : ١/ ٢١١ ، ٢١٢ .

(٢) الخصائص ٢ / ٤٤٢ .

عليه جملة المجاز .

كذلك يجب إيراد قرينة تدل على المعنى المراد ، وأن المعنى الموضوع استعمل في غير معناه الأصلي .

ويطبق هذا الشرح على قوله صلى الله عليه وسلم :

في الفرس (هو بحر) (١)

وهذا الحديث توجد فيه المعاني الثلاثة .

أما الاتساع فلأنه زاد في أسماء الفرس التي هي فرس طِرف وجواد ونحوها البحر ، حتى انه ان احتيج إليه في شعر أو سجع أو اتساع استعمل استعمال بقية تلك الأسماء ، لكن لا يفضى إلى ذلك إلا بقرينة تسقط الشبهه)) (٢)

فالمعنى الأول متوفر وذلك أنه اتسع عليه أفضل الصلاة والسلام في استعماله الألفاظ ، فاستعمل (بحر) اسما للفرس ، وعلى هذا الأساس يمكن أن تستعمل كلمة بحر للدلالة على الفرس ، في كل مجازات العرب ولكن بشرط إيراد قرينة تدل على المراد ، ولقد ضرب ابن جنى عدة أمثلة لذلك ، منها قول الشاعر :

علوت مطا جوادك يوم يوم
وقد ثَمَد الجِياد فكان بحراً (٣)

---

(١) في كتاب الجهاد من صحيح البخارى : ((عن أنس بن مالك قال : كان فزع بالمدينة ، فاستعار النبي صلى الله عليه وسلم فرسا لنا يقال له مندوب ، فقال : ما رأينا من فزع ، وان وجدناه لبحرا)) .

(٢) الخصائص ٢ / ٤٤٢ .

(٣) ثمد : الثَّمْد ، الثَّمَد : ((الماء القليل الذى لا ماتله وقيل : هو القليل يبقى في الجَلد)) اللسان مادة (ثمد) ٣/١٠٥ .

وكأن يقول الساجع : فرسك هذا إذا سما بغرته كان فجراً وإذا جـــرى إلى غايته كان بحراً ، أونحو ذلك ، ولو تحرى الكلام من دليل يوضح الحـال لم يقع عليه بحر ، لما فيه من التعجرف في المقال من غير إيضاح ولا بيـــان ، ألا ترى أن لو قال : رأيت بحرا ، وهو يريد الفرس لم يعلم بذلك غرضه ، فلـم يجز قوله : لأنه الباس والغاز على الناس)). (١)

إذن فالضابط في معنى التوسع - اى استعمال الكلمة في غير ما وضعـت له في أصل اللغة توسعاً - ، وجـود قرينة تعرف منها قصد المتكلم .

ففي قول الشاعر (علوت مطا جوادك) دليل أن المقصود بقوله (بحـر) الجواد ، ولولا القرينة لا لتبس الأمر ولم تفهم غرض المتكلم .

المعنى الثاني : التشبيـه :

يقول (ابن جنى) ((وأما التشبيه فلأن جريه يجرى في الكثرة مجـرى مائه)). (٢)

والملاحظ أن المجاز يحمل في طياته معنى التشبيه أيضا ، وذلك أنـه شبه الفرس في سرعته وجريه بالبحر في اتساعه وتدفقه .

المعنى الثالث : التوكيـد :

يقول (ابن جنى) ((وأما التوكيد فلأنه شبه العَرَض بالجوهـر ، وهـو أثبت في النفوس منه ، والشبه في العَـرَض منتفيـه عنه ، ألا ترى أن من النـاس من دفع الأعراض ، وليس أحد دفع الجواهر)). (٢)

---

(١) الخصائص ٢ / ٤٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٤٤٣ .

و مثال آخر قول الشاعـــر :

تغلغل حب عُثْمـــة في فؤادى
فباديه مع الخافى يسير (١)

أى فباديه إلى الخافى يسير ، اى فباديه مضموما إلى خافيه يسير ، وذلـك أنه لما وصف الحب بالتغلغل فقد اتسع به ، الا ترى انه يجوز على هـــــذا أن تقول .

شكوت اليها حبها المتغلغلا
فما زادها شكواى الا تدلّلا (٢)

فيصف بالتغلغل ما ليس أصله في اللغة أن يوصف بالتغلغل وانما ذلـك وصف يخص الجواهر لا الأحداث ، ألا ترى أن المتغلغل في الشيء لا بـــد أن يتجاوز مكانا إلى آخر ، وذلك تفريغ مكان ، وشغل مكان ، وهذه أوصاف تخص في الحقيقة الأعيان لا الأحداث ، فهذا وجه الاتساع ، وأما التشبيـــه فلأنه شبه مالا ينتقل ولا يزول بما يزول وينتقل .

أما المبالغة والتوكيد (٣) : فلأنه أخرجه عن ضعف العرضية الى قوة الجوهرية)) .

اى أكد غرضه بأن أكسبه قوة الجوهرية ، وبعـــد أن كـــان مكتسبـــا ضعـــــف العرضيـــة ، حتى وصفه بالتغلغل فأكسبه قوة الجوهريـــة

وهكذا يمضي (ابن جنى) يبدى رأيه في المجاز ، ويدعمه بالأمثلـــة شارحا موضحا .

حتى وصل به المطاف إلى ما يسمى (بالشجاعة في اللغة) من الحـذف

---

(١) البيت من الوافر وقائله : عبيد الله بن عبد الله بن عتبه .

(٢) البيت من الطويـل .

(٣) الخصائص ٢ / ٤٤٤ .

و الزيادة و التقديم و التأخير و شرحه بأمثلة متعددة .

وفي النهاية جعل المجاز يلحق بعامة الأفعال ، نحو (قام زيد) (و قعد عمرو) ، (انطلق بشر) ، (و جاء الصيف) ، فهذه كلها من المجاز ، لأن الفاعل كان منه القيام في هذا الجنس من الفعل ، و لا يمكن أن يكون حصل من الفاعل (زيد) كل القيام ، لأنه يكون بذلك ينطبق عليه قيام الماضي و الحاضر و المستقبل ، و هذا لا يجتمع لانسان واحد في وقت واحد ، بل ((هذا محال عند كل ذي لب ، فإذا كان كذلك علمت أن قام زيد مجاز لا حقيقة ، و إنما هو على وضع الكل موضع البعض للاتساع والمبالغة ، و تشبيه القليل بالكثير)) (١)

ولقد استدل (ابن جني) على أن الفعل لا يكون و لا يحصل من فاعله كله ، و إنما اطلق على الجميع مجاز .

و خلاصة رأي ابن جني في المجاز :

ان المجاز أوسع من التشبيه البليغ ، و الاستعارة و المجاز المرسل ، و هذه الدائرة المتسعة ، قد جعلت من التشبيه فرعا في المجاز بل كما سبق أن ذكرت عن (ابن جني) أنه جعل اللغة العربية أكثرها مجازا و هذا الموضوع واسع جدا حتى أصبح قضية لها أنصارها ، ولها منكروها و هناك من وقفوا وسطا فيها .

الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) ودوره في قضية المجاز :

يعد (الباقلاني) أحد أبرز أعلام القرن الرابع ، كتب في الاعجاز بإفاضة و لقد أثبت أن القرآن الكريم نسيج وحده ، و أن أدب البشر مهما

---

(١) الخصائص ص ٢ / ٤٤٨ .

سما فإنه لن يصل إلى درجة بلاغة القرآن الكريم ، ولقد اقتضى تقرير الباقلاني هذا دراسة النصوص الأدبية دراسة فاحصة شاملة وكذلك دراسة الصور البلاغية من استعارة وتشبيه وتمثيل ومطابقة وتجنيس وغير ذلك .

ومع هذا فإن دراسته للمجاز لم تكن إلا من خلال الإستعارة .

القاضي عبد الجبار (ت ٤١٥ هـ) :

لقد كان (القاضي عبد الجبار) أحد أئمة الاعتزال المدافعين عنها بحماس بالغ ، وبمقدرة منقطعة النظير ومن خلال هذا الدفاع استطعنا أن نتبين موقفه من المجاز ، ونستطلع وجهة نظره ، فقد تدرج بالبحث العلمي لهذا الموضوع ، حتى وصل إلى النقطة التي انتهى غيره عندها وأضاف إليها ما يعرف (بعلاقة الفاعليه) .

وسنلاحظ أن (القاضي عبد الجبار) قد انتهى إلى ما وصلنا الآن عن المجاز عندما أتم حديث علاقات المجاز الست المعروفة .

وسوف أبدأ بإذن الله- بتحليله لقوله تعالى :

١ - (وجاءوا على قميصه بدم كذب) [1] . يقول :

((فأما قوله : (بدم كذب) فمن أحسن ما يوجد في مجاز الكلام أنهم صوروه بخلاف صورته فصار كالكذب ، ويحتمل أن يكون المراد بدم واقع من كاذب على معنى قوله : (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة) [2] ، أي أهلها وسكانها)) .[3]

لقد افترى اخوة يوسف ، فقالوا لأبيهم : هذا دم يوسف وهو في الحقيقة دم غيره ، فهذا الكذب الذى قال به اخوة يوسف لأبيهم إنما وقع على الدم

---

(١) سورة يوسف من آية ١٨ .
(٢) سورة الأنبياء آية ١١ .
(٣) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ١٩٠ / دار النهضة الحديثة - بيروت لبنان .

مجازاً ، وإن الذى قام بمهمة التلفيق و الكذب هذه هم إخوة يوسف ، و تقديرهم في الإعراب فاعل ، و هو ما يعرف بعلاقة الفاعلية .

و قد جرى الشيخ عبد القاهر الجرجاني على نفس الطريقة ، إذ حد المجاز العقلي ، فقال : ((كل جملة أُخْرِجَت الحكم المفاد بها عن موضوعه في العقل لضرب من التأول)) .(١)

فعمم (المجاز) بأنه في كل جملة أفادت معنى غير المعنى الموضوعة له و مثل له بقولهم : نهارك صائم و ليلك قائم ، و قوله تعالى (فما ربحت تجارتهم)) (٢) ، و قول الفرزدق :

سقاها خروق في المسامع لم تكن
علاطاً ولا مخبوطة في الملاغم (٣)

ثم بين جهة المجاز ، فيقال : ((أنت ترى المجاز في هذا كله ، ولكن لا في ذوات الكلم و أنفس الألفاظ ، ولكن في أحكام أجريت عليها . أفلا ترى أنك لم تتجوز في قولك : نهارك صائم و ليلك قائم ، في نفس صائم و قائم ، ولكن في أن أجريتها خبرين على النهار و الليل .

و كذلك ليس المجاز في الآية في لفظة (ربحت نفسها) ولكن في إسنادها إلى التجارة ، و هكذا الحكم في قوله سقاها خروق . . الخ ليس التجوز في نفس سقاها ولكن في أن أسندها إلى الخروق)) .(٤)

كذلك : ((ومما طريقة المجاز فيه الحكم ، قول الخنساء :

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت
فإنما هي إقبال و إدبار

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣٤٨ .
(٢) سورة البقرة من الآية ١٦ .
(٣) بحثت عن البيت في ديوان الفرزدق فلم أجده / دار بيروت للطباعة والنشر ، جزء ان .
(٤) دلائل الاعجاز ص ٢٨٦ .

وذلك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما، فتكون قد تجوزت في نفس الكلمة ، وإنما تجوزت في أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر لغلبة ذلك عليها ، واتصاله بها ، وانه لم تكن لها حال غيرها ، وكأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار)). (١)

فيفهم من كلام (عبد القاهر) أن التجوز في جعل الاقبال والادبار خبرا عن الناقة .

كما جعل من المجاز الحكمي النسب الإضافية فقال : ((وما يجب أن يعلم في هذا الباب أن الإضافة في الاسم كالإسناد في الفعل ، فكل حكم يجب في إضافة المصدر من حقيقة ومجاز فهو واجب في إسناد الفعل)) (٢) ومثل لذلك بقوله : ((أعجبن وشي الربيع الرياض ، وصوفه تبرها وحوكه دباجها)). (٢)

فالمجاز الحكمي (أو العقلي) عند عبد القاهر واقع في الكلام ، سواء كان بين الفعل وفاعله أو المبتدأ والخبر أو النسب الاضافية .

٣ - ومن الآيات التي وجهها القاضي عبد الجبار على المجاز قوله تعالى (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) (٣) يقول فيها :

((قالوا : ثم ذكر تعالى ما يدل على أنه الفاعل لتصرف العبد وكسبه فقال : ((فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)). (٣) ، فأضاف قتلهم ورميهم إلى نفسه .

والجواب عن ذلك : إن ظاهر الكلام يقتضي أنه تعالى هو الذى قتل الكفار دون المؤمنين ، وذلك يوجب في كل قتل أن يكون تعالى فعله ، وأن يوصف بأنه قتل الأنبياء والصالحين .

---

(١) دلائل الاعجاز ٢٩٢ .

(٢) أسرار البلاغة ٣٤٤ .

(٣) سورة الأنفال من الآية ١٧ .

وبعد ، فإن حمله على ظاهره يوجب التناقض ،لأنه تعالى أثبت له بقوله : (إذ رميت) ثم نفاه عنه بقوله : (وما رميت ولكن اللّه رمى) فلا بد من تأويله على خلاف الظاهر ، ومتى وجب الدخول في التأويل بطل التعلق لهم بالظاهر .

والمراد بالآية أنه تعالى بين للمؤمنين أن ما فعلوه من قتل الكفار لم يكن على جهة الاستبداد منهم وبحولهم وقوتهم ، وأنهم وصلوا إليه بمعونته تعالى وألطافه ، لأنهم لو لم ينصرهم بالإمداد بالملائكة والربط على القلب وتثبيت القدم والقاء الرعب في قلوب الكفر لم يتم عن قتلهم ما تم ، وقد بينا جواز إضافة الطاعة إليه تعالى اذا وقعت بتيسيرة وألطافه ومعونته .

فأما قوله تعالى : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) فقد يصح حمله على ما قلناه ، لأنه بألطافه وتأييده تم له في الرمى ما تم).[1]

وهذا ما عرف فيما بعد بالمجاز العقلي حسب ما عرفه الشيخ عبد القاهر وذلك لأن (إسناد القتل والرمى إلى اللّه تعالى كما هو ظاهر الآية ليس من قبيل الحقيقة وإنما فقط لأنه أعان عليه بأية جهة من جهات العون التى ذكرها لتثبيت القدم ، والربط فكان سببا في قتلهم وإيصال الرمى إليهم ، وهذا هو المجاز العقلي حسب ما تعارف عليه المتأخرون) [2] .

وفي قوله تعالى ((وربما قيل في قوله تعالى : (يوم تشهد عليهم ألسنتهم) [3] كيف تصح الشهادة من اللسان ؟

وجوابنا : بأن ينطقه الله ، وكذلك الكلام في أيديهم وأرجلهم وفي ذلك زجر عظيم لأن المقدم على الذنب إذا تصور أنه يجزى عليه في الآخرة بهذه الشهادة كان ذلك من أعظم زواجره .

---

(١) المتشابه ص ٣١٧ وفي تنزيه القرآن عن المطاعن ص ١٥٩ .

(٢) بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار للدكتور عبد الفتاح لاشين ، ص٣٥٢ دار الفكر العربي .

(٣) سورة النور من الآية ٢٤ .

فإن قيل ماللسان واليد والرجل هي المتكلم بهذه الشهادة ؟

قيل له : هذا هو الظاهر والله عز وجل قادر على أن يحييها مفردة لتتكلم بهذه الشهادة ، كما روى عنه صلى الله عليه وسلم - في الذراع أنها كلمته (وقالت : لا تأكلني فإني مسمومة) .

وإلى هذا فالكلام يشير به إلى الحقيقة ، وليس هناك خروج عنها ، ثم قال : ((ومن العلماء من يقول : هذه الشهادة من فعل الله تعالى فإن وجدت في الأعصاب فيكون الله تعالى المتكلم وأضيفت الشهادة إليها على وجه المجاز)) .[1]

ففي الآية الكريمة معنى حقيقي ، وهو أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن ينطق هذه الجوارح بالشهادة ، ويكون ذلك من أعظم الزواجر للمذنب إذا تصور أنه يجزى عليه في الآخرة بهذه الشهادة .

ويصح فيها المجاز ، على إسناد الشهادة التي هي لله تعالى إلى محلها وإلى ما تكون به وهو الألسنة ، والأرجل والأيدى على معنى المجاز العقلي .

وهذا ما يعرف بالمجاز الذى علاقته المحلية .

٤ - « قال القاضي : قوله تعالى : (فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيباً) [2] لا يدل على أن في ذلك اليوم يخاف الولدان ويعذبون ، وذلك أن هذه الطريقة تذكر لعظم حال يوم القيامة يبين ذلك أنه تعالى أضاف ذلك الى اليوم وقد علمنا أن اليوم لا يجعل ولا يفعل وأن الفاعل سواه ». [3]

---

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٢) سورة المزمل من الآية ١٧ .

(٣) المتشابه ص ٦٦٩ .

كما يقول في كتابه تنزيه القرآن : « كيف يصح وصف اليوم بذلك وكيف يضاف إليه ؟ وجوابنا أن المراد ما يحصل في ذلك اليوم من الأهوال فضرب له هذا المثل ، كما يقال مثله في المخاطبات عند ذكر الأمور الهائلة »[1]

فأسند جعل الولدان شيبا الى(اليوم)(والزمن) ، وهذا ليس حقيقيا وإنما أسند اليه لأن هذه الأهوال العظيمة تقع في ذلك اليوم .

ما أن أتى زمن ابن رشيق القيرواني الا وقد وضحت صورة المجاز ،فعرفه قائلا :

(ومعنى المجاز طريق القول ومآخذه ، وهو مصدر (جزت مجازاً) كما تقول قمت مقاما ، وقلت مقالا من كلام عبد الله بن مسلم بن قتيبة في المجاز ، قال : لو كان المجاز كذبا لكان أكثر كلامنا باطلا ، لأنا نقول نبت البقل وطالت الشجرة وأينعت الثمرة ، وأقام الجبل ، ورخص السعر ، ونقول : كان هذا الفعل منك في وقت كذا والفعل لم يكن ، وإنما يكون ، وتقول : كان الله ،وكان بمعنى حدث ،والله قبل كل شيء ،وقال في قول الله عز وجل : (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه)[2] لو قلنا لمنكر هذا كيف تقول في جدار رأيته على شفا انهيار ؟ لم يجد بدا من أن يقول : يهم أن ينقض ، أو يكاد أو يقارب ، فإن فعل فقد جعله فاعلا ،ولا أحسبه يصل إلى هذا المعنى في شيء من ألسنة العجم إلا بمثل هذه الألفاظ)[3]

ثم تعرض ابن رشيق لقضية ، أن المجاز أبلغ من الحقيقة ،حيث يقول :

« والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة ، وأحسن موقعا في القلوب والأسماع ، وماعدا الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن محالا محضا

---

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٤٣٩ .

(٢) سورة الكهف من الآية (٧٦).

(٣) العمدة ١/ ٢٦٦ توفي ابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) .

فهو مجاز لاحتمال وجوه التأويل ، فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز ، إلا أنهم خصوا به ، أعني اسم المجاز- بابا بعينه وذلك أن يسمى الشيء باسم ما قاربه أو كان منه بسبب كما قال جرير بن عطيه :

اذا سقط السماء بأرض قوم
رعيناه وان كانوا غضابا (١)

ويقول الدكتور عبد العظيم المطعني عن هذه الفكرة بأنها محدثة إذ ابتدأها ابن رشيق فقط ولم يسبقه غيره إليها .

(وبعد هذا نرى ابن رشيق يعرض لقضية ما نحسب أحدا قبله عرض لها ، وهي أبلغية المجاز على الحقيقة).(٢) وفي الواقع ان أبلغية المجاز الحقيقية واضحة في رسالة الرماني . ولقد أجرى ابن رشيق المجاز على هذا البيت قائلا :

((أراد المطر لقربه من السماء ، ويجوز أن تريد بالسماء السحاب ،لأن كل ما أظلك فهو سماء ، وقال (سقط) يريد سقوط المطر الذى فيه ، وقال (رعيناه) ، والمطر لا يرعى ، ولكن اراد النبت الذى يكون عنه ، فهذا كله مجاز))(٣)

ففي نص عبارة ابن رشيق جواز أن يريد الشاعر من السماء المطر ويصح أن يريد بها السحاب ، وذلك لأن كل ما أظلك فهو سماء .

ولا أعتقد أن هذا التعليل ينطبق على بيت الشاعر ، ذلك أن الشاعر يريد من قوله (السماء) المطر ، لأنه يقول : (سقط) ولا يكون السقوط الا للمطر وكذلك (رعيناه) ولا يكون الرعي الا لما تسببه المطر .

---

(١) العمدة ١/ ٢٦٦ .

(٢) المجاز في اللغة والقرآن الكريم ١/ ٢١٤ .

(٣) العمدة ١/ ٢٦٦ .

مع أنـــه شرح بنفســـه معـــنى (سقـــوط) و (رعينـــاه) .

والجاحظ قد فســـر هذا البيت على أن الشاعر أراد بالسماء الرعي الذي يكون منـــه المطـــــــر .(١)

---

(١) انظر ص ١١٩ / ١٢٠ من البحث رأى الجاحـــظ .

المبحث الثانـــي

خاصـــة جهـــود عبد القاهـــر

وبعد أن بينت مجهودات العلماء السابقين في علم المجاز ، فإني سوف أستعرض مجهودات(الشيخ عبد القاهر) - بإذن الله - والتي كانت علمـــا واسعا غزيرا ، مؤيدا بشواهد وأدلة مقنعة ، فخلص بذلك كله إلى قواعـــد هذا العلم وحدّه بما لم يسبقه غيره إليه ولم يهتد إليه من أتى بعده . لأنـه انتبه إلى أدق التفصيلات في علم البلاغة . ولن استطيع ، ولا أى دارس أن يستقصى ما اشتملت عليه بحوثه في دراسة واحدة . لغزارة ما كتب ودقـــة ما وضح وفصل .

لذا آثرت هنا أن أبين الخطوط الرئيسية في موضوع المجاز ، لأنه ليـــس يغنى عن الرجوع إلى مؤلفاته.

١ - يقول(الشيخ عبد القاهر)عن تعريف المجاز إنه . ((كل كلمة أريد بهـــا غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجـــاز ، وإن شئت قلت : كل كلمة جزت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى مالـــم توضع له ، ومن غير أن تستأنف فيها وضعا ، لملاحظة بين ما تجوز بها إليـه . وبين أصلها الذى وضعت له في وضع واضعها فهي مجاز)) (١).

٢ - ومن مجهودات الشيخ عبد القاهر البارزة ، أنه أخضع موضوع المجـــاز لنظرية النظم ، وهذا مالم ينظر إليه أحد قبله ، ذلك أنه رأى أن النقـــل في المجاز ليس في ذات اللفظ ، وإنما في معناه ، يقـــول :

((هو أن يكون التجوز في حكم يجرى على الكلمة فقط ، وتكون الكلمـــة

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣٢٠ .

متروكة على ظاهرها ، ويكون معناها مقصودا في نفسه ، ومرادا من غير توريـــة ولا تعريض . والمثال فيه قولهم :

نهارك صائم ، وليلك قائم ، ونام ليلى وتجلى همي ، وقوله تعالى (فما ربحت تجارتهم)(١) . وقول الفرزدق :

سقاها خروق في المسامع لم تكـــن
علاطا ولا مخبوطة فى الملاغـــم (٢)

أراد الشاعر أن يقول ، ان هؤلاء القوم من الشهرة بحيث عرفت ابلهم مـــن خروق في آذانها ، وهي علامة مميزة انفرد بها قوم الفرزدق ، لذلك قدمهـــا في الشرب على ابل غيرهم .

وهذا المعنى غير ما أشار اليه المعلق في الحاشية ، حيث يقول : (ذكر ابل قوم من السادة ضلت فعرف الناس من علاطها أصحابهـــا ، فسقوها وعنـــوا بها)(٢) .

والواقع أن الشاعر قال : (لم تكن علاطا) فكيف يصح أن تكون صفة هذه الابل .

ثم يتابع (الشيخ عبد القاهر) قوله :

((فان قيل : قولك الا النظم يقتضي اخراج ما في القرآن من الاستعـــارة وضروب المجاز من جملة ما هو به معجز ، وذلك ما لا مساغ له . قيل ليس الأمر كما ظننت ، بل ذلك يقتضي دخول الاستعارة ونظائرها فيما هو به معجـــز ،

---

(١) سورة البقرة من الآيـة ١٦ .
(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٨٦ والبيت من الطويـل .
خروق : الخرق : الرجة وجمعه خروق . انظر اللسان ١/ ٧٣ مادة خرق .
عـــلاط : العلاط : وسمة في عرض عنق البعير والناقة . انظر اللسان ٧/ ٣٥٣ مادة (علط) .
مخبوطـة : خبط فهو مخبوط . وخبطه خبطا : وسمه بالخباط وهو الوسم في الوجه . انظر اللسان ٧/ ٢٨٣ .
ملاغـــم : ما حول الفم الذى يبلغه اللسان . انظر اللسان مادة (لغـــم) ١٢/ ٥٤٥ .

وذلك لأن هذه المعاني التي هي الاستعارة والكناية والتمثيل وضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم ، وعنها يحدث ، وبها يكون ، لأنه لا يتصور أن يدخل شئ منها في الكلم وهي أفراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو)) (١) .

٣ - ومن جهود الشيخ عبد القاهر الخاصة في هذا الموضوع ، أنه قسمه الى قسمين :

أ - مجاز عقلي

ب - مجاز لغوى .

وأخذ في حد كل قسم وبيانه ، وضرب أمثلته ، وان كان المجاز العقلي عرف فيما سبق عند العلماء الأوائل ، الا أن أحدا لم يضع له هذا الاسم وكذا المجاز اللغوى الذى يقول في حده : (انك ذكرت الكلمة وأنت لا تريد معناها ، ولكن تريد معنى ما هو ردف له أو سببه ، فتجوزت لذلك في ذات الكلمة وفي اللفظ نفسه) (٢) .

٤ - وكان من جهود الشيخ عبد القاهر في المجاز العقلي قضية :

هل لكل مجاز حقيقة يرجع اليها ؟ :

فكانت اجابة الشيخ عبد القاهر الفاصلة في هذا الموضوع أنه ليس بلازم ، ففي المجازات مالا يعهد وجود فاعل له ، وقد خالفه جمهور البلاغيين ، مثل فخر الدين الرازى ، والخطيب القزويني ، وهذه المسألة مبسوطة فى كتب البلاغة المتأخرة . يقول في ذلك :

((اعلم أنه ليس بواجب في هذا أن يكون للفعل فاعل في التقدير ، اذا أنت نقلت الفعل اليه عدت به الى الحقيقة ، مثل أنك تقول في : (ربحت

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٦١ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

تجارتهم) ربحوا في تجارتهم ، وفي (يحمى نساءنا ضرب) : نحمى نساءنا بضرب ، فإن ذلك لا يتأتى في كل شيء ألا ترى أنه لا يمكنك أن تثبت للفعل في قولك : أقدمنى بلدك حق لي على إنسان فاعلا سوى الحق ، وكذلك لا تستطيع في قوله :

وصيرنى هواك وبي ... لِحَينى يضرب المثلُ (١)

و قوله - أبو نواس -

يزيدك وجهه حسنا ... إذا ما زدته نظرا (٢)

أن تزعم أن لصيرني فاعلا ، قد نقل عنه الفعل ، فجعل للهوى كما فعل ذلك في (ربحت تجارتهم) (و يحمى نساءنا ضرب) ولا تستطيع كذلك أن تقدر ليزيد في قوله : يزيدك وجهه فاعلا غير الوجه ، فالاعتبار اذن بأن يكون المعنى الذى يرجع إليه الفعل موجودا في الكلام على حقيقته)) . (٣)

يقرر الشيخ عبد القاهر أنه ليس واجبا تقدير فاعل لكل مجاز عقلي ، فمن المجازات ما يصح فيها تقدير فاعل ، ومنها مالا يوجد له في الاستعمال المشهور فاعل . ولقد ضرب لذلك ، الكثير من الأمثلة لإثبات رأيه .

---

(١) البيت من الوافر وقائله محمد بن اليزيدى .

(٢) البيت من الوافر وقائله أبو نواس .

(٣) دلائل الاعجاز ص ٨٨ ، ٢٨٩ .

٥ = كما كان من مجهوداته العظيمة في هذا الباب أنه اهتدى إلى دقائق معانيه على أن هذا الموضوع من الإتساع و الشمول بحيث لم يلم شتاته باحث قبله . فقسم المجاز من حيث الطرفان ووجه الشبه والقرينة .

٦ = كما بين قيمة المجاز البلاغية :

للمجاز قيمة كبيرة ليس في المعاني البلاغية فقط ، بل لأن هذه المعاني تدخل في القرآن الكريم و تحتاج في تفسيرها إلى دراية بهذا العلم ، و خبرة في معرفة أصوله ، يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني :

(و هذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة ، و مادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ في الإبداع و الإحسان و الإتساع في طريق البيان ، و أن يجيء بالكلام مطبوعا مصنوعا و أن يضعه بعيد المرام ، قريبا من الأفهام) .(١)

ثم إن الشيخ عبد القاهر كأنه يرد على من يقولون أن المجاز العقلي لا ميزة فيه بدليل مثل هذه المجازات التي أصبحت كأنها حقائق ، فيتابع قوله :

(لا يغرنك من أمره أنك ترى الرجل يقول : أتى بي الشوق إلى لقائك ، و سار بي الحنين إلى رؤيتك ، و أقدمني بلدك حق لي على إنسان و أشباه ذلك مما تجده لسعته و شهرته يجرى مجرى الحقيقة التي لا يشكل أمرها ، فليس هو كذلك أبدا ، بل يدق و يلطف حتى يمتنع على مثله إلا على الشاعر المفلق و الكاتب البليغ ، و حتى يأتيك بالبدعة لم تعرفها ، و النادرة تأنق لها)) .(٢)

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٨ .

ولقد بدأت نقطة خلاف بين الباحثين حول من الذى ابتكر المجاز العقلي وما الذى يقصده (الدكتور طه حسين) حين قال :

((ولكي يقرر عبد القاهر مذهبه هذا ، فإنه يتعمق في دراسة المجاز والتشبيه تعمقا لم يسبق إليه ، ولكن من غير أن يخرج بحال من الحدود التي رسمها أرسطو ، أما المجاز العقلي ، فهو من ابتكار (عبد القاهر) ، ويصح أن نسميه المجاز الكلامي)) .(١)

إن كلام (الدكتور طه حسين) يدل على أن (عبد القاهر) صاحب المجاز العقلي ويدل على ذلك كلمة إبتكار ، ثم إنه مع ذلك يراه دائرا في فلك أرسطو .

ومع هذا فقد بعد (الدكتور أحمد مطلوب) عن فهم مقصد (الدكتور طه حسين) ، حيث يقول : ((ولا نظن أن المقصود بكلام الدكتور طه حسين أن نقول عبد القاهر هو الذى أوجد هذا الفن ، وإنما قصده أنه وضع لهذا اللون من المجاز مصطلحا فسماه عقليا وإسناديا وحكميا ، وفي الاثبات ميزة عن الآخر وفصل القول فيه ، والأمثلة التي ذكرها وأعادها الدكتور تدل على أنه لون عرفه العرب منذ الجاهلية ، وجاء في القرآن)) .(٢)

ونجد (الدكتور أحمد مطلوب) يسير على طريقة (الدكتور محمد أبوموسى) في عدم نسبة إبتكار المجاز العقلي إلى عبد القاهر الجرجاني ، لأن (الدكتور شوقي ضيف) يقول : (والذى لا شك فيه أنه يعد مكتشف المجاز ، لا في الكلمات ، وإنما في الإسناد ، ولذلك سماه مجازا حكميا أو عقليا) (٣) .

ولقد ناقشه (الدكتور محمد حسنين أبو موسى) حين قال :

((حسبت أن هناك خطأ في الكتاب ، أو في ترتيب صفحاته ، فقد عهدت الاستاذ عافاه الله دقيقاً في فهمه الكثير من مسائل هذه اللغة

---

(١) مقدمة نقد النثر ص ٣٠ ، المنسوب لقدامة بن جعفر / المطبعة الاميرية ببولاق ، القاهرة ١٩٤١م .

(٢) عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده ، نشر وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط ١ / بيروت ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م ، ص ٢٤٢ .

(٣) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٨٥ ، ط ٤ / دار المعارف - القاهرة .

أما أن عبد القاهر مكتشف المجاز الحكمي فذلك باطل بدليل ما قدمناه من جهود السابقين على عبد القاهر).[١]

قضيـــة النعت بالمصـادر :

هناك من الأبيات ما ترددت في كتب البلاغـــة ودارت حولها قضية ، نظرا لاختلاف آراء العلماء فيها ، ومن ذلك قـــول الخنساء :

ترتع ما رتعت حتى اذا ادكـرت
فإنما هي اقبال وادبـــار [٢]

لقد استشهد هذا البيت منذ القدم ، فقد استشهد به(سيبويه)على التجوز في الإخبار عن اسم العين بالمصدر يقـول : (فجعلها الإقبال والإدبار، فجاز على سعة الكلام ،كقولك نهارك صائم وليلك قائم).[٣]

ولقد قدم لشرح هذه القضية بقوله : (وأما قولك : إنما أنت سـير فإنما جعلته خبراً لأنت ولم تضمر فعلاً ،وسنبين لك وجهه إن شـاء الله).[٤]

فقد أجاز(سيبويه)أن نخبر بـ (سير) عن أنت ، ولسنا في حاجة إلـى تقدير فعل ، لأن المصادر يصح أن يخبر بها .

ولكن سنلاحظ أن هناك من سار على طريقة(سيبويه)وآخرون لم يسـيروا. ومنهم من جوز الوجهين معاً مثل المبرد (ت ٢٨٥ هـ) حيث يقول : (كما قال الشاعر :

ترتع ما رتعت حتى إذا ادّكرت
فإنما هي إقبال وإدبـار

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ١٧٠ . دار الفكر العربي .
(٢) البيت من البسيط .
(٣) الكتاب ١/ ٣٣٧ .
(٤) المصدر نفسه ١/ ٣٣٦ .

أى ذات إقبال وإدبار ، ويكون على أنه جعلها الإقبال والإدبار لكثـــرة ذلك منها). (١)

أى أن(المبرد) أجاز أن يكون في البيت تقدير محذوف فيكون على معـــنى ذات إقبال وإدبار .

كما يجوز أن تكون جعلتها الإقبال والإدبار . اى كأنما تجسمت الإقبال والإدبار كله . لتدل بذلك على تمكن الاضطراب والحيرة من الناقة أو البقرة لفقد وليدها ، ولتمكن الحزن والأسى من نفس الخنساء .

وهذا الرأى الأخير هو ما سار عليه(الشيخ عبد القاهر الجرجانـــي) - كما سنرى - .

ونلحظ(للآمـدى) دورا هاما في هذا البيت . وما ذلك إلا أن الصورة قد وضحت في ذهنه ، فانعكس ذلك على كتاباته في هذا الموضوع ، ونضـــوج هذه الفكرة ليس وليد الساعة ، بل هي نتائج اعتمد في استخلاصها علـــى ما تقدم به سابقوه .

وهذا واضح في تعليقه على بيت الخنساء حين يقول : (فجعلت الناقة هي الإقبال والإدبار ، لأن ذلك كثر منها ، وإن شئت كان المعـــنى ذات إقبال وإدبار ، فأقمت المضاف إليه مقام المضاف ، فهذه طريقـــة الوصـــف بالمصادر). (٢)

---

(١) المقتضب ٣/ ٢٣٠ ومعنى بيت الخنساء : أنها ضربت الناقة مثـــلا لحالها عند فقدها أخاها صخرا . وذلك أنه في حال نسيان تلـــك الناقـــة أو البقرة وليدها فإنها ترتع ، ولكن عندما تعاودها ذكرى فقده ، تعود لحالة الاضطراب والحيرة ، فإذا هي مقبلة مدبرة .

(٢) الموازنة ١/ ١٧٣ ط/ دار المعارف .

وحتى (الآمدي) سار على طريق (المبرد) في هذا البيت حيث أجاز أن يكون تقدير البيت : هي إقبال وإدبار ، لأن ذلك كثر منها ، وأجاز أن يكون التقدير على معنى ذات إقبال وإدبار .

فا (الآمدي) بين في هذا النص غرض الوصف بالمصدر ، وأنه يصح في حالة خاصة وهي المبالغة .

ويعقب على تقريره هذا أمثلة متعددة لتبيين غرضه ووجهة نظره حيث يقول : ((ولكن قد تستعمل هذه المصادر وصفا على نحو ما ذكرته فيقال : هند الحسن كله ، ودعد الجمال أجمعه ، وزيد الهرم أقصاه وعبد الله البغض نفسه والتيه عينه ، فإن شئت كان المعنى هند صاحبة الحسن كله ودعد ذات الجمال أجمعه ، وزيد أخو الهرم ، وعبد الله ذو التيه ، فأقمت المضاف اليه مقام المضاف)) .(١)

أما ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) : فانه لا يرى في هذا البيت تقدير محذوف وذلك حفاظا على المعنى المطلوب وهو المبالغة . ولم ير فيه وجها آخر يقول : ((وما كان مثله ، من قبل أن من وصف بالمصدر فقال : هذا رجل زور وصوم ، ونحو ذلك ، فإنما ساغ ذلك له لأنه أراد المبالغة ، وأن يجعله هو نفس الحدث ، لكثرة ذلك منه ، والمرة الواحدة هي أقل القليل من ذلك الفعل ، فلا يجوز أن يريد معنى غاية الكثرة ، فيأتي لذلك بلفظ غاية القلة ولذلك لم يجيزوا زيد إقباله وإدباره قياسا على زيد إقبال وإدبار)) .(٢)

وإن (ابن جني) لا يرى ذلك الوصف بالمصدر جائزا فقط بل هو الوجه المطلوب ، لأن القائل يريد المبالغة فجعله نفس الحدث لكثرة حدوثه منه .

---

(١) الموازنة ١/ ١٧٣ .

(٢) الخصائص ٣/ ١٨٩ .

وهولا يرى ذلك وجها مطلقاً بل هو الأقوى . يقـــول :

((وأقـــوى التأويلين في قولها :

(فإنما هي إقبال وإدبـــار)

أن يكون من هذا ، أى كأنها مخلوقة من الإقبال والإدبار لا على أن يكون من باب حذف المضاف أى ذات إقبال وذات إدبار ، ويكفيك من هذا كلـــه قول الله عز وجل (خلق الانسان من عجل)) (١) وذلك لكثرة فعله اياه ، وإعتياده له . وهذا أقوى معنى من أن يكون أراد : خلق العجل من الإنسان لأنه أمر قد اطرد واتسع ، فحمله على القلب يبعد في الصنعة ويصغّر المعنى وكأن هذا الموضع لما خفى على بعضهم قال في تأويله : إن العجل هنـــا الطين ، ولعمرى إنه في اللغة كما ذكر ، غير أنه في هذا الموضع لا يراد بـــه إلا نفس العجلة والسرعة)) .(٢)

ولقد أعاد الحديث عن هذا البيت ، وأنه على المصدر نفسه للمبالغـــة وهذا من ألطف الوجوه وأصنعها . يقـــول :

إن شئت على وجه آخر أصنع من هذا وألطف ، وذلك أن تجعلـــه نفسه هو المصدر للمبالغة كقول الخنساء :

ترتع ماغفلت حتى إذا ادكـــرت
فإنما هي إقبال وإدبـــار

إن شئت على ذات إقبال وإدبار ، وإن شئت جعلتها نفسها هي الإقبال والإدبار ، أى : مخلوقة منها ، ويدلك على أن هذا معنى عندهم لا علـى حذف المضاف ، بل لأنهم جعلوه الحدث نفسه)) (٣) وذلك لأن المعنى فـي

---

(١) سورة الأنبياء من الآية ٣٧ .

(٢) الخصائص ١٢ ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٣) المحتسب ٢/ ٤٦ تحقيق : على النجدى ناصف ، الدكتور عبد الفتاح شلبي لجنة احياء التراث الاسلامي بمصر / القاهر) ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩م .

البيت يختلف عنه في الآية الكريمة (واسأل القرية) اى : أهلها هكذا علقت عن أبي على في تفسير هذه اللفظة ، وقت القراءة عليه) .(١)

وآن لي الآن أن أبين رأى(الشيخ عبد القاهر الجرجاني)، وسوف أبين بإذن الله - مدى صلة هذا الرأى(بسيبويه)وصلته(بابن جنى) الذى سار (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) على نفس طريقته في التحليل فاعتمد عليه في نفس الفكرة ذاتها ، وإن كان قد استعار بعض ألفاظ(ابن جنى) . كما سنرى أنه اعتمد فى طريقةعرض الأمثلة لكلامه على الآمدى وإن اختلفت تلك الأمثلة .

يقول(الشيخ عبد القاهر):

(ومما طريق المجاز فيه الحكم قول الخنساء :

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت
فإنما هي إقبال وإدبار

وذاك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما فتكون قد تجوزت في نفس الكلمة وإنما تجوزت في أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر ولغلبة ذاك عليها واتصاله بها ، وأنه لم يكن لها حال غيرها كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار ، وإنما كان يكون المجاز في نفس الكلمة لو أنها كانت قد استعارت الإقبال والإدبار لمعنى غير معناهما الذى وضعا له في اللغة ، ومعلوم أن ليس الاستعارة مما أرادته في شيء) .(٢)

(فالشيخ عبد القاهر الجرجاني)يرى أن الخنساء أرادت أن تصف شدة إقبال وإدبار هذه الناقة ، كأنها تجسدت من الإقبال والإدبار نفسه .

---

(١) سر صناعة الاعراب لابن جنى جـ١ ٢٤ ط١ ١٤٠٥ تحقيق/ د . حسن هنداوى .

(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٩٢ .

ولم يكن مجازا في نفس الكلمة ، لأنها لم تستعر الإقبال والإدبار لغير معناهما الذى وضعا لأجله في اللغة . ثم يتابع تعليقه على هذا البيت قائلا :

((واعلم أن ليس بالوجه أن يعد هذا على الإطلاق بعد ما حذف منه المضاف و أقيم المضاف إليه مقامه، مثل قوله عز وجل :

(واسأل القرية (١))) (٢) .

فهو يخرج هذا البيت من دائرة تقدير محذوف مثل (ابن جني) ، لأن المعنى في البيت كما قدم يختلف عنه في الآية الكريمة .

ويصر الشيخ عبد القاهر الجرجاني على رأيه هذا مثل ابن جنى ، بل يعد تقدير محذوف يخرج البيت من البلاغة إلى شيء تافه باهت ، وكأنه يرد على المبرد ومن له مثل رأيه . يقول :

لأنا إذا جعلنا المعنى فيه الآن كالمعنى إذا نحن قلنا : فإنما هي ذات إقبال وإدبار : أفسدنا الشعر على أنفسنا ، وخرجنا إلى شيء مفسول ، وإلى كلام عامي مرذول ، وكان سبيلنا سبيل من يزعم مثلا في بيت المتنبي :

بدت قمرا ومالت خُوط بان (٣)
وفاحت عنبرا ورنت غزالا

أنه في تقدير محذوف ، وأن معناه الآن كالمعنى إذا قلت : بدت مثل قمر ومالت مثل خوط بان ، وفاحت مثل عنبر ورنت مثل غزال . :

في أنا نخرج إلى الغثاثة ، وإلى شيء يعزل البلاغة عن سلطانها ويخفض من شأنها ، ويصد أوجهنا عن محاسنها ، ويسد باب المعرفة

---

(١) سورة يوسف آية ١٨ .
(٢) الدلائل ص ٢٩٢ .
(٣) البيت من الوافر .

بها ، ولطائفها علينا ، فالوجه أن يكون تقدير المضاف في هذا على معنى أنه لو كان الكلام قد جيء به على ظاهره ، ولم يقصد إلى الذى ذكرنا من المبالغة والإتساع ، وأن تجعل الناقة كأنها قد صارت بجملتها إقبالا وادبارا ، حتى كأنها قد تجسمت منهما)[1] .

يريد الشيخ عبد القاهر أن يقول : أن المعنى في بيت المتنبي في قوله : بدت قمرا ، ومالت خوط بان ، يختلف عن المعنى عند تقديره بدت مثل قمر ، ومالت مثل خوط بان ، لأن في هذا الكلام الأخير خروجا عن البلاغة بل هو كلام عار منها .

ولم يصح تقدير محذوف في بيت المتنبي ، ولا في بيت الخنساء ، لأن كلا منهما أراد المبالغة والاتساع . وهذا لا يتأتى إذا قدر محذوف .

---

(١) الدلائل ص ٢٩٣ .

الفصل الثالث

قضية اعجاز القرآن الكريم كما في الرسالة الشافية

(وبه ملحق الصرفة)

الفصل الثالث

قضية إعجاز القرآن
كما في الرسالة الشافية

لقد بلغ القرآن الكريم ذروة البلاغة ، مما استحق به أن يكون معجزة البيان العربي ، ولا غرو فالقرآن الكريم قد سحر العرب ، وهم أرباب البلاغة وفرسان البيان منذ اللحظة الأولى ، فأخذوا لذلك يبحثون عن السر وراء هذا الانقلاب السريع الذى خالج نفوسهم ، وقلب حياتهم رأساً على عقب ، حتى أصبح مبدأهم قوله تعالى : (قُل إن صلاتي ونُسُكِي ومَحْيَاى ومَمَاتى للهِ ربِّ العَالمِينْ ، لا شريك له ، وبذلك أُمِرْتُ وأنا أولُ المسلمين) (١) .

لقد أحدث القرآن ما أحدثه في نفوسهم وعقولهم ، مما دعاهم إلى تغيير مبادئهم ، وإلى أن ينهلوا من وِرده الصافى ، يتلمسون مواضع بيانه وسره ، الذى سحرهوهم قوم اشتهروا بالبلاغة والبراعة ، فكانت سلاحهم الذى يذود عنهم ، ولسانهم الذى يسجل بطولاتهم وأخبارهم وأحوالهم بكل دقة وبراعة ، نراهم أمام روعة القرآن البيانية ، وقفوا مبهوتين مسحورين ، وإن أدركوا الإعجاز بسلائقهم .

فماجت بفريق منهم الأرض واهتزت من تحت أقدامهم ، واضطربت نفوسهم حائرة ، بماذا يردون على هذا النبأ العظيم ، ومن ثم اختلط عليهم الأمر اختلاطاً حمل بعض سفهائهم على أن يقولوا مرة انه سحر ، ومرة إنه كلام بشر ، وثالثة أساطير الأولين .

كل هذا كان بعض محاولاتهم ، لأن يطفئوا نور الله بأفواههم ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره .

واختلطت الأمور بعد عصر النبوة على بعض النفوس ، فنهض علماء المسلمين للدفاع عن القرآن ودحض الشبهات الدخيلة .

وكان (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) أحد من تصدوا للدفاع عن القرآن الكريم ، ورد كل الشبهة التى تحوم حول اعجازه ، فوقف معظم مؤلفاته على هذا الغرض ، وجعل هدفها الأول بيان الحق ، وجلاء كل صغيرة وكبيرة قد تحول بين المرء

---

(١) سورة الأنعام من الآية ١٦٢ .

وقلبـــه .

فجعل من (الرسالـة الشافيـة) ، ومن (دلائل الاعجـاز) مرجعين هامين يستطيع كل معاند ، يرى في نفسه شبهة في اعجاز القرآن الرجوع اليهما ، حـــيث يقف على أن العرب ، وهم أرباب الفصاحة وفرسان البيان ، قد عجزوا عن الاتيـــان بمثل القرآن الكريم ، أو محاولة التصدى له بأية محاولة ، ويجد الأدلـة الدامغـــة التي تبطـل كل شبهـــة وتزيل كل ريب .

قال (الشيخ عبد القاهر) : ((هذه جُمل من القول في بيان عجز العرب ، حين تحدوا إلى معارضة القرآن ، وازدعانهم وعلمهم أن الذى سمعوه فائت للقـــوى البشرية ، ومتجاوز للذى يتسع له ذرع المخلوقين ، وفيما يتصل بذلك ، مما لـــــه اختصاص بعلم أحوال الشعراء والبلغاء ، ومراتبهم ، وبعلم الأدب جملة)) (١) .

اذاً فهدف الرسالة واضح ، وهو إثبات عجز العـرب عن معارضة القرآن ، وتقريـر ذلك بكل ما يمكن من البراهين ، ودحض الشبهة ، بصرف دلالات الأحوال ، ودلالات الأقوال .

وهناك كثير من العلماء قد أجهدوا أنفسهم في تقصـي حقيقة الإعجاز وطبيعتـه لأن الإعجاز من الأمور التي تتعلق بجمال الكلام وفنونه وليس ظاهرة كونية ، كتلك التي أُنزلت على الرسل والأنبياء السابقين كقلب العصا حية ، وإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبـرص .

بل هي حقيقـة تتعلق بموضوع جمال الكلام ، لأن آية التحدى تطالب بعشر سور من مثله ، أو بسورة ولو مفتراه .

ومسألة الجمال تخضع للذوق والإحساس الخاص ، وخاصة أن العرب آنذاك قـــد بلغوا مرحلة عظيمة في جمال القول والتفنن في الكلام والمُحاجّـــة .

لهذا كان على الباحث في إعجاز القرآن الكريم ، أن يتتبـع نظرات السابقـين في إعجـاز القرآن الكريـم ، حتى يلمح بارقة أمل جديدة في وجوه إعجازه .

---

(١) الرسالة الشافية ص١١٧ / ضمن ثلاث رسائل ط ٣ ، ت ، محمد خلف اللـــه أحمـــد /د.محمد زغلول سـلام .

لهذا سوف أعرض رأى (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) في إعجاز القرآن في رسالته الشافية ، ومن خلال ذلك سوف أعود برأيه إلى أصل قد يكون استمد منه أو من أوحى اليه بفكرة ، وكذلك أنوه بالآراء التى ردها وأبطلها .

وسأبدأ إن شاء الله (بالجاحظ ت٢٥٥ هـ) وأستطلع آراءه البيانية في إعجاز القرآن ، ولم أكن بذلك متخطية للعلماء السابقين ، ذلك أن البحث في إعجاز القرآن لم يكن محدداً لذاته أو منفرداً بمؤلفات خاصةٍ به ، ويدلنا على ذلك التاريخ الأدبي في القرن الثالث الهجرى ، الذى احتدم فيه الصراع بين الفِرق الكلامية ، فنشأت طوائف وجماعات لا مجال لذكر تاريخها هنا .

وعلى كلِ حال ، فأشهر ما أثر عن الجاحظ (رسائل الجاحظ) ، تحدث فيها عن معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن بلاغة القرآن الكريم هى معجزته الكبرى .

يقول الجاحظ :

((إن محمداً صلى الله عليه وسلم مخصوصٌ بعلامة لها في العقل موقع كموقع فلق البحر من العين ، وذلك قوله لقريش خاصة ، وللعرب عامة ، مع مافيهما من الشعراء والخطباء والبلغاء والدهاة والحكماء وأصحاب الرأى والمكيدة ، والتجارب والنظر في العاقبة إن عارضتموني بسورة واحدة ، فقد كذبت في دعواى وصدقتم في تكذيبي))(١) .

إن دعوته صلى الله عليه وسلم عُرفت بين العرب عامة ، وانتشر تحديه للكافة ، بأن يأتوا ولو بسورة واحدة ، يعارضون بها القرآن الكريم ، فيصدقون ، ويكون كاذباً في دعوته .

وكانت حجته هذه من جنس ما عُرف لديهم وشاع بينهم من القول السديد والشعر البليغ .

هذا هو التحدى الذى قوبل به العرب ، فلما لم تكن المعارضة والدعوة إليها صريحة قائمة ، ثبت عجزهم ، وبطلت دعواهم بعدم إعجاز القرآن .

---

(١) رسائل الجاحظ ص ٢٧٣ / جـ ٣ / ط ١ ، ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م تحقيق عبد السلام هارون .

وإن هذه الفكرة قد تناولهـــا (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) في (الرسالة الشافيـــة) حين قال :

((فكيف يجوز أن يظهر في صميم العرب ، وفي مثل قريش ذوو الأنفس الأبيـــة والهمم العلية ، والأنفة والحمية من يدعي النبوة ، ويخبر أنه مبعوث من الله تعالـى إلى الخلق كافة ، وأنه بشير بالجنة ونذير بالنار ، وأنه قد نسخ به كل شريعـــــة تقدمته ، ودين دان به الناس شرقاً وغرباً وأنه خاتم النبيين ، وأنه لا نبي بعـــده إلى آخر ما صدع به صلى الله عليه وسلم ، ثم يقـول : وحجتي أن الله تعالى قـد أنزل عليّ كتاباً عربيـاً مبينـاً ، تعرفون ألفاظه ، وتفهمون معانيه ، إلا أنكم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله ولا بعشر سور منه)) (١) .

أى أن العرب ، قد عُرفت بحميتهـا ، ومقدرتها البالغة في المحاجة والمخاصمة وتعلم هي أن سلامتها بحميتهـا وسلامة أبنائها وذراريها في انشاء قول يماثل مـا أنزل عليه صلى الله عليه وسلم ، ثم لا يقولون مثل قوله ، وهو أسلم من خوض الحـروب وإتلاف النفوس والمهج ، يقول (الشيخ عبد القاهر) في ذلك :

((هل يجوز أن يخرج خارج من الناس على قوم لهم رياسة ، ولهم دين ونحلة ، فيؤلب عليهم الناس ، ويدبر في إخراجهم من ديارهم وأموالهم ، وفي قتل صناديدهم وكبارهم ، وسبي ذراريهم ، وأولادهم ، وعدته التي يجد بها السبيل إلى تأليـف من يتألفه ، ودعاء من يدعوه ، دعوى له إذا هي أبطلت بَطُـل أمره كله ، وانتقـض عليه تدبيره ، ثم لا يعرض له في تلك الدعوى ولا يُشتغل بإبطالها مع إمكان ذلـك ومع أنه ليس بمتعـذر ولا ممتنـع ؟ .

وهل مثل هذا إلا مثل رجل عرض له خصم من حيث لم يحتسبه فادعى عليه دعوى إن هي سمعت كان منها على خطر في ماله ونفسه ، فأحضر بيّنة على دعواه تلـك ، وعند هذا المدعى عليه ما يبطل تلك البينة أو يعارضها ، وما يحول على الجملـة بينه وبين تنفيذ دعواه ، فيدع إظهار ذلك والاحتجاج به ، ويضرب عنه جملة ، ويدعه وما يريد من إحكام أمره وإتمامه ، ثم يصير الحال بينهما إلى المحاربة وإلى الإخطار بالمهج والنفوس فيطاوله الحرب ويقتل فيها أولاده ، وأعزته ، وينهك عشيرته ويغنم أمواله ولا يقع له في أثناء تلك الحال أن يرجع إلى القاضي الذى قضى لخصمـــه

---

(١) الرسالة الشافية ص ١٢٠ .

ولا إلى القوم الذين سمعوا منه وتصوروه بصورة المُحِق . فيقول :

« لقد كانت عندى حين ادعى ما ادعى - بينة على فساد دعواه وعلى كذب شهوده قد تركتها تهاوناً بأمره أو أنسيتها ، أو منع مانع دون عرضها » (١) .

وقضت الحكمة أن لا تلجأ أمة إلى الحرب ولا تدفع بأبنائها الى الموت ، وفى يدها أن تمنع ذلك بأقصر طريق ، وهو طريق الكلام .

إذ أن الخصم لم يكن يحاجهم بأكثر من معارضة القرآن بمثله . وقد عرض لهذه الشبهة (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) في رسالته الشافية ، وكان مرجعه في ذلك الجاحظ الذى يقول :

((ومُحالٌ في التعارف ، ومستنكرٌ فى التصادق ، أن يكون الكلام أقصر عندهم وأيسر مئونة عليهم ، وهو أبلغ في تكذيبهم ، وأنقض لقوله ، وأجدر أن يعرف ذلك أصحابه ، فيجتمِعُوا على ترك استعماله والإستغناء به ، وهم يبذلون مهجهم وأموالهم ، ويخرجون من ديارهم في إطفاء أمره ، وفي توهين ما جاء به ، ولا يقولون بل لا يقول واحد من جماعتهم : لم تقتلون أنفسكم ، وتستهلكون أموالكم ، وتخرجون من دياركم ، والحيلة في أمره يسيره ، والمأخذ في أمره قريب ؟ ليؤلف واحد من شعرائكم وخطبائكم كلاماً في نظم كلامه ، كأقصر سورة يحدّ لكم بها ، وكأصغر آيةٍ دعاكم إلى معارضتها ، بل لو نسوا ما تركهم حتى يذكرهم ، ولو تغافلوا ما ترك أن ينبههم ، بل لم يرض بالتنْبيه دون التوقيف ، فدل ذلك العاقل على أن أمرهم في ذلك لا يخلو من أحد أمرين :

إما أن يكونوا عرفوا عجزهم ، وأن مثل ذلك لا يتهيأ لهم فرأوا أن الإضراب عن ذكره ، والتغافل عنه في هذا الباب وإن قرّعهم به ، أمثل لهم في التدبير ، وأجدر أن لا يتكشف أمرهم للجاهل والضعيف ، وأجدر أن يجدوا إلى الدعوى سبيلاً وإلى محاربة الأنبياء سبباً . فقد ادعوا القدرة بعد المعرفة بعجزهم عنه ، وهو قوله عزّ ذكره :

(وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا) (٢)

---

(١) الرسالة الشافية ص ١٢١ .

(٢) سورة الأنفال آية ٣١ .

وهل يذعن الأعراب وأصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز والتوقيف على النقص ثم لا يبذلون مجهودهم ولا يخرجون مكنونهم وهم أشد خلق الله عز وجل أنفة وأفرط حمية ، وأطلب بطائله ، وقد سمعوه في كل منهل وموقف .

والناس موكلون بالخطابات ، مولعون بالبلاغات ، فمن كان شاهداً فقد سمعه ومن كان غائبا فقد أتاه به من لم يزوده)) (١) .

ولقد تتبعت هذه الفكرة ، فوجدت أن الخطابي قد تبع فيها الجاحظ ، وسبق بها عبد القاهر الجرجاني .. يقول :

((إن النبي صلى اللّهُ عليه وسلم قد تحدى العرب قاطبةً بأن يأتوا بسورة من مثلهِ فعجزوا عنه ، وانْقطعُوا دونَهُ ، وقد بقي صلى الله عليه وسلم يطالبهم به مدة عشرين سنة ، مظهراً لهم النكير زارياً على أديانهم ، مسفهاً آراءهم ، وأحلامهم ، حتى نابذوه وناصبوه الحرب فهلكت فيها النفوس ، وأريقت المهج ، وقطّعت الأرحام ، وذهبت الأموال .

ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدارهم ، لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة ، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة ، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول إلى الحزن الوعر من الفعل ، وهذا ما لا يفعله عاقل ، ولا يختاره ذو لب ، وقد كان قومه قريش خاصة ، موصوفين برزانة الأحلام ، ووفارة العقول والألباب ، وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلقون ، وقد وصفهم اللهُ تعالى في كتابه بالجدل واللدد ، فقال سبحانه : (ما ضربوه لك إلا جدلاً ، بل هم قوم خصمون) (٢) ، وقال سبحانه : (وتنذر به قوماً لدّا) (٣) .

فكيف كان يجوز على قولِ العرب ومجرى العادة ، مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة - أن يغفلوه ولا يهتبلوا الفرصة فيه ، وأن يضربوا عنه صفحا ، ولا يحوزوا الفلج والظفر فيه ، لولا عدم القدرة عليه والعجز المانع منه ، ومعلوم أن رجلا عاقلاً

---

(١) رسائل الجاحظ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

(٢) سورة الزخرف آية ٥٨ .

(٣) سورة مريم آية ٩٧ .

الفواقر : ج/فاقرة وهي الداهية . انظر اللسان مادة (فقر) ٥/٦٤ .

مبيرة : ((مبير : أي مهلك يسرف في اهلاك الناس)) اللسان مادة (بور) ٤/٨٦ .

يهتبلوا : من الاهتبال وهو الاغتنام والاحتيال والاقتناص . انظر اللسان مادة هبل ١١/٦٨٧ .

لو عطِش عطشا شديدا ، خاف منه الهلاك على نفسه وحضرته ماء معرض للشرب فلم يشربه حتى هلك عطشاً ، لحكمنا أنه عاجز عن شربه غير قادر عليه ، وهذا بين واضح لا يشكل على عاقل)) (١) .

فعجز العرب عن معارضة القرآن الكريم ، ووقوفهم أمام إعجازه مبهوتين حائرين ، يدل على عظمة القرآن القاهرة ، التي خذلتهم فجعلتهم يستقلون أطول طريق في رد هذه الدعوى على صاحبها ، ألا وهو طريق الحرب ، ذلك أنه لا يعقل أن يكون الماء أمام عطاشى فلا يشربون منه ، فإن لم يفعلوا دل ذلك على عجزهم وقصورهم عن تناوله .

و (الباقلاني) قد احتج بهذه الفكرة أيضا ، وذلك حين يقول :

((فإذا ثبت هذا وجب أن يعلم بعده ، أن تركهم الإتيان بمثله كان لعجزهم عنه ، والذى يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن : أنه تحداهم إليه ، حتى طال التحدى وجعله دلالة على صدقه ونبوته ، وضمّن أحكامه إستباحة دمائهم ، وأموالهم وسبي ذريتهم ، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا ، وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكمه ، بأسر قريب هو عادتهم في لسانهم ، ومألوف من خطابهم ، وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال وإكثار المراء والجدال ، وعن الجلاء عن الأوطان وعن تسليم الأهل والذرية للسبي .

فلما لم يحصل هناك معارضة منهم ، علم أنهم عاجزون عنها ، يبين ذلك أن العدو يقصد لدفع قول عدوه بكل ما قدر عليه من المكايد ، لا سيما مع استعظامه ما بدهه بالمجيء من خلع آلهته ، وتسفيه رأيه في ديانته ، وتضليل آبائه ، والتغريب عليه بما جاء به ، وإظهار أمر يوجب الانقياد لطاعته ، والتعرف على إرادته ، والعدول عن الفه وعادته والإنخراط في سلك الاتباع بعد أن كان متبوعاً والتشييع بعد أن كان مشيّعا ، وتحكيم الغير في ماله ، وتسليطه إياه على جملة أحواله ، والدخول تحت تكاليف شاقة ، وعبادات متعبة ، بقوله وقد علم أن بعض هذه الأحوال مما يدعو إلى سلب النفوس دونه .

هذا والحمية حميتهم ، والهمم الكبيرة هممهم ، وقد بذلوا له السيف فأخطروا بنفوسهم وأموالهم ، فكيف يجوز أن لا يتوصلوا إلى الرد عليه ، وإلى تكذيبه بأهون

---

(١) رسالة الخطابي ضمن ثلاث رسائل ص ٢١ ، ٢٢ .

سعيهم ومألوف أمرهم ، وما يمكن تناوله من غير أن يعرق فيه جبين أو ينقطع دونه وتين أو يشتمل به خاطر وهو لسانهم الذى يتخاطبون به ، مع بلوغهم في الفصاحة النهاية التي ليس وراءها متطلع ، والرتبة التي ليس فوقها منزع)) (١) .

وإن كانت قريش قد ردت على الدعوى الإسلامية مناهضة بالسيف ، فذلك لأنها لم تستطيع أن تقف أمام بلاغة القرآن الكريم ببلاغة تضاهيه ، وكلام يدانيه .

وإن من المتعارف عليه من عادات الناس أن لا يعترفوا لخصومهم بالفضيلة ، وهم يجدون سبيلا إلى دفعها ، ولا يفعلون ، وقد عرف عن قريش ذوى النفوس الأبية ، أن يعلم الرجل أن بأقصى الإقليم من يفوقه شاعرا أو خطيبا ، أو كاتبا ولا تتحرك في نفسه الرغبة في مناهضته ولا يفعل .

فكيف إذا دعاه رجل إلى مباراته وحركه لمقاومته فلا يؤدى ذلك ، وخاصة إذا كان الأمر فيه مصير أمة وتغيير عقيدة .

ومثالنا (جرير) و (الفرزدق) ، وهما أقل شأنا ، ومساجلاتهما ومباراتهما لا يتوقف عليها تحديد مصير ، فإن واحدا منهما لا يرضى أن يُقال أن غيره من الشعراء أفضل منه ، ولا ينهض لمباراته ، وإثبات تفوقه .

يقول (الشيخ عبد القاهر) : ((أما الأحوال فدلت من حيث كان المتعارف من عادات الناس التي لا تختلف وطبائعهم التى لا تتبدل . أن لا يسلموا لخصومهم الفضيلة ، وهم يجدون سبيلاً إلى دفعها ، ولا ينتحلون العجز وهم يستطيعون قهرهم والظهور عليهم ، كيف وأن الشاعر أو الخطيب أو الكاتب يبلغه أن بأقصى الإقليم الذى هو فيه من يبأى بنفسه (٢) ، ويدل بشعر يقوله ، أو خطبة يقوم بها أو رسالة يعملها ، فيدخله من الأنفة والحمية ، ما يدعوه إلى معارضته وإلى أن يظهر ما عنده من الفضل ، ويبذل ماليه من المنه ، حتى إنه ليتوصل إلى أن يكتب إليه ، وأن يعرض كلامه عليه ببعض العلل ، وبنوع من التحمل ، هذا وهو لم ير ذلك الانسان قط ، ولم يكن منه إليه ما يهز ويحرك ، ويهيج على تلك

---

(١) اعجاز القرآن الباقلانى ص ٢٠ ، ٢١ ت / السيد أحمد صقر / دار المعارف ط٤

(٢) يبأى : اى يفخر ويباهى .

المعارضة ، ويدعو إلى ذلك التعرض ، وإن كان المدعى ذلك بمرأى منه ومسمع ، كان ذلك أدعى له إلى مباراته وإلى إظهار ما عنده ، وإلى أن يعرف الناس أنه لا يقصر عنه ، أو أنه منه أفضل ، فإن انضاف إلى ذلك أن يدعوه الرجل إلى مناقضته ويحركه لمقاولته ، فذلك الذى يسهر ليله ويسلبه القرار ، حتى يستفرغ مجهوده في جوابه ، ويبلغ أقصى الحد في مناقضته ، وقد عرفت قصة جرير والفرزدق)) .(١)

ولقد سجل (الباقلانى) كذلك أمر العرب الشعراء في المنافحة والمنافرة لقول الشعر ، يقول :

((ألا ترى أنهم قد ينافر شعراؤهم بعضهم بعضا ؟ ولهم في ذلك مواقف معروفة ، وأخبار مشهورة ، وآثار منقولة مذكورة ، وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة والذلاقة ، يتبجحون بذلك ويتفاخرون بينهم ، فلن يجوز والحال هذه - أن يتغافلوا عن معارضته لو كانوا قادرين عليها ، تحداهم ، أولم يتحدهم إليها)) (٢) .

ولقد صدق (الباقلانى) ، فالعرب عرفت حميتها وحرصها على المبارزة بالأقوال مهما كان الأمر ، وذلك لمقدرتها على طرق شتى ضروب القول . فلو كانوا قادرين على مثل القرآن ، لما تأخروا سواء كان القرآن متحديا أو غير متحد .

ولقد اضطربت العرب وماجت بهم الأرض ، فإذا هي تمور فيتزعزع سلطان عقولهم ، وسلطان مناصبهم لا يستطيعون أن يثبتوا على رأى ، ويتفقوا على كلم يقفون بها في وجه المسلمين ، وضد القرآن الكريم ، لذا خرست الألسن وتقطعت بهم أسباب القول دون أن ينبس أحدهم ببنت شفه ، تدل على محاولتهم أن يأتوا بمثل القرآن بل كانوا بين أمرين :

إما أن يخبروا عن أنفسهم بالعجز والقصور ، وذلك حين يخلو بعضهم إلى بعض ، وكانوا في حال صدق نفسي .

وإما أن يقولوا قول من أعوزته الحيلة ، وهو أن القرآن سحر مرة ، أو أنه

---

(١) الرسالة الشافية ص ١١٩ .
(٢) اعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٣ ، ٢٤ .

مأخوذ من فلان و فلان أناسٍ غير معروفين .

وكتب التاريخ و السّيرة و البلاغة ، كلها تسجل هذه الفكرة ، لم يؤثر أن أزهقت محاولات لمضاهاة القرآن الكريم . إلا تلك الترهات التي عرفت عن مسيلمة- إن كانت الرواية صحيحة - و هي خبط عشواء من القول يستطيع أن يدرك ضعفه أى ملم بالعربية له ذوقٌ و حسٌ نقي .

فهذا الخطابى يقول : ((صار المعاندون له ممن كفر به و أنكره ، يقولون مرة أنه شعر لما رأوه كلاما منظوما ، و مرة سحر إذ رأوه معجوزاً عنه ، غير متدور عليه ، و قد كانوا يجدون له وقعا في القلوب و قرعاً في النفوس يريبهم و يحيرهم ، فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعاً من الاعتراف ، ولذلك قال قائلهم : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وكانوا مرة لجهلهم و حيرتهم يقولون :

((أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرةً و أصيلا)) .[1]

مع علمهم أن صاحبه أمي وليس بحضرته من يملي عليه أو يكتب في نحو ذلك من الأمور التي جماعها الجهل و العجز)) [2]

و قصة الوليد بن المغيرة المخزومي مع القرآن الكريم و تردده و حيرته قد سجلها القرآن الكريم ، ووصف حال صاحبها على ضوء انفعالاته النفسية ، وصفاً تعجز عنه كتب الأدب ، لو ملئت كل الصحف حتى تجف الأقلام .

لأن الآية الكريمة في سطور قلائل استطاعت أن تنقلنا إلى جو ملؤه الجهل و الكفر و العناد ، فأشاعت في نفوسنا موجات رهبة الموقف و المصير الذى سوف يلقاه هذا الكافر حسب وصف الآية العظيمة .

يقول (الخطابي) مسجلاً هذا الحدث الشهير :

((أنه لما طال فكره في أمر القرآن الكريم ، وكثر ضجره منه ، وضرب له الأخماس من رأيه في الأسداس لم يقدر على أكثر من قوله : ((إن هذا إلا قول البشر)) [3] ، عنادا للحق و جهلاً به و ذهاباً عن الحجة و انقطاعاً دونها ،

---

(١) سورة الفرقان آيه ٥ .
(٢) رسالة الخطابي ص ٢٨ .
(٣) المدثر آيه ٢٥ .

و قد وصف القرآن حاله ، و شدة حيرته فقال سبحانه :

(إنه فكر و قدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ثم عبس و بسر ثم أدبر و استكبر ، فقال إن هذا الا سحر يؤثر ، إن هذا الا قول البشر) (١)

و كيفما كانت الحال و دارت القصة ، فقد حصل باعترافهم قولا ، و إنقطاعهم عن معارضته فعلاً ، أنه معجز ، و في ذلك قيام الحجة و ثبوت المعجزة)) (٢) .

و لم يفت (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) هو الآخر تسجيل هذه القصة الرائعة المروعة ، يقول :

((و أما دلالة الأقوال فكثيرة ، منها حديث ابن المغيرة روى أنه جاء حتى أتى قريشاً فقال : إن الناس يجتمعون غداً بالموسم . و قد فشا أمر هذا الرجل في الناس ، فهم سائلوكم عنه فماذا ترد ون عليهم ؟ فقالوا مجنون يخنق فقال : يأتونه فيكلمونه فيجد ونه صحيحا فصيحا عادلاً فيكذبونكم ، قالوا : نقول هو شاعر . قال : هم العرب . و قد رووا الشعر و فيهم الشعراء ، و قوله ليس يشبه الشعر فيكذبونكم ، قالوا : نقول هو كاهن ، قال : أنهم لقوا الكهان ، فإذا سمعوا قوله لم يجدوه يشبه الكهنة ، فيكذبونكم . ثم انصرف إلى منزله ، فقالوا صبأ الوليد - يعنون أسلم - ولئن صبأ لا يبقى أحد الا صبأ ، فقال لهم ابن أخيه أبو جهل بن هشام بن المغيرة : أنا أكفيكموه قال فأتاه محزوناً فقال : مالك يا ابن أخ ؟ قال هذه قريش تجمع لك صدقة يتصدقون بها عليك تستعين بها على كبرك ، و حاجتك ، قال أو لست أكثر قريش مالاً ؟ قال بلى : ولكنهم يزعمون أنك صبأت لتصيب من فضل طعام محمد و أصحابه ، قال : و الله ما يشبعون من الطعام فكيف يكون لهم فضول ؟ ! .

ثم أتى قريشاً ، فقال : أتزعمون أني صبأت ، و لعمري ما صبأت ، إنكم قلتم : محمد مجنون ، و قد ولد بين أظهركم ، و لم يغب عنكم ليلة و لا يوماً فهل رأيتموه يخنق قط ؟ فكيف يكون مجنوناً و لم يخنق قط ؟ و قلتم شاعر ؟ و أنتم شعراء فهل أحد منكم ، يقول ما يقول ؟

---

(١) سورة المدثر من آيه ١٨ - ٢٥ .

(٢) رسالة الخطابي ص ٢٨ - ٢٩ .

و قلتم كاهن ، فهل حدثكم محمد في شيء يكون في غدٍ ، إلا أن يقول إن شاء الله ، قالوا : فكيف تقول يا أبا المغيرة ؟ قال أقول هو ساحر ، فقالوا : و أىّ شيء السحر ؟ قال : شيء يكون ببابل ، من حذقة فرق بين الرجل و امرأته ، و الرّجل و أخيه أليس مما تعلمون أن محمدا فرق بين فلان و زوجته ، و بين فلان و ابنه ، و بين فلان و أخيه ، و بين فلان و مواليه ، فلا ينفعهم و لا يلتفت إليهم ، و لا يأتيهم ؟ قالوا : بلى فاجتمع رأيهم على أن يقولوا إنه ساحر ، و أن يردوا الناس عنه بهذا القول ، و انصرف فمرّ بأصحاب النبي صلى الله عليه و سلم منطلقاً إلى رحله و هم جلوس في المسجد ، فقالوا : هل لك يا أبا المغيرة إلى خير ؟ فرجع إليهم فقال : ما ذلك الخير ؟ فقالوا : التوحيد ، قال : ما يقول صاحبكم إلا سحراً ، و ما هو إلا قول البشر يرويه عن غيره ، و عبس في وجوههم و بسر ثم أدبر إلى أهله مكذباً ، و استكبر عن حديثهم الذى قالوا له ، و عن الإيمان فأنزل الله تعالى : ((إنه فكر و قدر فقتل كيف قدر) (١))) (٢) .

هذه القصة الشهيرة ، و إن اختلفت الأساليب في روايتها إلا أن لسان حالها ناطق دون حاجة إلى مزيد من تعليق المؤلفين ، لأنها صورة حية ناطقة تدل على إعجاز القرآن ، و أنه على درجةٍ من البيان الرفيع الذى لا يصل إليها بشر مهما سما في علم البيان و لو عاش في أفيائه الأزمان كلها ، أو تربى في أحضانه أعمارا .

و حتى العرب الأوائل الأقحاح ، و الذين عاشوا وسط الجزيرة ، و نشأوا في أفصح قبائلها و أشهرها فصاحة و بلاغة و طلاقة لسان و أكثرها حرصاً على إخراج شعراء لهم من بعد الشهرة الشيء الكثير ، حتى هؤلاء الشعراء لم يثبت لأحد منهم مزية حتى انقطع جميع الشعراء دون مجاراته و الوصول إليه .

و قصة تحكيم (أم جندب) بين (امرئ القيس) و (علقمة) و قصة (المنصور) مع (حماد الرّاوية) عند ما سأله عن أشعر الناس ، و رأى سيدنا (عمر) في أشعر الشعراء ، كل هذه القصص دليل حي على عدم وصول أحدٍ منهم درجة أذهلت الجميع فجعلتهم ، لا يفكرون في مضاهاته .

---

(١) سورة المدثر آيه ١٨ - ١٩ .

(٢) الرسالة الشافية . ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

ولسوف أعرض لرأى (الشيخ عبد القاهر) من الرسالة الشافية لنرى ما يقول في هذا الموضوع ، يقول :

((واعلم أن ها هنا باباً من التلبيس أنت تجده يدور في أنفس قوم من الأشقياء ، وتراهم يُومِئون إليه ، ويهمسون به ، ويستهوونالغِرَّ الغبى بذكره ، وهو قولهم : قد جرت العادة بأن يبقى في الزمان من يفوت أهله حتى يسلموا له ، وحتى لا يطمع أحد في مداناته ، وحتى ليقع الإجماع فيه أنه الفرد الذى لا ينازع ثم يذكرون(امرأ القيس)والشعراء ، الذين قدموا على من كان معهم في أعصارهم ، وربما ذكروا(الجاحظ)، وكل مذكور بأنه كان أفضل من كان في عصره ولهم في هذا الباب خبط ، وتخليط ، لا إلى غاية وهى نفثة نفثها الشيطان فيهم ، وإنما أتوا من سوء تدبيرهم لما يسمعون ، وتسرعهم إلى الاعتراض قبل تمام العلم بالدليل ، وذلك أن الشرط في المزية الناقضة للعادة أن يبلغ الأمر فيها إلى حيث يبهر ويقهر حتى تنقطع الأطماع عن المعارضة وتخرس الألسن عن دعوى المداناة ، وحتى لا تحدث نفس صاحبها بأن يتحدى ، ولا يجول في خلد أن الإتيان بمثله يمكن ، وحتى يكون يأسهم منه وإحساسهم بالعجز عنه في بعضه مثل ذلك في كله .

وليت شعرى من هذا الذى سلم لهم أنه كان في وقت من الأوقات ، من بلغ أمره في المزية ، وفي العُلُوعلى أهل زمانه هذا المبلغ ، وانتهى إلى هذا الحد ، وإن قيل(امرؤ القيس)، فقد كان في وقته من يباريه ويماتنه ، بل لا يتحاشى من أن يدعى الفضل عليه : فقد عرفنا حديث علقمة الفحل ، وأنه لما قال امرؤ القيس وقد تناشدا أينا أشعر ، قال : أنا غير مكترث ولا مبال حتى قال امرؤ القيس ، فقل وانعت فرسك وناقتك ، وأقول وأنعت فرسي وناقتي ، فقال علقمة : إنى فاعل والحكم بيني وبينك المرأة من ورائك - يعنى أم جندب امرأة امرئ القيس ، فقال(امرؤ القيس):

خليلى مرا بى على أم جندب
نقض لبانات الفؤاد المعذب (١)

---

(١) البيت من الطويل وفي الديوان ص ٦٤ دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م .

و قال علقمة :

ذهبت من الهجـــران في كل مذهـــب
ولم يك حقا كل هـــذا التجنـــــب (١)

و تحاكما إلى المرأة ففضلت علقمة .

و جرى بين امرئ القيس و الحارث اليشكرى في تتميمة أنصاف الأبيات الـــــتي أولها :

أحار أريك برقا هـــب و هنـــا كنار مجوس تستعر استعـــارا (٢)

ما هو مشهور ، حتى قال امرؤ القيس : لا أماتنك بعد هذا ثم وجدنا الأخبار تدل على خلاف لم يزل بين الناس فيه ، و في غيره أى أشعر ؟ و على أى لـــم يستقر الأمر في تقديمه قراراً يرفع الشك)) .(٣)

و لقد عرضت هذه القصص في المصنفات ليستشهد بها في مناسبات مختلفـــة .

فهذا (الخطابي) قد استشهد بها و عرض لها في مقام غير الذى عرضهـــا فيه (الشيخ عبد القاهر) .

يقول (الخطابي) : ((و سبيل من عارض صاحبه في خطبة أو شعر ، أن ينشئ له كلاماً جديداً ، و يحدث له معنى بديعاً ، فيجاريه في لفظه و يباريـــه في معناه ليوازن بين الكلامين فيحكم بالفلج لمن أبر منهما على صاحبه و ليـــس بأن يتحيف من أطراف كلام خصمه ، فينسف منه ، ثم يبدل كلمة مكان كلمة ، فيصـــل بعضه ببعض و صل ترقيع ، و تلفيق ، ثم يزعم أنه قد وافقه موقف المعارضين ، و إنما

---

(١) البيت من الطويل ، و قائله علقمه بن عبدة بن ناشرة بن قيس بن عبيد بن ربيعة ابن مالك بن زيد مناه بن تميم ، و هو شاعر جاهلي . و هذه القصة فـــي خزانة الأدب كاملة . انظر الخزانة ١/ ٥٦٥ .

(٢) البيت من الوافر ، انظر معجم شواهد العربية ص ١٤٣ .

(٣) الرسالة الشافية ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ .

المعارضة على أحد وجوه :

منها أن يتبارى الرجلان في شعر أو خطبة أو محاورة فيأتي كل واحدٍ منهما بأمر محدث من وصف ما تنازعاه ، وبيان ما تباريا فيه يوازى بذلك صاحبه ، أو يزيد عليه فيفضل الحكم عند ذلك بينهما بما يوجبه النظر من التساوى والتفاضل ، نحو ما تنازعه (امرؤ القيس) و(علقمة بن عبدة) من وصف الفرس في قصيدتيهما المشهورتين فافتتح امرؤ القيس قصيدته بقوله :

((خليلي مرا بي على أم جندب))

فلما صارا إلى ذكر الفرس وسرعة ركضه قال :

ولِلزجر ألهوب وللساق درّة
وللسوط منه وقع أهوج منعب (١)

وابتدأ علقمة قصيدته بقوله :

ذهبت من الهجران في غير مذهب

فلما صار إلى ذكر الفرس وركضه قال :

ففضّ على آثارهنّ بحاصب
وغيْطِ شُؤبُوب من السد ملهب
فأدركهن ثانياً من عنانه
يمر كمر الرائح المتحلب

فكانا قد حكما بينهما امرأة امرئ القيس ، فقالت لِزوجها : علقمة أشعر منك فقال : وكيف ذلك ؟ قالت : لأنه وصف الفرس بأنه أدرك الطريدة من غير أن يجهده أو يكده ، وأنت مريت فرسك بالزجر ، وشدة التحريك والضرب ففضب عند ذلك وطلقها)) (٢)

---

(١) زجر : الزجر : المنع والنهي والانتهار ، أنظر اللسان مادة (زجر) ٤/٣١٨ ألهوب : الألهوب أن يجهد الفرس في عدوه حتى يثير الغبار - انظر اللسان مادة (لهب) ١/٧٤٤ .
للساق درة : الدرة : بالكسر : كثرة اللبن وسيلانه . أنظر اللسان مادة (درر) ٤/٢٧٩ .

(٢) رسالة الخطابي ص ٥٨ ، ٥٩ والبيت في اللسان ١/٧٤٤ .

والقِصة نفسها في المصنفين ، والأسلوب يختلف . لكن كلاً من (الخطابي) و (الشيخ عبد القاهر) قد ساق هذه الرواية شاهداً على مناسبة غير التي ذكرها الآخر .

(فالخطابي) في سبيل رده على دعوى أنَّ هناك من عارض القرآن الكريم ، وجعل حماقات مسيلمة شاهداً له على ذلك ظاهِر الخَلط ، وأنه بعيد عن البلاغة ، ولن تنطبِق شروط المباراة التي وضعها العرب ، وهى معروفة مشهورة ، والقصة السابقة الذكر شاهد عدل على أنَّ كلام (مسيلمة) لم يخضع لأى شرط من شروط المعارضات .

يقول : (الخطابي) عارضاً حقيقة شبهة من ادّعى أنَ القرآن قد عُورِض .

((فان قيل : ما أنكرتم أنَّ المعارضة قد حَصلت منهم لبَعْضِه، وهو ما بَلغ مقْداره عدد الآى من بَعْض السُّوَر القِصار ، نحو ما حُكى عن مُسيلمة من قوله :

((يا ضفدع نِقى كم تنقين ، لا الماء تكدرين ولا الوارد تنفرين)) وحُكى عن بعضهم من قوله :

((ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى بين شراسيف وحشا)) .

وكما قال آخر منهم : ((الفيل ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له مشفر طويل ، وذنب أثيل ، وما ذاك من خلق ربنا بقليل .

قيل : أما قول مسيلمة في الضفدع فمعلوم ، أنه كلامٌ خالٍ من كلِ فائدة لا لفظه صحيح ، ولا معناه مستقيم ، ولا فيه شيءٌ من الشرائط الثلاث التى هي أركان البلاغة .

وإنما تكلف هذا الكلام الغث لأجل ما فيه من السجع ، والساجع عادته أن يجعل المعاني تابعة لسجعه ، ولا يبالي بما يتكلم به إذا استوت أساجيعه واطردت)) (١) .

---

(١) رسالة الخطابي ص ٥٥ ، ٥٦ .

فعلى خلط كلام مسيلمة احتج به بعضهم على أن هناك من قامت به قائمة ، وبلغ شأنا بحيث إقتدر على معارضة القرآن . وكان رد (الخطابي المنطقي) . أن هذه التفاهات التي عرفت عن (مسيلمة) لا تنطبق عليها الشروط التي وضعها العرب و التزموا بها في مقابلاتهم الشعرية ، وتلك القصة وغيرها شاهد على أن كلام مسيلمة تنقصه حتى أقل الاعتبارات البلاغية . هذا ((مع قصور آيه و قصر معانيه ، خال من أوصاف المعارضات و شروطها ، وإنما هو استراق و اقتطاع من عرض كلام القرآن ، و احتذاء لبعض أمثلة نظومه ، وكلا، لن يبلغوا شأوه ، أو يصيبوا في شيء من ذلك حدوه)) (١)

و هذا (ابن قتيبه) و (الجاحظ) قد تكلم كل منهما في هذه القضية و أدلى بدلوه في هذا الموضوع . يقول (الجاحظ) :

((فقد رأيت أصحاب (مسيلمة) ، وأصحاب (ابن النواحه) إنما تعلقوا بما ألف لهم مسيلمة من ذلك الكلام ، الذى يعلم كل من سمعه أنه إنما عدا على القرآن فسلبه ، وأخذ بعضه ، وتعاطى أن يقارنه ، فكان لله ذلك التدبير الذى لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له)) (٢)

و ظلت قضية إعجاز القرآن الكريم تطرح لينال المغرضون من الإسلام ، والحانقون عليه مرادهم ، وليحطموا من شأن القرآن الكريم قدر المستطاع لينفض أكثر الناس من حوله ، ولكن هيهات (فالشيخ عبد القاهر) و من سبقه من علماء المسلمين قد جرّدوا سُيوف القول لطعن ملاحد (٣) هؤلاء الذين يتذرعون بتوافه الأسئلة فيجعلون منها قضية .

و ذلك أن منهم من يقول أن الرجل يكون في المديح أشعر منه في المراثى ، و في الغزل أشعر منه في الحكم و الآداب ، و اتخذوا من هذا السؤال قضية و حجة : أنهم إنما عجزوا عن معارضة القرآن لأنهم لا يستطيعونه البتة .

و سوف نرى كيف دافع كل واحدٍ من جهابذة البلاغة عن هذه القضية .

---

(١) رسالة الخطابي ص ٥٧ ، ٥٨ .
(٢) الحيوان للجاحظ ، ٤/ ٨٩ .
(٣) ملاحد : جمع الحد . والحد : مال وعدل وماري وجار . انظر اللسان مادة (لحد) ٣/ ٣٨٨ .

يقول(الشيخ عبد القاهر الجرجانى) : ((في جزء آخر من السؤال ، وهو أن يقولوا ، إنا قد علمنا من عادات الناس وطبائعهم أن الواحد منهم تواتيه العبارة ويطيعه اللفظ في صنف من المعاني يمتنع عليه مثل تلك العبارة وذلك اللفظ في صنف آخر .

فقد يكون الرجل - كما لا يخفى - في المديح أشعر منه في المراثي وفي الغزل واللهو والصيد أنفذ منه في الحكم والآداب وتراه يستطيع في الأوصاف والتشبيهات مالا يستطيع مثله في سائر المعاني ، وترى الكاتب ، وهو في الإخوانيات أبلغ منه في السلطانيات وبالعكس . هذا أمر معروف ظاهر لا يشتبه .

وإذا كان كذلك ، فلعل العجز الذى ظهر فيهم عن معارضة القرآن لم يظهر لأنهم لا يستطيعون مثل ذلك النظم ، ولكن لأنهم لا يستطيعونه في مثل معاني القرآن)).[1]

هذا هو الداء الذى ابتغى ذووه تفشيه بين الناس ، ولكن هيهات لهم أن يبلغوا المراد ، وقد عرف الدواء ، وتناقلته مصنفات العلماء .

يقول (الشيخ عبد القاهر) في صدد الرد على هذه الدعوى :

((إنه سؤال لا يتجه حتى يقدر أن التحدى كان إلى أن يعبروا عن معاني القرآن أنفسها ، وبأعيانها بلفظ يشبه لفظه ، ونظم يوازى نظمه ، وهذا تقدير باطل ، فإن التحدى كان إلى أن يجيئوا في أى معنى شاءوا من المعاني بنظم يبلغ نظم القرآن في الشرف أو يقرب منه ، يدل على ذلك قوله تعالى : (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) .[2]

أى مثله في النظم ، وليكن المعنى مفترى ، فلا إلى المعنى دعيتم ولكن إلى النظم ، وإذا كان كذلك كان بيناً أنه بناء على غير أساس ورمى من غير مرمى ، لأنه قياس ما امتنعت فيه المعارضة من جهة ، وفي شئ مخصوص ، على ما امتنعت معارضته من الجهات كلها وفي الأشياء أجمعها ، فلو كان إذا سبق (الخليل)

---

(١) الرسالة الشافية ص ١٣٨ .

(٢) سورة هود آيه ١٣ .

(وسيبويه) في معاني النحو إلى ما سبقا إليه من اللفظ والنظم ، لم يسبق (الجاحظ) في معانيه التي وضع كتبه لها إلى ما يوازي ذلك ويضاهيه ، أو كان (بشار) إذ سبق في معناه إلى ما سبق إليه ، لم يوجد مثل نظمه فيه لشاعر في شيء من المعاني ، لكان لهم في ذلك متعلق ، فأما وليس من نظم يقال : أنه لم يسبق اليه في معنى إلا ويوجد أشاله ، أو خير منه في معان أخر ، فمن أشد المحال وأبينه الاعتراض به)) .(١)

وموضوع تحدى القرآن الكريم لكافة العرب أن يأتوا بمثله أو بما يضاهيه ، قد عرض له أغلب الدارسين لإعجاز القرآن ، وقد عرض (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) لما عرض له (علي بن عيسى الرماني ت ٣٨٦ هـ) الذى شرح الإعجاز في عشرة أبواب ، وبين أن التحدى للكافة وأن العجز كان منهم حيث قال :

((وأما التحدى للكافة فهو أظهر في أنهم لا يجوز أن يتركوا المعارضة مع توفر الدواعي إلاّ للعَجْزِ عنها)) .(٢)

ويشرح (الرماني) أنّ التحدى ظاهر في أن يأتوا بمثل القرآن وقد عجزوا عنه . لأن القرآن فائت للقوى البشرية . يقول(الشيخ عبد القاهر):

((هذه جمل من القول في بيان عجز العرب حين تحدوا إلى معارضة القرآن وإذعانهم أن الذى سمعوه فائت للقوى البشرية ومتجاوز للذى يتسع له ذرع المخلوقين))(٣)

فهذا التصريح الذى استهل به رسالته الشافية في سبيل بيان أن التحدى كان لجميع العرب قاطبة ، وبيان علمهم ويقينهم الذى لا يدخله شك في عجزهم عن المعارضة لأن الذى تحداهم به صلى الله عليه وسلم متجاوز لمقدرة البشر .

وكذلك شهرة قريش البيانية قد غلبت شهرتها التجارية ، ومنزلتها الاقتصادية حتى لم يخل سفر يتحدث عن التاريخ في تلك الحقبة إلا بدأ بالحديث عن لسان قريش الخصوم ، وأسلوبها الذى يتسم باللدد في الخصومة ، كما أن شهرة المنافرات الشعرية بين شعرائها المصاقع ، قد رنت في كل أذن ، وتصدرت كل ديوان .

---

(١) الرسالة الشافية ص ١٤١ ، ١٤٢ .

(٢) النكت في اعجاز القرآن ص ١١٠ ضمن ثلاث رسائل .

(٣) الرسالة الشافية ص ١١٧ .

ذلك أنه تدور بينهم مساجلات شعرية ، ومنافرات كلامية ، سطرتها كتب الأدب واحتفظت بها كتب التاريخ ، لما بلغته من الفصاحة والبلاغة .

ولقد عرض (الباقلاني) لهذه الفكرة قائلاً :

((ألا ترى أنه قد ينافر شعراؤهم بعضهم بعضاً ، ولهم في ذلك مواقف معروفة ، وأخبار مشهورة ، وآثار منقولة مذكورة وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة ، والذلاقة ، ويتبجحون بذلك ويتفاخرون بينهم .

فلن يجوز - والحال هذه - أن يتغافلوا عن معارضته لو كانوا قادرين عليها ، تحداهم أو لم يتحد هم إليها .

ولو كان هذا القبيل مما يقدر عليه البشر لوجب في ذلك أمر آخر ، وهو أنه لو كان مقدوراً للعباد لكان قد اتفق إلى وقت مبعثه ، من هذا القبيل ما كان يمكنهم أن يعارضوه به ، وكانوا لا يفتقرون إلى تكلف وضعه ، وتعمل نظمه في الحال .

فلما لم نرهم احتجوا عليه بكلام سابق وخطبة متقدمة ، ورسالة سالفة ، ونظم بديع ، ولا عارضوه به ، فقالوا : هذا أفصح مما جئت له ، وأغرب منه ، أو هو مثله - علم - أنه لم يكن إلى ذلك سبيل وأنه لم يوجد له نظير)) .(١)

هذا المأخذ على قريش قد عرض له أكثر من عالم وكانت أساليبهم في عرض الفكرة مختلفة متباينة .

فهذا (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) قد عرضها من منحنى آخر ونفذ لها من كوة ثانية ، يقول :

((معلوم أن سبيل الكلام سبيل ما يدخله التفاضل ، وأن للتفاضل فيه غايات ، ينأى بعضها عن بعض ، ومنازل يعلو بعضها بعضا ، وأن علم ذلك علم يخص أهله . وأن الأصل والقدوة فيه للعرب ومن عداهم تبع لهم وقاصر فيه عنهم ، وأنه لا يجوز أن يدعى للمتأخرين من الخطباء والبلغاء عن زمان النبي

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢٣ ، ٢٤ .

صلى الله عليه وسلم ، الذى نزل فيه الوحى ، وكان فيه التحدى ، أنهم زادوا على أولئك الأولين ، أو كملوا في علم البلاغة أو تعاطيها ، لما لم يكملوا له ، كيف ونحن نراهم يجهلون عنهم أنفسهم ، ويبرؤن من دعوى المداناة معهم ، فضلاً عن الزيادة عليهم ، هذا (خالد بن صفوان) يقول : كيف نجاريهم وإنما نحكيهم ، أم كيف نسابقهم ، وإنما نجرى على ما سبق إلينا من أعراقهم)) (١) .

وها نحن بعد أن استعرضنا بعضا من الأقوال في الإعجاز وطرفاً من الآراء التي انتشرت في صفحات الكتب وتبينا أن هؤلاء أئمة البلاغة وذواقة نصوصها الذين لم تعرف العربية شيلاً لهم في التعرف على طعوم الكلام واختلاف مذاقاته .

ولم نعرف في الأدب العربي من طاوعتهم أقلامهم . كتبوا فأحسنوا ، واحتجوا فنجحوا ، كما علمنا عن أولئك الأوائل .

إلا أنهم وقفوا أمام بلاغة القرآن الكريم حيارى في وصفها بوصفٍ لا مدخل لشبهة أو لنقص فيه ، ذلك لأنهم أعرف الناس بقدر القرآن الكريم وأعرف الناس بقدر أقلامهم .

ولكنهم رأوا مالا قبل لهم ولا لمخلوق به .

وقد رأى بعضهم الإعجاز في النظم ، الذى انفرد به القرآن الكريم في صياغته ، مثل (الباقلانى) ثم تلاه (عبد القاهر الجرجانى) وغيرهما .

ومع هذا فقد ظل إعجاز القرآن الكريم معجزة الأبد ، لأنه أمر ضيق كثير الالتواء لمن تلمس جوانبه .

---

(١) الرسالة الشافية ص ١١٧ ، ١١٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

ملحـــــق

الإعجـــاز بالصـــرفـــــه

على الرغم من شغف المسلمين بالقرآن الكريم ، و إنشغالهم بترديده والمحافظة عليه ، لم تظهر الدراسات القرآنية و الاهتمام بمعرفة مكامن الإعجاز إلا في أواخـــر القرن الثاني و أوائل القرن الثالث .

لأن اتساع رقعة البلاد الإسلامية ، و دخول كثير من غير العرب في الإســـلام أدّى إلى ضرورة شرح آيات القرآن الكريم ، و تفسيرها لأولئك الذين لهـــم حـــظ قليل في اللغة العربية ، فكان هذا داعياً ، لأن يضع العلماء تفسيراً للغريـــب من مفردات القرآن ، بل تفسيره كاملاً .

من هذه المقدمة الموجزة نستطيع أن نستنبط كيفية ظهور العلوم القرآنيـــة .

أما نشوء الفرق الإسلامية فقد كان نتيجة للخلاف الذى حدث بين المسلـــمين منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم . وكانت الخلافة من أبرز المسائل الـــتي اختلفوا عليها .

ثم اتسع الخلاف بصورة أكبر و هي (حكم مرتكب الكبيرة) ، فقامت مرجئـــة الخوارج و أرجأت أمر المختلفين إلى الله ، أى أنهم رأوا تأخير حكم صاحـــب الكبيرة إلى يوم القيامة .

و هكذا تتابع ظهور الفرق الأخرى مثل المعتزلة . و التي قامت نتيجـــة لاعتزال واصل بن عطاء مجلس الحسن البصرى .

ولقد ساعد كذلك على ظهور هذه الفِرق دخول الناس في دين الله أفواجـــاً و جماعات ، من أديان مختلفة ، بذلك أدخلت إلى المسلمين نظريات تلك الأديـان مما أدى إلى كثرة الفرق ، و تنوعها و اشتداد الفرقة بين المسلمين . فكثـــر الجدل حول القرآن الكريم ، و حول وجه إعجازه .

ولقد كان مذهب الصرفة من أشهر المذاهب التي قيلت في إعجاز القـــرآن الكريم .

و أما بالنسبة لأول من أثار مذهب الصَّرفة فإن(الدكتور عبد العزيز عرفه)يقـــول :

((ولعل(الراوندي) (١) هو أول من أثار مذهب الصرفه المشهور الذي يجعل وجه إعجاز القرآن ليس في النظم و التأليف ، وإنما هو في المنع و العجز اللذين أحدثهما الله في العرب ، الذين شَوفهوا بالقرآن و تحدوا به ، ولولا هذا المنع و العجز لكانوا قادرين على الإتيان بسورةٍ من مثله بلاغة و فصاحةً و نظماً و نسبة إلى(أبي إسحاق إبراهيم بن سيار)(٢) المعروف بالنظام)) (٣)

وعلى كل فإن مسألة أول من قال بالصَّرفه موضوعٌ لم تحدده الكتب ، ولم يتفق العلماء على نسبة ظهوره . فهذا الرافعي يقول : ((كان أول ما ظهر من الكلام في القرآن ، مقاله تعزىٰ إلى رَجُلٍ يهودي يسمى(لبيد بن الأعصم)، فكان

---

(١) ((عندما وصلت طائفة المعتزلة الى أوج مجدها بدأ يظهر رد الفعل ضدها فهذا أبو الحسين أحمد بن يحيي بن إسحاق الراوندي (الذي ولد بين سنتي ٢٠٥ هـ - ٢١٥ هـ) اعتنق مذهبهم في بادىء الأمر ، وكتب بعض المؤلفات التي تتفق مع آرائهم ، غير أنه تحول بعد ذلك إلى الشيعة المتطرفة ، وأقام نفسه خصماً شديداً لهم ، ثم وقع تحت تأثير أبي عيسى الورّاق التانَوى المتستر ، فأنكر الإسلام نهائياً في كتابيه الأخرين (كتاب الدامغ) (وكتاب الزمرد) ولذلك أودع السجن ، ولكنه هرب منه ، ومات - فيما يقال - في بيت لأوى اليهودي الذي تستر عليه حوالي سنة ٢٥٠ هـ ، وهذا التاريخ هو الذي يتفق مع ما ذكر عنه من أنه روى كتاب المقتضب للمبرد)) ٤/ ٢٨ بروكلمان / أنظر الفهرست ص ٤ (تكملة الفهرست)

(٢) هو إبراهيم بن سَيَّار بن هانئ ويكنى أبا إسحاق النظام الذي كان أعظم تلاميذ أبي الهذيل ، ترك البصرة - موطن نشأته - إلى بغداد بعد مدة ، وتوفي بها في عنفوان الشباب بين سنتي ٢٢٠ هـ - ٢٣٠ هـ ، وقد فارق شيخه بعد فترة ، ووقف حياته رئيساً لمدرسة ضد الدهرية والدَيْصَانية أو بمعنى آخر ضد الفلسفة الهيلينية ، التي أثرت برغم هذا على بناء مذهبه الديني تأثيراً حاسماً ، وللرد على الدهرية والديصانية- دافع عن القول بخلق القرآن ونشأ عن ذلك فكرة الظهور والكُمُون .. ولتمكنه من اللغة لم يبرع في الجدل فحسب ، بل برع أيضاً في قول الشعر)) ٤/ ٢٦ تاريخ الأدب العربي لبروكلمان دار المعارف ١٩٧٥م أنظر تكملة الفهرست ص ٢ .

(٣) قضية اعجاز القرآن وأثرها في تدوين البلاغة العربية ص ١٤٣ عالم الكتب ط ١ ١٤٠٥ هـ .

يقول إن التوراة مخلوقة ، فالقرآن كذلك مخلوق ثم أخذ ها عنه(طالوت بن أخته) و أشاعها ، فقال بها(بنان بن سمعان)الذى إليه تُنْسب البنانية ، و تلقاها عنه (الجعد بن درهم)مؤدب(مروان بن محمد) آخر خلفاء بنى أمية ، وكان زنديقاً ، فاحش الرأى و اللسان ، و هو أول من صرّح بالإنكار على القرآن و الرد عليه)).[1]

ولكن الأستاذ(أحمد أمين)، يرى على ما يبدو في (الجعد بن درهم) غير ذلك ، حيث يقول : ((ولعل (الجعد) كان مظلوماً في هذا ، وأنهم استنتجوا من قوله أن القرآن مخلوق هذا الإستنتاج البعيد ، و يستنتج من ذلك أن(الجعد) كان في(دمشق)و لكنه بذر بذرته في العراق لما هرب إليه و قتل به ، و قال بذلك أيضا (جهم بن صفوان) الترمذى) الذى مثله (سالم بن أسوز) (بمرو سنة ١٢٨ هـ). فقد كان ينفى الصفات ، واستتبع ذلك نفى الكلام والقول بخلق القرآن))،[2] ولكن المتفق عليه أن الذى أخذ هذا القول واشتهر به هو (النظام) يقول الرافعي[3] : ((غير أن النظام هو الذى بالغ في القول بالصرفة فعرفت به) ، ويقول ((على أن القول بالصرفة هو المذهب الفاشي من لدنه قال به النظام ، يصوّبه فيه قوم ، ويشايعه عليه آخرون))[4] .

ولكن كل المعلومات تشير إلى (الجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد) ،لأن الموضوع بعد ذلك تدخلت فيه الدولة، فلابد أن يكون ذلك من تأثير المعلم في تلميذه

وإني سوف أبدأ البحث - بإذن الله - في موضوع الصرفه من لدن (الجاحظ) تلميذ(النظام) ، ثم أوضح موقف (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) منها .

ولكن قبل البدء في هذه الرحلة سأعرض لمعنى الصرفه موسعاً من كتاب الطِّراز لتكون صورة الموضوع الذى سأتكلم فيه واضحةً أمام القارىء ، وذلك لأنك (لم تر أحداً فسر هذه الكلمة " الصرفه " كابن حزم الظاهرى))[5].

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية / مصطفى صادق الرافعي ص ١٦٠، ١٦١ ط ٨ ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م.

(٢) ضحى الإسلام ٣/ ١٦٢ ط ٨ مكتبة النهضة المصرية .

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية / لمصطفى صادق الرافعي ص١٦٢ .

(٤) المرجع نفسه ص ١٦٣ . (٥) المرجع نفسه ص ١٦٢

ولمعرفة المزيد في هذا الموضوع ينظر ضحى الإسلام ، فجر الإسلام(لأحمد أمين) (واعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي) . (الفِصَل في الملل والنحل لابن حزم الظاهرى).

يقول العلـــوى :

((وهذا هو رأى(أبي إسحق النظام)،(وأبي إسْحَاق النَّصَيْبِي)من المعتزلـة ، واختاره(الشريف المرتضى) من الإماميـة ، واعلم أن قول أهل الصرفـه يمكن أن يكـون له تفسيرات ثلاثـة ، لما فيـه من الإجمال وكثرة الإحتمال كما سنوضحـه .

التفسـير الأول :

أن يريد وا بالصرفـه أن الله تعالى سلب د واعيهم إلى المعارضة ، مع أن أسباب توفر الد واعى في حقهم حاصلة من التقريع بالعجز ، والاستنزال عـن المراتب العالية ، والتكليف بالانقياد والخضوع ومخالفة الأهـواء .

التفسير الثانـي :

أن يريد وا بالصرفة ، أن الله تعالى سلبهم العلوم التي لا بـد منها في الإتيان بما يشاكل القرآن ويقاربه ، ثم إن سلب العلوم يمكن تنزيله علـى وجهين ، أحدهما أن يُقال : إن تلك العلوم كانت حاصلة لهم على وجه الاستمرار ، لكن الله تعالى أزالها عن أفئد تهـم ومحاها عنهم .

ثانيهما : أن يقال : إن تلك العلوم ما كانت حاصلة لهم خلا أن الله تعالـى صرف د واعيهم عن تحد يد ها مخافة أن تحصل المعارضة .

التفسير الثالث :

أن يُراد بالصرفة أن الله تعالى منعهم بالإلجاء على جهـة القسر عن المعارضـة ، مع كونهم قادرين ، وسلب قواهم عن ذلك ، فلأجل هـذا لم تحصل من جهتهم المعارضة ، وحاصل الأمر في هذه المقالة : أنهم قادرون على ايجاد المعارضة للقرآن ، إلا أن الله تعالى منعهم بما ذكرناه ، والذى غرّهؤلاء حتى زعموا هذه المقالة ما يرون من الكلمات الرشيقة والبلاغات الحسنة ، والفصاحات المستحسنة ، الجامعة لكل الأساليب البلاغية في كلام العرب الموافقة لما فـي القرآن ، فزعم هؤلاء ، أن كل من قدر على ما ذكرناه من تلك الأساليب البد يعـة ، لا يقصر عن معارضته ، خلا ما عرض من منع الله إياهم بما ذكره من الموانع ، والـذى يدل على بطلان هذه المقالة براهين)) .(١)

---

(١) كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز ٣/ ٣٩١ ، ٣٩٢ .
تأليف : أمير المؤمنين يحيى بن حمزة بن على بن ابراهيم العلوى ط المقتطـف بمصر سنة ١٣٣٢هـ ، ١٩١٤م .

وبعد أن جمع العلوي عدة آراء للقائلين بالصرفة علق عليها قائلاً :

((إن العرب كانت لديها المقدرة في معارضة القرآن الكريم ، لما لها من قوه العَارضة وحسن البيان ، بيد أن الله سبحانه منع قدرتهم هذه عن معارضة القرآن .

وإن السبب في جرأتهم هذه ، أن القرآن الكريم احتوى الكلمات العربية الرشيقة والبلاغات الحسنة ، وقد غرهم ذلك لأنه مما تعارفوه في كلامهم إلا أنّ الله سلبهم القدرة على المعارضة .

وتلك دعاوى باطلة . ويدل على ذلك براهين :

البرهان الأول منها :

أنه لو كان الأمر كما زعموه ، من أنهم صَرفوا عن المعارضة مع تمكنهم منها ، لوجب أن يعلموا ذلك من أنفسهم بالضرورة ، وأن يميّزوا بين أوقات المنع والتخلية ، ولو عَلموا ذلك لوجب أن يتذاكروا في حال هذا الأمر المعجز على جهة التعجب ، ولو تذاكروه لظهر وانتشر على حدّ التواتر ، فلما لم يكن ذلك دلّ على بَطلان مَذاهبهم في الصرفه ، لا يُقال : إنه لا نزاع في أن العرب كانوا عالمين بتعذر المعارضة عليهم ، وأن ذلك خارج عن العَادة المألوفة لهم ، ولكنا نقول من أين يلزم أنه يجب أن يتذاكروا ذلك ، لأنا نعلم حرص القوم على إبْطال دعواه ، وعلى تزييف ما جاء من الأدلة ، فاعترافهم بهذا العجز من أبلغ الأشياء في تقرير حجته ، وهو إظهاره وإشهارَه لأنا نقول هذا فاسد ، فإن المشهور فيما بين العوام فضلاً عن دهاة العرب أن بعض من تعذّر عليه بعض ما كان مقدوراً له ، فإنه لا يتمالك في إظهار هذه الأعجوبة ، والتحدث بها ، ولا يخفى دون هذه القضية ، فضلاً عنها ، فكان من حقهم أن يقولوا : إن كل واحدٍ منا يقدر على هذه الفصاحة ، ولكن صار ذلك الآن متعذراً علينا ، لأنك سحرته عن الإتيان بمثله فلما لم يقولوا ذلك دل على فسادها)) (١) .

ويقصد من برهانه الاول : أنهم لو صرفوا عن المعارضة حقاً مع تمكنهم منها ، لعرفوا زمن المنع ، وأحسوا هذا المنع من ذات أنفسهم ، ولتذاكروا فيما بينهم حال هذا القرآن المعجز المُعْجب ولو رَدت عنهم أقوالهم في العجب من هذا المنع ، ولو حصل شيء من هذا لوصل إلينا عن طريق التواتر .

---

(١) الطراز للعلوي ٣/ ٣٩٣ ، ٣٩٤ .

فلو قال قائل منهم : إن العرب عالمون بعجزهم عن المعارضة دون أن يتذاكروا ذلك .

لقيل : إن اعترافهم بهذا العجز لدليل على صحة دعواه صلى الله عليه وسلم في إثبات دعوته .

ولا يعقل أن يعترفوا ، وأن يسلموا بعجزهم ، وهم أشد الناس حرصاً على ابطال الدعوة .

ويقول البرهان الثاني :

((لو كان الوجه في إعجازه بالصرفة كما زعموه ، لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن ، فلما ظهر منهم التعجب لبلاغته وحسن فصاحته ، كما أثر عن الوليد ابن المغيرة))(١) .

أما برهانه الثالث فيقول فيه :

((الرجع بالصرفه التي زعموها ، هو أن الله تعالى أنساهم هذا الصنيع ، فلم يكونوا ذاكرين لها بعد نزوله ، ولا شك أن نسيان الأمور المعلومة في مدة يسيرة ، يدل على نقصان العقل ، ولهذا فإن الواحد إذا كان يتكلم بلغة مدة عمره .فلو أصبح في بعض الأيام لا يعرف شيئاً من تلك اللغة ، لكان ذلك دليلاً على فساد عقله وتغيره ، والمعلوم من حال العرب أن عقولهم مازالت بعد التحدى بالقرآن ،وأن حالهم في الفصاحة والبلاغة بعد نزوله كما كان من قبل ، فبطل ما عوّل عليه أهل الصرفة وكلامهم يحتمل أكثر مما ذكرناه من الفساد))(٢) .

وتفسير هذا البرهان :

أنهم أرادوا بالصرفة ، أن الله أنساهم الصيغ البلاغية التي تساعدهم على الإتيان بمثله ، فلم يستطيعوا أن يتذاكروها بعد نزول القرآن ، لا شك أن من حصل معه مثل ذلك في مدة يسيرة يعتبر ناقص العقل .

---

(١) الطراز للعلوى ٣/ ٣٩٤ ، ٣٩٥ .
(٢) المصدر نفسه ٣/ ٣٩٥ .

وذلك مثل من كان يتكلم بلغة ، ثم أصبح في غضون أيام قلائل ، لا يعرف شيئا من تلك اللغة ، دل ذلك على فساد عقله وتبدله .

وإن الحقائق تؤكد وتدل أن عقول العرب قبل التحدى وبعده في حالةٍ واحدةٍ وأن ألسنتهم وفصاحتهم لم يشبها أىّ تغيير .

وبهذه البراهين الثلاثة يدحض العلوى قول القائلين بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم . يقول :

((فإنا قد أبطلنا رأى أهل الصرفة ، وزيفنا كلامهم ، فلا وجه لعده من وجوه الإعجاز))(١) .

وبعد أن استعرضت مع(العلوى) ملخص لآراء القائلين بالصرفه ، فإني سأبدأ - إن شاء الله - موضوع الصرفه لدى (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) ، من خلال ما كتبه الأوائل في هذا الموضوع ، لنرى إلى أى حد تأثر بغيره من علماء العربية .

فهذا (الجاحظ) قد قال بالصرفة ، عند حديثه عن الدهرية الذين يطعنون على ملك سليمان .

فقد ساق عدة أمثلة ، يقدم بها لفكرة الصرف في رأيه وهي(المنع).

(يقول الجاحظ) في هذا الشأن :

((ومثل ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لما بشره الله بالظفر وتمام الأمر ، بشر أصحابه بالنصر ، ونزول الملائكة ، ولو كانوا لذلك ذاكرين في كل حال ، لم يكن عليهم من المحاربة مؤونة ، وإذا لم يتكلفوا المؤونة لم يؤجروا .

ولكن الله تعالى بنظره إليهم رفع ذلك في كثير من الحالات عن أوهامهم ،ليحتملوا مشقة القتال ، وهم لا يعلمون أيغلبون أم يغلبون ، أو يقتلون أم يقتلون))(٢) .

فقصد بهذا أن المسلمين عند ما بشرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بنزول الملائكة ، تحارب معهم ، وتساندهم ، وترفع عنهم عسر يوم الحرب ، فإنهم مع هذا اتخذوا الأسباب وحاربوا كأنما لم يكن معهم مساعد .

---

(١) الطراز ص ٣/ ٣٩٥ .

(٢) الحيوان ٤/ ٨٨ ، ٨٩ ط ٢ ١٣٨٥ هـ ١٩٦٦م .

و(الجاحظ) هنا يقول : إن الله غطى عن أعينهم وعن أنفسهم ما بشرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من مساعدة الملائكة ليخوضوا القتال ويجدوا فيه المشقة والنصب ، ومن ثم ينالهم الأجر والفوز والنجح في الآخرة .

وخلص من هذا المثال وغيره إلى شرح معنى الصرف ، الذى يراه في القرآن ، فقال :

((ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب ، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن ، بعد أنْ تحداهم الرسول بنظمه ولذلك لم نجد أحداً طمع فيه ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلف بعضهم ذلك ، فجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القضية على الأعراب وأشباه الأعراب ، والنساء وأشباه النساء ، ولألقى ذلك للمسلمين عملاً ، ولطلبوا المحاكمة والتراضى ببعض العرب ، ولكثر القيل والقال))[1].

فهو يُرِيْد أن المنع من معارضة القرآن الكريم إنما ليحمى المسلمين من قضية هم في غنى عنها ، لأنه لو عارض المشركون القرآن الكريم ، لأدى ذلك لأن يشغل المسلمون بالأخذ والرد فى هذه القضية حتى لا تنال من الأعراب الذين لم يتمكنوا من الإسلام بعد ، وكذلك النساء ، لما عرف من قلة خبرتهن ، فقد يلتبس عليهن الأمر ، وكذلك أشباه النساء في قلة الخبرة ، ومتابعة الهوى من الصغار وضعاف العقول .

واستشهد (بمسيلمة)[2] وأصحاب(ابن النوّاحة)، إذ تبعهم أناس يعلمون أنه إنما سلخه عن القرآن فسلبه وادعى أنه من القرآن . يقول في ذلك :

((رأيت أصحاب(مسيلمة)، وأصحاب ابن النوّاحة)إنما تعلقوا بما ألف لهم مسيلمة من ذلك الكلام الذى يعلم كل من سمعه أنه إنما عدا على القرآن فسلبه

---

(١) الحيوان ٤/ ٨٩ .

(٢) هو أبو ثمامة ، مسيلمة بن حبيب الحنفي من أهل اليمامة ، إدعى النبوة بمكة قبل الهجرة ، وصنع أسجاعاً عارض فيها بزعمه القرآن ،منها قوله :
((والشمس وضحاها ، في ضوئها ومجلاها ، والليل إذا عداها يطلبها ليغشاها ، فأدركها من أتاها ، وأطفأ نورها ومحاها)) وقد كان قوى أمره في اليمامة ، وظهر بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأرسل أبو بكر . . خالد بن الوليد ، في جيش لمقارعته فكان له النصر على بني حنيفة في يوم اليمامة ، وقتل مسيلمة ، وكثير من أتباعه.واستشهد من المسلمين ألف ومائتا رجل .
عبد الله بن النوّاحة : ذكره بعض من ألف في الصحابة ، فقرأته بخطه =

وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه فكان لله ذلك التدبير ، الذى لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له)) (١) .

ويقول عبد الكريم الخطيب معلقاً على رأى الجاحظ هذا قائلاً :

((والجاحظ هنا لا يقول بالصرفة على اطلاقها ، ولكنها صرفه عن أمر هو معجز في ذاته ، فالقرآن في رأى الجاحظ معجز في ذاته ، ولكن الصرفة حمته من أن يتكلف للمعارضة بعض المتكلفين ، فيشوش على القرآن ، وذلك من شأنه أن يوقع في نفوس الأغرار والجهلة اضطراباً .

ولا شك أن هذه إحدى مغالطات الجاحظ وخلابته بما أوتي من قوة الحجة وسطوة البيان)) (٢) .

ولقد وافق (عبد الكريم الخطيب) من قال أن (الجاحظ) ، قال أن اعجاز القرآن حاصل ببلاغته ، ولكن الله صرف العباد عن معارضته .

ولكن الدكتور عبد العزيز عرفه ، ارتأى أن مقصد الجاحظ من القول بالصرفه أن الاعجاز في الصرف ذاته ، حيث يقول :

((فالصرفة عند (الجاحظ) تخالف مذهب الصرفة المشهور كما ترى ، ولعل الذى دعا (الجاحظ) إلى القول بصرفته هذه محاولته أن يجد تفسيراً لعدم إتيان العرب بمعارضته للقرآن ، ولو فيها أدنى شبهة ، والحق أن العرب

= بما هذا لفظه ، كان قد أسلم ثم ارتد ، فاستتابه (عبد الله بن مسعود) فلم يتُبْ ، فقتله على كفره وردته ، والنوّاحة كثيرة النوح) .

الإصابة في تمْييز الصحابة رقم ٦٦٤٤/ جـ ٤ ط ١ ١٣٩٧ هـ ت/ د . طه محمد الزّيني - مكتبة الكليات الأزهرية .

(١) الحيوان ٤/ ٨٩ .

(٢) الإعجاز في دراسات السابقين ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

كان يمكنهم أن يجادلوا في أيّ شئ ، وأن يخوضوا أى شئ إلا البيان ، فكان عندهم أجل من أن يخوضوه ، فإذا علمنا ذلك استطعنا أنْ نفسر عدم إتْيانهم بمعارضةٍ ، ولو لم تكن من مثله)) (١) .

والواقع إني أجد (الدكتور عبد العزيز عرفه) يدافع عن (الجاحظ) ويوضح معنى قوله بالصرفه في إعجاز القرآن ، ويحاول تبرئته من زمرة القائلين بها ، وذلك بعد أن يبين قوله بإعجاز القرآن الكريم بنظمه (٢) . حيث يقول : ((فواضح من كل هذا أن (الجاحظ) لا يرى (الصرفة) بمعنى أن لا إعجاز في النظم ، وانما الإعجاز في المنع أو العجز الذى أحدثه الله في العرب ولو خلوا لكانوا قادرين على الإتيان بمثله ، وإنما يرى أن القرآن معجز بنظمه وتأليفه ، وأن العباد عاجزون على الإتيان بسورةٍ من مثله ، وإن وردت كلمة (الصرفة) على لسانه فإنما كان يريد بها نوعاً من التدبير الإلهى ، لئلا يكون لأهل الشغب متعلق حين يحاول المعارضة محاول)) (٣) .

وفي هذا الدفاع تبرئة لساحة (الجاحظ) من (الصرفة) ورد على كل من رمى به وزجه في زمرة القائلين بها .

وإني أجد في رد (عبد الكريم الخطيب) والدكتور عبد العزيز عرفه) تسرعاً ، إذ وافقا الجاحظ أن يكون هناك منع وصرف للعرب عن إتيان العرب بما يضاهي القرآن الكريم ، لئلا ينشغل العرب في هذه القضية ، بحيث تكون محل أخذ ورد . ولكن الواضح الصريح، نداء القرآن الكريم بآيات كثيرة من القرآن ، تدعو للإجتماع والحشد والتصدى ولو بكلام مفترى . يقول تعالى :

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (٤) . وغير هذه الآية العديد من الآيات الكريمة .

وعلى كل حال فسنلاحظ بعد قليل رد (الخطابي) وغيره على مثل هذه الدعوى .

---

(١) قضية الاعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية ، ص ١٤٦ ، ١٤٧ .
(٢) وذلك في الصفحات ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ من نفس المرجع .
(٣) المرجع نفسه ص ١٥٥ .
(٤) سورة الاسراء آية ٨٨ .

وإذا سرنا قليلاً إلى الأمام وجدنا (الخطابي) و(الرماني) من أشهر من تكلم في (الصرفة). فـ(الرماني) اعتبرها من وجوه الإعجاز . وقد عبر عنها قائلاً :

((وأما(الصرفة) ، فهي صرف الهمم عن المعارضة ، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة) (١) .

وكانت حجته في ذلك ، أن كثيرا من أهل العلم قبله قد قالوا بقوله ، واعتمدوا على (الصرفة)في إثبات إعجاز القرآن ، وهو سلك نفس طريقهم واتخذ منهجهم نبراساً ، لذا رأى على ما يبدو أن لا داعي لإثبات الإعجاز بالصَّرف ، بل شرح الأدلة التي تثبت ذلك .

لأن مقدرة الصرف في حد ذاتها معجزة ، وأنها حجة يجب الرضى بها وتقبلها ، يقول :

((وذلك خارج عن العادة ، كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول)) (٢) .

ولقد شرح (الخطابي ت ٣٨٨ هـ) رأيه في (الصرفة)وبين وجهة نظره في ردها حيث يقول :

((وذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه الصرفة ، أي صرف الهمم عن المعارضة وإن كانت مقدوراً عليها ، وغير معجزة عنها ، إلا أن العائق من حيث كان أمرا خارجا عن مجارى العادات ، صار كسائر المعجزات فقالوا : ولو كان الله عز وجل بعث نبياً في زمن النبوات ، وجعل معجزته في تحريك يده ، أو مد رجله في وقت قعوده بين ظهراني قومه ، ثم قيل له : ما آيتك ؟ فقال آيتي أن أحرك يدي أو أمد رجلي ، ولا يمكن أحداً منكم أن يفعل مثل فعلي ، والقوم أصحاء الأبدان لا آفة بشيء من جوارحهم ، فحرك يده ، أو مد رجله ، فرامموا أن يفعلوا مثل فعله فلم يقدروا عليه ، كان ذلك آية دالة على صدقه ، وليس ينظر في المعجزة إلى عظم حجم ما يأتي به النبي ولا إلى فخامة منظره وإنما تعتبر

---

(١) النكت في اعجاز القرآن ص ١١٠ .
(٢) النكت في اعجاز القرآن ص ١١٠ .

صحتها بأن تكون أمراً خارجا عن مجارى العادات ناقضاً لها ، فمهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالة على صدق من جاء بها)) (١) .

فبعد أن عرف (الخطابي) (الصرفة) بأنها صرف الهمم عن معارضة القرآن الكريم مع أن مقدرة العرب البيانية لها من المنزلة الرفيعة ما يجعلها تستطيع أن تأتى بمثل القرآن الكريم ، فكان الإعجاز بهذا المفهوم هو في المنع والصرف عن الإتيان بمثل القرآن الكريم ، وليس في ذات القرآن الكريم .

وعلى كل فقد كانت عبارة (الخطابي) في هذا الموضع توحي لبعض من تعجل في قراءتها أنه يؤيد القول بالصرفة على أنها سر الإعجاز والأمر بخلاف ذلك ، يدل على ذلك قوله :

((وهذا أيضاً وجه قريب ، إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه وهي قوله (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (٢) . فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد ، وسبيله التأهب والإحتشاد والمعنى في (الصرفة) التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة ، فدل على أن المراد غيرها والله أعلم)) (٣) .

وهو بهذا القول الواضح الفصيح ، قد أبطل مفهوم (الصرفة) ، وبيين أنه لا ينطبق بحال على إعجاز القرآن ، لأن الآية الكريمة التي استدل بها تتحدى الجن والانس أن يحتشدوا ، وأن يظاهر بعضهم بعضاً حتى يأتوا بمثل القرآن ، فهذا المعنى يدل على أن ذات القرآن معجز ، وليس التحدى في منع الناس عن مضاهاته .

وهذا المفهوم (للصرفه) لدى (الخطابي) ، قد اختلف في فهمه ، كل من (عبد الكريم الخطيب) ، (والدكتور حفني شرف) ، إذ يقول (عبد الكريم الخطيب):

((وينكر (الخطابي) هذا الرأى الذى يقول : إن الإعجاز كان من قبيل (الصرفة) ، ثم يسقطه من حساب المعجزة ، والإعجاز)) (٤) .

---

(١) اعجاز القرآن للخطابي ص ٢٢ ، ٢٣ .
(٢) سورة الاسراء من الآية ٨٨ .
(٣) بيان اعجاز القرآن ا ص ٢٣ .
(٤) الاعجاز في دراسات السابقين ص ١٨٥ .

أى أن(الدكتور عبد الكريم)، يرى في معنى نص(الخطابي)أنه ينفي أن تكون (الصرفة)وجهاً من وجوه الإعجاز .

ويستشهد برد (الخطابي) قائلاً :

((وهذا أيضاً وجه قريب [1]، إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه وهي قوله سبحانه : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) [2] .

ويحلل(عبد الكريم الخطيب) ،رأي(الخطابي) قائلاً :

(((والخطابي) يرى في الصورة التي عرضها القائلون(بالصرفة)، والتى صوروا بها المعجزة - أن هذه الصورة يمكن أن تقوم عليها المعجزة الحسية التى تتحدى قوى البشر ، فيجيء النبي بمعجزة تسلك ألسنتهم عن الكلام يوما أو أياما ، أو ما شابه ذلك . أما معجزة القرآن فهي لا تتحدى قوى الناس في الجانب المادي المحسوس ، ولكنها تتحدى الملكات العقلية والطاقات النفسية والروحية الكامنة فيهم ، ليقولوا كلاما كهذا الكلام ، وما عطل الله من العرب ملكاتهم العقلية ، ولا حبس طاقاتهم النفسية والروحية ، بل كانوا يتكلمون ويجادلون ويهجون ما أحسوا يوماً أنهم فقدوا شيئاً من البيان الذى كان يجرى على ألسنتهم [3])) .

يقول (عبد الكريم الخطيب) أن معنى(الصرفة)لدى (الخطابي) لا يدل على أنه يقول أن الإعجاز بها ، بل يرى أن معجزة القرآن الكريم تختلف عن غيرها من المعجزات ، لأنها تتحدى قوى الناس المادية ، والمحسوسة مع أنه سبحانه لم يعطل مقدرة العرب ، ولا قيدهم بل ترك لهم الأمر يجتمعون له كيف شاءوا ، وهذا المعنى لا ينطبق على معنى(الصرفة)التي وصفوا بها القرآن .

---

(١) ويشرح عبد الكريم الخطيب معنى قول الخطابي (وهذا أيضا وجه قريب) فيقول أى التصوير للمعجزة ووقوعها على نحو هذا ممكن ، ولكن ذلك في المعجزة المادية التي تظهر في واقع الحس متحدية القدرة الإنسانية ، أما في القرآن فجاءت المعجزة فيه على غير هذا)) .

(٢) سورة الإسراء آية ٨٨ .

(٣) بيان إعجاز القرآن للخطابي ص ٢٣ .

ولكن(الدكتور حفني شرف)يزج (الخطابي) في زمرة القائلين بالصرفة حين يقول :

((ويتقدم (الخطابي) في بحثه خطوة فيناقش فكرة الصرفة ، في إعجاز القرآن ، ويذكر حجة القائلين بها ويعلق عليها ، بقوله :

((فهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالة على صِدْقِ من جاء بها ، وهذا أيضاً وجْهٌ قريب)) . (١)

ولسنا ندري كيف يصِفه (الخطابي) بالقرب ، مع أنه واضِح الفساد ظاهر البُطْلان ، بل لعله أفسد ما قيل في الإعجاز ، وفساده واضح من قوله تعالى : ((قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)) (٢) .

وذلك لأنه يدل على أمر طريقه التكلف والاجتهاد ، و(الصرفة)تخالف ذلك تمام المخالفة)) .(٣)

((ونستطيع أن نستدل بالآية على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سلبوا القدرة - وهو معنى(الصرفة) - لم يبق لاجتماعهم فائدة ، لأنه يكون والحالة هذه بمنزلة اجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى مما يحتفل وينوه به .

كما أن الإجماع منعقد - قبل (النظام) وهو القائل بالصرفة ، على إضافة الإعجاز إلى القرآن ، لا إلى الله سبحانه وتعالى .

كذلك فإنه لو لم يضف الإعجاز إلى القرآن ، أي أن المنع من المعارضة ، كان من قبل الله ، للزم على هذا زوال الإعجاز بإنقضاء زمان التحدي ، وهذا في غاية الفساد)) (٤) .

---

(١) بيان اعجاز القرآن للخطابي ص ٢٣ .
(٢) سورة الاسراء آيه ٨٨ .
(٣) إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق ٤/ ٥١ سنة ١٣٩١ هـ ، سنة ١٩٧٠ م د . حفني محمد شرف .
(٤) المرجع نفسه ص ٥٣ .

وكما قدمت فالصرفة موضوع قد شغل العلماء كثيراً وكتب فيه (الشيخ عبد القاهر) . وكانت بعض آرائه مستقاه من نهر آراء العلماء السابقين وهو يرى في القول بالصرفة أن تكون العرب قد تراجعت وتناقضت بلاغتها عما كانت عليه في الجاهلية .

فلم تعد خطبهم وأشعارهم التي قالوها قبل التحدى وبعده في نفس المستوى - بل قصرت عنه قصوراً شديداً .

وأن تكون أشعار شعراء المسلمين التي قالوها في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي الرد على المشركين قاصرة ناقصة المعنى والبلاغة . وكأن دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لحسان قل وروح القدس معك ليس له فائدة ، لأنه كيف يكون معاناً ومؤيداً من عند الله ، ويقال أن بلاغته تقاصرت وتراجعت عما كانت عليه في الجاهلية .

يقول (الشيخ عبد القاهر) مبعداً أن تكون (الصرفة) وجهاً للإعجاز :

((وذاك أنه يلزم عليه أنْ يكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان ، وفي جودة النظم وشرف اللفظ ، وأن يكونوا قد نقصوا في قرائحهم وأذهانهم ، وعدموا الكثير مما كانوا يستطيعون ، وأن تكون أشعارهم التي قالوها ، والخطب التي قاموا بها . . وكل كلام اختلفوا فيه من بعد أن أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وتحدوا إلى معارضة القرآن قاصرا عما سمع منهم من قبل ذلك، القصور الشديد ، وأن يكون قد ضاق عليهم في الجملة مجال قد كان يتسع لهم ، ونضبت عنهم موارد قد كانت تغزر ، وخذلتهم قوى قد كانوا يصولون بها ، وأن تكون أشعار شعراء النبي صلى الله عليه وسلم التي قالوها في مدحه عليه السلام وفي الرد على المشركين ناقصة متقاصرة عن شعرهم في الجاهلية ، وأن يشك في الذى روى عن شأن (حسّان) من نحو قوله عليه السلام : قل وروح القدس معك ، لأنه لا يكون معاناً مؤيداً من عند الله وهو يعدم مما كان يجده من قبل كثيراً .

ويتقاصر أنفه حاله عن السالف منها تقاصراً شديداً)) [1] ولقد عرض

---

(١) الرسالة الشافية ص ١٤٦ .

لهذه الفكرة -(الباقلاني) ، ولكنه اقتضبها ، فلم يردها ولم يناقشها ، كما ردها وناقشها (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) ، فالذى رآه (الباقلاني) :

أن العرب حين تحدوا بمعارضة القرآن ، لم يعرف عن بلاغة العرب في الجاهلية أنها تناقصت ، ومقدرتها تراجعت ، وكذلك لم يتجدوا إلى معارضة القرآن ، فكيف كان الصرف والمنع إذاً . بل أوضاعهم البيانية كما علمناها ، وكما عرفنا أنها بلغت القمة في فصاحتها وبيانها .

يقول الباقلاني) :

((على أنه لو كانوا صرفوا على ما ادعاه ، لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرصف لأنهم لم يتحدوا إليه ولم تلزمهم حجته)).(١)

وإن القول بهذه المقالة شنيع ، وضعيف ، لأنه يؤدى إلى جهالات كثيرة .

منها أن يكون حال النبي صلى الله عليه وسلم البيانية قد دخلها نقص واعتراها ضعف .

وأن تكون النبوة قد أدت إلى منعه شطرا من بيانه ، مع ما عرف له من شرف اللفظ وحسن النظم ، يقول (الشيخ عبد القاهر) :

((واعلم أنه يلزمهم أن يقضوا في النبي صلى الله عليه وسلم بما قضوا في العرب ، من دُخول النقص على فصاحتهم ، وتراجع الحال بهم في البيان ، وأن تكون النبوة قد أوجبت أن يمنع شطرا من بيانه ، وكثيراً مما عُرف له قبلها من شرف اللفظ وحسن النظم ، ذاك لأنهم إذا لم يقولوا ذلك حصل منه أن يكون عليه السلام قد تلا عليهم : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا).(٢)

---

(١) اعجاز القرآن ص ٣٠ .

(٢) سورة الاسراء آيه ٨٨ .

في حال هو يستطيع فيها أن يجيء بمثل القرآن و يقدر عليه ، و يتكلم ببعض ما يوازيه في شرف اللفظ ، وعلو النظم)) .(١)

و(للصرفه)مداخل كثيرة واهية ، ذلك أن القول بها ، يعنى أن هناك قوة خارقة صرفت مقدرة كل هؤلاء الناس البيانية عن مضارعة القرآن الكريم .

أى أن البرهان و الدليل في مقدرة هذه القدرة على الصرف و المنع وليس في القرآن نفسه .

يقول (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) :

((و جملة الأمر أن علم النبوة عندهم ، و البرهان به إنما كان في الصرف و المنع عن الإتيان بمثل نظم القرآن ، لا في نفس النظم ، و إذا كان كذلك ، فينبغي إذا تعجب المتعجب وأكبر المكابر أن يقصد بتعجبه و إكباره إلى المنع الذى في الآية و البرهان ، لا إلى الممنوع منه ، و هذا واضح لا يشكل)) .(٢)

ولقد سبق (الباقلاني) بهذه الفكرة أيضاً ، حيث عبر هناك بجمل قصيرة و مفيدة . بين فيها أن القول بهذه المقالة يقتضي أن يكون القرآن في نفس منزلة الكلام العادى . يقول :

((و مما يبطل ما ذكروه من القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة ، وإنما منع منها الصرفة ، لم يكن الكلام معجزاً ، و إنما يكون المنع هو المعجز ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه)) .(٣)

و إن للصرف مسالك كثيرة في القول ، و دعاوى باطلة ، ذلك أن يقولوا : إن الشاعر عند ما يستحسن شعر غيره من الشعراء ، و يرى فيه فضلاً على شعره ، لا يداخله شك في أنه يستطيع أن يقدر على مضاهاته إذا اجتهد في ذلك ، ولكنه حيل بينهم و بين ذلك الاجتهاد . يقول :

---

(١) الرسالة الشافية ص ١٤٨ .

(٢) الرسالة الشافية ص ١٥٢ .

(٣) إعجاز القرآن ص ٣٠ .

((فإن قالوا : إنه ليكون أن يستحسن الشاعر الشعر يقوله غيره و يكبر شأنه ، و يرى فيه فضلاً و مزية على ما قاله هو من قبل ، ثم هو لا ييأس من أن يقدر على مثله إذا هو جهد نفسه و تعمل له ، فنحن نجعل لفظ القرآن ونظمه على هذا السبيل ، و نقول : إنهم سمعوا منه ما بهرهم و عظم في نفوسهم ، ولكنهم على حال أنسوا من أنفسهم بأنهم يأتون بمثله إذا هم اجتهدوا فحيل بينهم و بين ذلك الاجتهاد)) .(١)

(و الشيخ عبد القاهر) يرد على هذه الدعوى ، و يناقش قائلها ، إذ المفروض في الذى يمنع من قولٍ يستطيع قوله . أن يقول مالى منعت وعجزت عما كنت استطيع أن أقوله ، يقول :

((و أول ما يدل على بطلان ما قلتم أن الذى عرفنا من حال الناس فيما سبيله ما ذكرتم التضجر و الشكوى ، و أن يقولوا : مالنا و من أين دهينا ؟ و كيف الصورة ؟

إنا وإن كنا نسمع قولاً له فضل و مزية على ما قلناه ، إنه بالذى ليس ينبغي أن يعجز عنه هكذا ، حتى لا نستطيع في معارضته ما نرضى فلا تدرى أسحرنا أم ماذا كان ؟ ففي أن لم يروعنهم شيء من الجنس على وجه من الوجوه دليل أن لا أصل لما توهموه ، و أنه تلفيق باطل)) (٢) .

ولقد قال قائل منهم أنه السحر ، فسرت تلك المقالة في معظمهم سريان الدم في العروق ، يصفون القرآن بالسحر ، لأنه على حد زعمهم فرق بين الأهل و الاخوان .

ولم يعرف عن أحد منهم أنه قال إنه قصور في عزائمنا ماذا دهانا ؟ كنا نقول مثل ذلك .

و يقول (الشيخ عبد القاهر) في القائلين بالصرفة :

((ثم إن هذه الشناعات التي تقدم ذكرها تلزم أصحاب(الصرفة)أيضا و ذاك

---

(١) الرسالة الشافية ص ١٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٣ .

أنه لو لم يكن عجزهم عن معارضة القرآن ، وعن أن يأتوا بمثله ، لأنه معجز في نفسه ، ولكن لأن أدخل عليهم العجز عنه ، وصرفت هممهم ، وخواطرهم عن تأليف كلام مثله ، وكان حالهم على الجملة حال من أعدم العلم بشيء قد كان يعلمه وحيل بينه وبين أمر قد كان يتسع له ، لكان ينبغي أن لا يتعاظمهم ، ولا يكون منهم ما يدل على اكبارهم أمره وتعجبهم منه ، وعلى أنه قد بهرهم ، وعظم كل العظم عندهم ، ولكان التعجب للذى دخل من العجز عليهم ، ولما رأوه من تغير حالهم ، ومن أن حيل بينهم وبين شيء قد كان عليهم سهلا ، وأن سد دونه باب كان لهم مفتوحا ، أرأيت لو أن نبيا قال لقومه (ان آيتي أن أضع يدى على رأسي هذه الساعة وتمنعون كلكم من أن تستطيعوا وضع أيديكم على رؤوسكم) وكان الأمر كما قال ، مم يكون تعجب القوم ؟ أمن وضعه يده على رأسه أم من عجزهم أن يضعوا أيديهم على رؤوسهم ؟)) .(١)

والملاحظ أن (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) قد استقى هذه الفكرة من الخطابي ، وقد مضى الحديث عنها (٢) .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٥٣ ، ٣٦٠ .

(٢) ينظر ص١٨٦ من هذا الفصل .

الباب الثاني

مصادر بلاغة الإمام عبد القاهر

ويتكون من أربعة فصول

الفصل الأول : العلماء الذين أخذ منهم الشيخ عبد القاهر ولم يذكر أسماءهم في كتبه.

الفصل الثاني : العلماء الذين أخذ منهم الشيخ عبد القاهر وذكر أسماءهم في كتبه.

الفصل الثالث : بلاغة الشيخ عبد القاهر، ومدى صلتها بالبلاغة اليونانية.

الفصل الرابع : جهود الشيخ عبد القاهر في علوم البلاغة. و

ويشتمل هذا الفصل على المباحث التالية:

المبحث الأول : الفصل والوصل.

المبحث الثاني : التقديم والتأخير.

المبحث الثالث : الحذف والقصر بـ (إنما)

المبحث الرابع : الكناية.

المبحث الخامس : الاستعارة.

المبحث السادس : التشبيه والتمثيل.

المبحث السابع : الرقاة الأدبية.

الفصل الأول

العلماء الذي أخذ منهم الشيخ عبد القاهر ولم يذكر أسماءهم في كتبه .

الفصل الأول

العلماء الذين أخذ منهم عبد القاهر ولم يذكر أسماءهم

إن نظرية النظم التي وضعها (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) ، هي أساس إعجاز الكلام المعجز ، وهي أساس الكلام البليغ ، وقد تحدث عنها في كل كتابه (دلائل الإعجاز) ، ليس لأنه يريد تثبيتها ، بل لأنه ربطها بكل أنواع الكلام .

ولقد استنبط هذه النظرية من بعض ما كتب في بعض المؤلفات فوسعه ووضحه .

وها هو ذا قد استوحى بعض ما جاء في كتاب (عيار الشعر) (لابن طباطبا العلوى) ، وإن لم يصرح باسمه .

يقول (الشيخ عبد القاهر)، عند ما قسم الكلام أقساما ، ما حسنه للفظه ، وما حسنه لمعناه ، ومنه ما حوى جمال اللفظ والمعنى ، ووضعت ألفاظه مواضعها التي بها اكتسب الفضل ، وحاز الأولوية ، يقول :

((ومنه ما أنت ترى الحسن يهجم عليك منه دفعة ، ويأتيك منه ما يملأ العين غرابة ، حتى تعرف من البيت الواحد مكان الرجل من الفضل وموضعه من الحذق ، وتشهد له بفضل المنة ، وطول الباع ، وحتى تعلم إن لم تعلم القائل - أنه من قبل شاعر فحل ، وأنه خرج من تحت يد صناع ، وذلك ما إذا أنشدته ، وضعت فيه اليد على شيء ، فقلت : هذا هذا .. ما كان كذلك فهو شعر الشاعر ، والكلام الفاخر ، والنمط العالي الشريف ، والذى لا تجده إلا في شعر الفحول البزل [1] ، ثم المطبوعين الذين يلهمون القول الهاما)) [2] .

---

(١) البزل : جمع بازل وهو البعير في السنة التاسعة ، يبزل نابه اى يطلع ويستعار للرجل المجرب انظر اللسان مادة (بزل) ١١ / ٥٢ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ١٢٤ .

فتلك أوصاف النمط العالي من الكلام ، والذى يأتي سلسا كالماء الذى لا يتأتى إلا لذوى الطبع ، والذين يلهمون القول الهاما .

ولقد استنبط هذه الفكرة من (ابن طباطبا) ، والذى حام بدوره حول موضوع النظم ، فأخذ منه (عبد القاهر الجرجاني) ما قوم به اساس بناء هذه النظرية ، وذلك حين قال ابن طباطبا :

((فمن الأشعار أشعار محكمة متقنه أنيقة الألفاظ حكيمة المعاني ، عجيبة التأليف ، إذا نقضت وجعلت نثرا ، لم تبطل جودة معانيها ، ولم تفقد جزالة ألفاظها ، ومنها أشعار سوهة ، مزخرفة عذبة ، تروق الأسماع والأفهام ، إذا مرت صفحا . فإذا حصلت وانتقدت بهرجت معانيها ، وزيفت ألفاظها ، ومجت حلاوتها ، ولم يصلح نقضها لبناء يستأنف منه ، فبعضها كالقصور المشيدة ، والأبنية الوثيقة الباقية على مر الدهور ، وبعضها كالخيام الموتدة التي تزعزها الرياح ، وتوهيها الأمطار ، ويسرع إليها البلى ، ويخشى عليها التقوض)) .(١)

يعنى أن هناك من الأشعار الجزل الرصين ، والمحكم المعاني ، الذى كس ثوب جمال لا يفارقه حتى لو تحولت تلك الأشعار إلى نثر فإنها تظل محتفظة برونقها وبهائها ، فلا تفقد جزالة ألفاظها ، ولا روعة معانيها .

وإنما يتفاضل الشعراء فيما بينهم بفضل ما ينظمون من أشعار ، ويعود هذا الفضل بحسن عبارتهم ونظمهم ، واختيار المناسب من الألفاظ .

وبعض الألفاظ تحسن في مكان عنها في آخر ، وذاك الفضل يرجع إلى حذق الشاعر في موضع إختياره .

ولقد ضرب (الشيخ عبد القاهر الجرجاني) عدة أمثلة للكلمة الواحدة وأثبت أنها في حد ذاتها ليس لها في شأن البلاغة شيء إلا بحسب المكان الذى توضع فيه ، والمناسبة التي تختار لها .

فهذا (المتنبي) قد نظم بيتا من قلائد شعره ، إلا أن استعمال كلمة واحدة في غير موضعها المناسب ، قد جلبت له الضعف ، كما في قوله :

---

(١) عيار الشعر لابن طباطبا العلوى ص ١٣ ط ١ ١٤٠٢ هـ . دار الكتب العلمية .

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه
لعوقه شيء عن الدوران

يقول (القاضي الجرجاني) :

((وهذا البيت من قلائده ، إلا أنك تعلم ما في قوله (شيء) من الضعف الذى يجتنبه الفحول ، ولا يرضاه النقاد ، وهو وأشباه هذا مما لم نرد استقصاءه ، وإنما دللناك على منهاجه ، وأريناك بابه ، وقد قدمنا ما استزد لنا من شعره)) .(١)

فقد استزل (القاضي الجرجاني) كلمة (شيء) في البيت ،وهذا يدل بوضوح على أهمية اختيار اللفظ المناسب في المكان المناسب ، لأن النقاد ، وكل متذوق للشعر ينكر استعمال الألفاظ التي لا تتلاءم مع جاراتها .

وهذا احساس شاع بين النقاد ، كما قال في ذلك (القاضي) : ((إلا أنك تعلم ما في قوله شيء من الضعف الذى يجتنبه الفحول ولا يرضاه النقاد))

وهذه هي الفكرة التي أخذها (الشيخ عبد القاهر) ، وجعل منها موضوعا طرق به سبل الاعجاز القرآني .

يقول (الشيخ عبد القاهر) : ((ومن أعجب ذلك لفظة الشيء ،فانك تراها مقبولة حسنة في موضع ، وضعيفة مستكرهه في موضع ، وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي (٢) - :

ومن مالئ عينيه من شيء غيره
إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

وإلى قول أبي حية : (٣)

---

(١) الوساطة ص ١٨١ .
(٢) البيت من الطويل .
(٣) أبو حية النميرى : هو الهيثم بن الربيع وكان يروى عن الفرزدق ، وكان كذابا . قال ذات يوم : عن لى ظبي فرميته ، فراغ عن سهمى فعارضه والله ذلك السهم ، ثم راغ ، فراوغه السهم حتى صرعه ببعض الخبارات. ولقيه بن مناذر فسأله أن ينشده ، فأنشده :
ألا حى من بعد الحبيب المغانيا لبسن البلى مما لبسن الليالي

إذا ما تقاضى المرء يـوم وليلـة
تقاضاه شيء لا يمل التقاضيـــا

فإنك تعرف حسنها و مكانها من القبول ،ثم انظر إليها في بيت المتنبي :

لو الفلك الدوار أبغضت سعيـــه
لعوقـه شيء عن الـــــدوران

فإنك تراها تقل و تضؤل بحسب نبلها ،و حسنها فيما تقدم)) (١)

و لقد تبين لنا من ذلك أن ليس للكلمة شرف في ذاتها وانما بالمكان الذى تستعمل فيه ، لأن حسن اختيار الألفاظ يضفى رونقا و بهاء لا يكون إذا لم يحسن اختيار اللفظ ، ولقد نبه (القاضـي الجرجاني) على أن الكلمة قد تأتي ضعيفـــة كما سبق .

و لقد وقع (المتنبي) في هـوة سوء ترتيب الأفكـار و تنظيمها حيـــث يقـول : (٢)

و لذا اسم أغطيـة العيون جفونهـا
من أنها عمل السيوف عوامـــل

و قولـــه : (٣)

الطيب أنت اذا أصابك طيبـــه
و الماء أنت إذا اغتسلت الغاســل

= فقال له ابن مناذر : أو هذا شعر ؟ فقال أبو حية : ما في شعرى شر من أنك تسمعه) البيت من الطويل . انظر الكامل ١/ ١٢٨ الشعـــر و الشعراء ٢ / ٧٧٤ .

(١) دلائل الاعجاز ص ٩١ ، ٩٢ .

(٢) البيت من الكامل من قصيدة يمدح بها القاضي أبا الفضل الأنطاكي ديوانه ٣/ ٢٥٢

(٣) من نفس القصيدة الديوان ٣ / ٢٦١ .

وقولـــه : [1]

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمـــه
بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمـــه

وفي نظائر ذلك مما وصفوه بفساد النظم ، وعابوه من جهة سوء التأليـــف أن الفساد والخلل كانا من أن تعاطى الشاعر ما تعاطاه من هذا الشأن علـــى غير الصواب ، وصنع في تقديم أو تأخير أو حذف واضمار ، أو غير ذلك مما ليـــس له أن يصنعه ، ومالا يسوغ ولا يصح على أصول هذا العلم)). [2]

وفساد هذا الشعر ، حتى تهرأت أركانه بعضها من بعض لاضطراب التأليف وسوء النظم ، إذ لم يطبق الشاعر أصول النحو وأحكامه ، فقدم وأخر ، وحذف وأضمر مالا يحذف أو يضمر .

ولقد استنبط هذا المعنى من خلال عرض (القاضي الجرجاني) لأبيـــات (المتنبي) ، عندما قام بالوساطة بينه وبين خصومه ، حيث يقول :

((قلت : قد جمع في هذه الأبيات ، وفي غيرها مما احتذى به حذوهـــا بين البرد والغثاثه ، وبين الثقل والوخامـــة ، فأبعد الاستعارة ، . وعوّض اللفظ ، وعقد الكلام ، وأساء الترتيب ، وبالغ في التكلف ، وزاد على التعمـــق حتى خرج إلى السخف في بعض ، وإلى الإحالة في بعض)). [3]

وكان قد استشهد بقول المتنبي :

ولذا اسم أغطيه العيون جفونهـــا
من أنها عمل السيوف عوامـــل

---

(١) من الطويل ساجمه : سجم الدمع سجوما وسجاما : قطر دمعها وســـال قليلا أو كثيرا . انظر الفيروزبادى ٤ / ١٢٩ وهذا البيت من أول مـــا أنشد المتنبي سنة سبع وثلاثين ومئة عند نزوله انطاكية ومنصرفه من ظفـــره بحصن مدح بها بسيف الدولة أبا الحسن العدوى، انظر ديوانه ٣/ ٣٢٥ .

(٢) دلائل الاعجاز ص ١١٩ .

(٣) الوساطة ص ٩٢ .

وقولـــه :

الطيب أنت اذا أصابك طيبـــــه

والماء أنت اذا اغتسلت الغاسـل

وبعد أن سرد أبياتا عدة للمتنبي علق عليها قائـلا :

((فهو كما تراه سخافة وضعفا ، ولو تصفحت شعره لوجدت فيه أضعاف ما ذكره من هذه الاشارة ، وأنت لا تجد منها في عدة دواوين جاهلية حرفا ، والمحدثون أكثر استعانة بها ، ولكن في الفرط والندرة ، أو على سبيل الغلط والغلتة .

وقلت : احتملنا له ما قدمناه على ما فيه من فنون المعايب ، وأصناف القبائـح ، كيف يحتمل له اللفظ المعقد ، والترتيب المتعسف لغير معنى بديع يفي شرفه ، وغرابته بالتعب في استخراجه ، وتقوم فائدة الانتفاع بازاء التأذى باستماعه ، كقوله :

وفاؤكما كالربـع أشجاه طاسمـــه

بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمـــه

ومن يرى هذه الألفاظ الهائلة ، والتعقيد المفرط فيشك أن وراءها كنزا مـــن الحكمة ، وأن في طيها الغنيمة الباردة ، حتى اذا فتشها وكشف عن سترها وسهر ليالي متوالية فيها ، حصل من ذلك كله على أن : ((وفاءكما ياعاذلي بأن تسعداني ، اذا درس شجاي ، وكلما ازداد تدارسا ، ازددت له شجوا ، كما أن الربع أشجاه دارسه فما هذا من المعاني التي لا يضيع لها حلاوة اللفظ ، وبهاء الطبع ، ورونـق الاستهلال ، ويشح عليها حتى يهلهل لأجلها النسج ، ويفسد النظم ، ويفصل بـين الباء ومتعلقها بخبر الابتداء قبل تمامه ، ويقدم ويؤخر ، ويعمى ويعوص)) (١) .

وها هو ذا بشر بن المعتمر (٢) ، قد طرح مسألة اللفظ والمعنى ، وهي الـتي

---

(١) الوساطة ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) بشر بن المعتمر : هو أبو سهل بشر بن المعتمر الهلالي ، الذى ينحدر فيمـا يبدو من الكوفة ، ولكنه استوطن بغداد ، ونظم تعاليم المعتزلة في شعر لكـي تشيع بين الناس ، لأنه كان على عكس مدرسة البصرة من أنصار على رضي اللـه عنه ، وضعه هارون الرشيد في السجن ، غير أنه عاد فاكتسب نفوذا قويا في عهد المأمون ، وتوفى سنة ٢١٠ هـ . له قصيدتان تعليميتان في تاريخ الطبيعـة ذكرهما الجاحظ وشرحهما ، كما ألف لهارون الرشيد صحيفة في البلاغة ، انظر ٤/٢٥/٢٦ من تاريخ العرب لكارول بروكلمان .

دارت في كتاب دلائل الاعجاز ، دون أن يشير (الشيخ عبد القاهر) في كثير من المواضع إلى ذكر أصحابها و من أوائل من كتبوا فيها ، مثل (الجاحظ) الذى نقل صحيفة (بشر) ، و التي يقول فيها :

((و التعقيد هو الذى يستهلك معانيك و يشين ألفاظك ، و من أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، و من حقهما أن تصونهما عما يفسدهما و يهجنهما)) .[1]

و تدل هذه الفقرة على أن (بشرا) في صحيفته ، يساوى بين أهمية اللفظ و المعنى ، و أن لكل منهما حقه من وجوب العناية به و الحكم على الأديب بالفنية بقدر ما يجيد فيهما معا .

المبالغة :

و هي من الألوان البديعة التي كثر وقوف النقاد و الشعراء عندها فمن راغب فيها مستحسن لها ، و من راغب عنها زاهد فيها ، عائب من يورد ها في أدبه .

و قد وصف المتقدمون ما جاء منها بأوصاف عدة : الإفراط - الإفراط في الصفة - تجاوز المقدار - الإغراق - التبليغ - الغلو .

و كلمة المبالغة وردت قديما وصفا لمجاوزة الحد في المعاني .

لذلك كانت جميع الصور البيانية من تشبيه و مجاز و كناية تفيد المبالغة ، لأنه لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز ، ولا عن التصريح إلى الكناية ، ولا عن الكلام المجرد إلى التشبيه ، إلا لأغراض لا تؤديها هذه الأصول ، و من هذه الأغراض المبالغة .

و لقد وردت هذه الصور البيانية جميعها في القرآن الكريم ، و في الأحاديث الشريفة مما يدل على أن المبالغة أصيلة في اللغة العربية .

---

(١) البيان و التبيين ١ / ٨٦ للجاحظ .

و من خلال أمثلة المبالغة و تعريفاتها دخل (الشيخ عبد القاهر) إلى قضية (الصدق و الكذب في الشعر) ، و تلك القضية لم يكن (عبد القاهر) أول من عالجها ، و إنما سبقه إليها كثير من النقاد و العلماء .

و لقد سبقه بعضهم إلى شيء مما قاله ، مثل (ابن قتيبة) ، (و قدامه بن جعفر و (المبرد) و (أبو هلال العسكرى) .

و لقد وسمت المبالغة (بالصدق و الكذب في الشعر) و هي قضية قد كتب فيها كثير من النقاد و الأدباء و يسمى جانب (الكذب) (بالتخييلي) الذى وصفه (الشيخ عبد القاهر) بأنه ((الذى لا يمكن أن يقال إنه صدق و إن ما أثبته ثابت ، و ما نفاه منفى ، و هو مفتن المذاهب كثير المسالك لا يكاد يحصر إلا تقريبا ، و لا يحاط به تقسيما و تبويبا ، ثم إنه يجيء على طبقات ويأتي على درجات)). (١)

و إن المقصود منه أنه على شعب مختلفة و لا يصح أن توسم كل هذه الأنواع بالكذب فيه مجاوزة و تنفيرا .

لأنه قد يكون ما أثبته الشاعر غير ثابت ، و ما نفاه غير منفى ، و لكن بعضه له أصل زيد عليه و بولغ فيه ، و لم يقصد قائله إلى الكذب ، و إنما قصد إلى تضخيم أمر أو تهوينه ، إو إلى الحث على فعل مكرمة أو التنفير من اقتراف سيئة .

موقف الشيخ عبد القاهر من العلماء الذين سبقوه في الحديث عن المبالغة :

لقد اشتد الخلاف كثيرا حول المبالغة ، فتفرقت بالعلماء السبل ، فمنهم المستحسنون لها المغالون في تقديرها .

و منهم المستهجنون لها ، الزارون عليها و على من يزاولها. و منهم من هو وسط بين المغالين و الزارين .

و الخوض في هذا الموضوع شائك ، لكثرة من ألف فيه و لتعدد آراء العلماء .

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٤٧ .

لا يمكن أن نستقصي كل ما ورد بل سوف أجعل - بإذن الله كل مذهب مستقلا عن الآخر ، و من ثم أبين الآراء التي استفاد منها (عبد القاهر) و من قائلها .

فمن العلماء الوسط ، الذين فضلوا الإقتصاد في أداء المعاني :

١ - (المبرد) : الذى أورد قول الشاعر : (١)

فلو أن ما أبقيت مني معلـق
بعود ثمام ما تأود عودهـا

و قال : إنه متجاوز ، كقول القائل (في وصف فرسه) :
(و يمنعها من أن تطير زمامها)

و أحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه ، و أحسن منه ما أصاب بـه الحقيقة ، و نبه بفطنته على ما يخفى على غيره ، و ساقه برصف قوى ، و اختصار قريب ، قال (قيس بن معاذ) : (٢)

و أخرج من بين البيوت لعلـني
أحدث عنك النفس في السر خاليا

و إني لا ستغشى و ما بي غشيـة
لعل خيالا منك يلقى خياليـا (٣)

٢ - و من هؤلاء ايضا : (محمد بن أحمد بن طباطبا العلوى) :

فقد ذكر في كتابه ((عيار الشعر)) أنه يفضل الاقتصاد في أداء المعانـي و الإشادة بذلك . فهو مرة يقول : ((و الفهم يأنس من الكلام بالعدل الصواب الحق ، و الجائز المعروف المألوف ، و يتشوف إليه ، و يتجلى له و يستوحش مـن

---

(١) هذا البيت من الطويل و قائله إما أبو العوام بن كعب بن زهير أو الحسين بن مطير ، أو كثير عزة أو أعرابي .

(٢) هذا الشعر من الطويل وقائله : هو المجنون قيس بن معاذ أحد بني جعدة ابن كعب بن ربيعة بن صعصعة ، و يقال هو من بني عقيل بن كعب بن ربيعة و لقب بالمجنون لذهاب عقله بشدة عشقه . و هو من أشعر الناس على انهم قد نحلوه شعرا كثيرا رقيقا يشبه شعره)) انظر ٢/٥٦٣ من الشعر والشعراء .

(٣) انظر الكامل ١/١٧٢ .

الكلام الجائر ، والخطأ الباطل ، والمحال المجهول المنكر ، وينفر منه ، ويصدأ ، فإذا كان الكلام الوارد على الفهم منظوما ، مصفى من كدر العى مقوما من أود الخطأ واللحن ، سالما من جور التأليف ، موزونا بميزان الصواب لفظا ومعنى وتركيبا اتسعت طرقه ، ولطفت موالجه ، فقبله الفهم وارتاح له ، وأنس به)) (١) .

ومرة أخرى يقول : أجزاء الشعر الجيد هي : ((اعتدال الوزن وصواب المعنى ، وحسن الألفاظ)). (٢)

ويجعل الصدق من مقومات الشعر الجيد ، وقد استشهد بقوله صلى الله عليه وسلم : ((إن من الشعر لحكمه)) وقال عليه السلام : ((ما خرج من القلب وقع في القلب ، وما خرج من اللسان لم يتعد الآذان)). (٢)

ثم قال : ((فإذا وافقت هذه الحالات ، تضاعف حسن موقعها عند مستمعها ، لا سيما إذا أيدت بما يجذب القلوب من الصدق عن ذات النفس بكشف المعاني المختلجة فيها ، والتصريح بما كان يكتم منها ، والاعتراف بالحق في جميعها)). (٣)

وبذلك أشار بوضوح إلى ما يسميه النقاد المحدثون : (الصدق الفني) وهو ما قصده وأراده حين قال :

((من الأبيات الحسنة الألفاظ ، المستعذبة الرائقة سماعا الواهية تحصيلا ومعنى ، وإنما يستحسن منها اتفاق الحالات التي وضعت فيها ، وتذكر اللذات بمعانيها ، والعبارة عما كان في الضمير منها وحكايات ما جرى من حقائقها دون نسج الشعر وجودته ، وإحكام وصفه وإتقان معناه) (٤)

---

(١) عيار الشعر ص ٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٢ .

(٤) عيار الشعر ص ٨٧ .

و قد مثل لذلك بقـــول جميل : (١)

فيا حسنها اذ يغسل الدمع كحلهـــا
و إذ هي تذرى الدمع منها الأنامـــلُ

عشية قالت في العتاب قتلـــــتني
و قتلى بما قالت هنـــاك تحـــاولُ

و مثل بعدد آخر من الأبيات ، وعلق عليها قائلا :

((فالمستحسن من هذه الأبيات حقائق معانيها الواقعة لأصحابهـــــا الواصفين لها . دون صنعه الشعر و أحكامه)) (٢) .

اذن فحسن هذه الأبيات و أشباهها عنده يرجع الى صدقها الفني ، و الـى ألفاظها العذبة ، و ان لم تكن فيها صنعة لطيفة ولا نسج محكم جيد .

٣ الآمـــدى :

إن موقف (الآمدى) من قضية المبالغة ، في إيثار الصـــدق و الإشارة به ، و الاستحسان له،لا يختلف كثيرآعن موقف (ابن طباطبا) .

و في ذلك يقول (الآمـــدى) :

((و قد كان قوم من الرواة يقولون : أجود الشعر أكذبه ، ولا و اللـــــه ما أجوده الا أصدقه ، اذا كان له من يلخصه هذا التلخيص و يورده هـــــذا الإيراد)) . (٣)

---

(١) هو جميل بن عبد الله بن معمر ، و يكن أبا عمرو ،و هو أحد عشاق العـــرب المشهورين بذلك ،وصاحبته بثينـة ،و هما جميعا من عذرة وكانت بثينة تكن أم عبد الملك . وعشق جميل بثينة و هو غلام صغير ،فلما كبر خطبها فرد عنها ، فقال الشعر فيها ،وكان يأتيها سرا ،و منزلها وادى القرى) ١/ ٤٣٤ مـن الشعر والشعراء و البيتان من الطويل و في معجم الشواهد الشعرية منسـوب للبيد و لكنه غير موجود في ديوانه .

(٢) عيار الشعر ص ٨٧ ، ٨٨ . (٣) الموازنة ٢/ ٥٨ .

ولقد اختار (الآمدى) أمثلة كثيرة ليثبت دعواه ، وذلك عند ما أورد عن البحترى [1] وصفه الخيال :

فلا وصل الا أن يطيف خيالها ... بنا تحت جؤشوش من الليل أسفع
ألمت بنا بعد الهدوّ فسامحت ... بوصل متى تطلبه في الجد تمنع
وما برحت حتى مضى الليل فانقض ... وأعجلها داعى الصباح الملمَّع
فولّت كأن البين يخلج شخصها ... أوان تولت من حشاى وأضلعي
ورب لقاء لم يؤمل ، وفرقة ... لأسماء لم تحز ولم تتوقع
أسر بقرب من ملم مسلّم ... وأشجى ببين من حبيب مودع
وكائن لنا بعد النوى من تفرق ... تزجيه أحلام الكرى ، وتجمّع
ومن لوعة تعتاد في إثر لوعة ... ومن أدمع ترفض في إثر أدمع

فانظر إلى هذه العبارة الحسنة ، وإخباره اياك بالشيء على ما كان ونحو ذلك في الحسن والصحة ، قوله [2] :

وإنى وإن ضنت على بودها ... لأرثاح منها للخيال المؤرق

إلى قوله [3] :

أضم عليه جفن عيني تعلقا
به عند إجلاء النعاس المرنق

فقوله : ((أضم عليه جفن عيني تعلقا)) من أحسن كلام ، وأصح معنى ، وأصدقه ، وأكثره ، وكثيرا ما ينال أكثر الناس ذلك عند جلاء النوم ، وابتداء اليقظة ، إذا كان في رؤيا يلذها)). [4]

إلى أن يقول في موضع آخر .

---

(١) هذه الأبيات من الطويل ، انظر الأمالى ١/ ٢٢٨ .
(٢) من البحر الطويل .
(٣) البيت من الطويل .
(٤) الموازنة ٢/ ١٧٤ ، ١٧٥ .

((و من حذق الشاعر أن يصور لك الأشياء بصورها ، و يعبر عنها بألفاظها المستعملة فيها ، و اللائقة بها)). (١)

و الآن و بعد أن شرحت آراء العلماء الأوائل ممن يفضل الصدق ، و ينحى الفضل له في جمال الشعر ، لأنه - اى الشعر - يكون للنفس أقرب و من القلب ألصق ، فإني سأبين رأى (الشيخ عبد القاهر) في هذه القضية ، و من ثم نستنتج إلى أى مدى استفاد من سابقيه ، و كيف أنه أخذ منهم ، و لكنه لم يصرح بذكرهم .

يقول (الشيخ عبد القاهر) : ((و العقل يعد على تفضيل القبيل الأول — ما يجرى من العقل على أصل صحيح - و تقديمه ، و تفخيم قدره و تعظيمه ، و ما كان العقل ناصره و التحقيق شاهده ، فهو العزيز جانبه ، المنيع مناكبه ، وقد قيل : الباطل مخصوم و إن قضى له ، والحق مفلج ، و إن قضى عليه)). (٢)

فهو صراحة يميل إلى نصرة العقل ، و ما كان من الشعر قريبا من الواقع ، فهو العزيز جانبه ، المنيع مناكبه .

و الواضح من عبارة (الشيخ عبد القاهر) أنه يتفق مع (الآمدى) في تفضيل الصدق و إيثاره ، بل انه يجعل الصدق مقابلا للباطل ، و مرادفا له و لذلك كان تفسيره لقولهم (خير الشعر أصدقه) : بأن ((ما دل على حكمة يقبلها العقل ، و أدب يجب به الفضل ، و موعظة تروض جفاح الهوى ، و تبعث على التقوى ، و تبين موضع القبح و الحسن في الأفعال ، و تفصل بين المحمود و المذموم من الخصال)). (٣)

ثم يقول : ((و قد ينحى به الصدق في مدح الرجال ، كما قيل : كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما هو فيه)). (٣)

---

(١) المصدر نفسه ٢/ ١٩٩ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٢٣٧ .

(٣) أسرار البلاغة ص ٢٣٦ .

وفي هذا التفسير يوافق ما قال به الآمدى ، إذ يقول :

((وقالوا - يريد أهل العلم - في معنى قول عمر بن الخطاب : كان زهير بن أبي سلمى - لا يمدح الرجل إلا بما في الرجال)) أنه أراد لا يمدح السوقه بما يمدح به الملوك ، ولا يمدح التجار وأصحاب الصناعات بما يمدح به الصعاليك والأبطال ، وحملة السلاح ، فإن الشاعر إذا فعل ذلك فقد وصف كل فريق بما ليس فيه)). (١)

وهذه ترجمة لرأى عبد القاهر عند شرحه لقول البحترى : ((والشعر يكفى عن صدقه كذبه)) حيث يقول : ((إذ يبعد أن يريد بالكذب إعطاء الممدوح حظاً من الفضل ، والسؤدد ليس له ، ويبلغه بالصفة حظاً من التعظيم يجاوز به من الإكثار محله)). (٢)

(فالبحترى) في رأى (عبد القاهر) ، ينكر من يكلفونه حدود منطقهم أن يلزموه أن يجرى مقاييس الشعر على حدود المنطق ، ويأخذ فيه بالقول المحقق ، حتى لا يدعي إلا ما يقوم عليه من العقل برهان .

أما قولهم :-

(خير الشعر أكذبه)

فقد نحا الشيخ عبد القاهر فيه منحى الآمدى حين فسر قولهم : (خير الشعر أكذبه) ، إذ يقول :

((إنهم لم يقولوا : خير الشعر أكذبه ، وهم يريدون كلاما غفلا ساذجا يكذب فيه صاحبه ، ويفرط نحو أن يصف الحارس بأوصاف الخليفة ، ويقول للبائس المسكين : إنك أمير العراقين ولكن ما فيه صنعة يتعمل لها ، وتدقيق في المعاني يحتاج معه إلى فطنة لطيفة ، وفهم ثاقب وغوص شديد)). (٣)

---

(١) الموازنة ١/٢٩٣ ، ٢٩٤ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٢٥١ .

(٣) أسرار البلاغة ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

و هو بهذا يستضيء بقول الآمدى : ((لا يمدح السوقه بما يمدح به الملوك . .)) و يقول (الآمدى) في موضع آخر ، في أبيات للبحترى :[1]

فما بلغ الدمع الذى كنت أرتجى
ولا فعل الوجد الذى خلت يفعلُ

و ما كل نيران الجوى تحرق الحشا
ولا كل أدواء الصبابة يقتلُ

و قد كان قوم من الرواة يقولون : أجود الشعر أكذبه ، ولا والله ما أجوده إلا أصدقه ، إذا كان له من يلخصه هذا التلخيص ، و يورده هذا الإيراد على حقيقته)).[2]

اما الجزء الأول من عبارة (الشيخ عبد القاهر) في تفسير الصدق ، فقد نحا فيها منحى (ابن طباطبا العلوى) ، الذى يقول :

((و تودع - اى الأشعار - حكمة تألفها النفوس ، و ترتاح لصدق القول فيها ، و ما أتت به التجارب منها)).[3]

و إنه كما ذكرت ، فإن عبارة عبد القاهر ظاهرة في أنه أراد بالصدق ما يطابق الواقع ، و بالكذب فيه صنعة يتأنق لها الشاعر .

وإن مراد الصدق لدى (عبد القاهر) ما قارب الواقع ، بل يعد هذا النوع من أحسن الشعر ، و دليل ذلك استحسان (عبد القاهر) قول المجنون:

و انى لأستغني و ما بي غشية
لعل خيالا منك يلقى خياليا

فقد ذكره (الشيخ عبد القاهر) ، و علق عليه ، بقوله : ((قد يتصور

---

(١) البيتان من الطويل .

(٢) الموازنة ٢ / ٥٨ .

(٣) عيار الشعر ص ١٢٥ .

أن يريد المغرم المتيم اذا بعد عهده بحبيبه أن يراه في المنام ، وإذا أراد ذلك جاز أن يريد النوم له خاصة فاعرفه)) .(١)

فالذى يقصده الشيخ عبد القاهر ، أن الشاعر هنا لم يكذب ، وإنما عبر عن شيء قد يعرض له ، فهو قريب من الواقع .

ولعل (الشيخ عبد القاهر) قد استأنس في هذا بقوله (أبي العباس المبرد) ، أو بما ورد في ترجمة (عبد بنى الحسحاس) في الشعر والشعراء لابن قتيبة الذى عاب بعض أبيات المبالغة ، التي تجافى الواقع ، ولم يستحسن منها إلا قول هذا الشاعر . (٢)

فما زال بردى طيبا من ثيابها
إلى الحول حتى أنهج البرد باليا

وقد قدم له بقوله : ((ومما أخذ عليه قوله ، وذكر التقاءه وعشيقته ، ثم عقب له بقوله : ((وقال آخرون : هو على التوهم لفرط العشق ، وهو نحو قول الأعرابي حين قيل له : ما بلغ من حبك لها ؟ فقال إني لأذكرها وبيني وبينها عقبة الطائف ، فأجد من ذكرها ريح المسك)) . (٣)

ولقد سبق ذكر عبارة ابن طباطبا الواضحة في الصدق الفني : ((إذا أيدت المعاني بما يجذب القلوب من الصدق عن ذات النفس بكشف المعاني المختلجة فيها)) .(٤)

فليس بعيدا ولا مستغربا أن يكون نقادنا القدامى ، قد عرفوا الصدق الفني بجانب الصدق الواقعي .

المجيزون للمبالغة المستحسنون لها :

---

(١) أسرار البلاغة ٢٧٥ .

(٢) البيت من الطويل .

(٣) الشعر والشعراء ١ / ٤٠٨ ، ٤٠٩ .

(٤) عيار الشعر ص ٢٢ .

١ - النابغة الذبيانـــي :

فقد سئل من أشعر الناس ؟ فقال من استجيـــــد كذبه ، و أضحك رديئه .

و ربما دل هذا على مذهبه في المبالغة ، ما روى من نقده لحسان بن ثابت إن كانت القصية صحيحة (١) و ذلك أن أكثر نقده كان عيبا على حسان أنه لـــم يحسن المبالغة .

٢ - ابن قتيبـــــة :

لقد وردت لابن قتيبة عدة أقوال يصرح فيها بحسن المبالغة لأنها وردت في القرآن الكريم ، و استشهد لذلك بعدة آيات منها قوله تعالـــى : (و بلغت القلوب الحناجر) (٢) حيث يقول : ((و أكثر ما في القرآن من مثل هذا فإنه يأتي بكاد ، فما لم يأت بكاد ففيه إضمارها ، كقوله تعالى : ((وبلغت القلوب الحناجر) أى كادت من شدة الخوف تبلغ الحلوق ، و قد يجوز أن يكـــون أراد أنها ترجف من شدة الفزع و تجف و يتصل وجيفها بالحلوق فكأنهابلغـــت الحلوق بالوجيب و هم يصفون القلوب بالخفقان ، و النزوعند المخافة و الذعـــر .

قال الشاعر في وصف مفازه تنزو من مخافتها قلوب الأدلاء (٣) ،

كأن قلوب أدلائهـــا معلقة بقرون الظبـــاء

و يقول في هذه الآية عند ما رد على الطاعنين على القرآن ، و ذلك عند مـــا تساءلوا كيف تبلغ القلوب الى الحلوق ، و القلب ان تحرك من موضعه مات صاحبـــه ، يقول :

((و قالوا في قوله تعالى : (و بلغت القلوب الحناجر) : كيف تبلـــغ القلوب الحلوق ، و القلب إن زال عن موضعه شيئا مات صاحبه)) (٤)

---

(١) نقد الشعر لقدامه بن جعفر .

(٢) سورة الأحزاب آيه ١٠ .

(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبه ص ١٧١ . ١٧٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣١ .